الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة أبي بكر بلقايد - تلمسان -
كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية

قسم : التاريخ

تخصص : الثقافة شعبية: فنون شعبية

أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه علوم بعنوان

مراكز التصوف والمتصوفة في الجزائر العثمانية خلال القرنين (السادس عشر والثامن عشر)

-دراسة فنية تحليلة-

إعداد الطالب:
حكيم بن يلس

إشراف الأستاذ:
أ. د. مصطفى أوشاطر

لجنة المناقشة

أ.د شعيب مقنونيف	أستاذ	جامعة تلمسان	رئيسا
أ.د أوشاطر مصطفى	أستاذ	جامعة تلمسان	مشرفا ومقررا.
أ.د مصطفى حجازي	أستاذ	جامعة تلمسان	عضوا.
د. عز الدين تربش	أستاذ محاضر(أ)	جامعة الجلفة	عضوا.
د. إسماعيل محروق	أستاذ محاضر(أ)	جامعة المدية	عضوا.
د. قاسمي بختاوي	أستاذ محاضر (أ)	جامعة سيدي بلعباس	عضوا

السنة الجامعية: 1442-1443هـ/2020-2021م

الإهداء

أهدي هذا العمل المتواضع إلى روح الوالدة والأخ الأكبر رحمهما الله .

والوالد أطال الله في عمره .

وإلى سندي ورفيقة دربي زوجتي العزيزة التي شجعتني وآزرتني على إتمام هذه المذكرة أدعوا لها بالصحة والعافية وراحت البال .

وإلى فلذات كبدي سكينة، مروة، دعاء وآخر العنقود محمد الحبيب .

وإلى كل أساتذة وإداريي قسم الفنون بجامعة مستغانم كل باسمه، وكل الأصدقاء والزملاء والأقارب والأصهار وأخص بالذكر الحاج بشير ، وإلى أم الزوجة الفاضلة وإلى روح والدها الكريم .

وإلى كل من يعرفني من قريب أو بعيد .

كلمة شكر و عرفان

أشكر الله تعالى على توفيقه لإتمام هذا العمل .

من باب من لا يشكر الناس لا يشكر الله، أتوجه بجزيل الشكر و الامتنان إلى الأستاذ الدكتور أوشاطر مصطفى حفظه الله الذي شجعني وأمدني بنصائحه القيمة فكان نعم المشرف و الأستاذ .

كما لا يفوتني أن أتقدم بشكري لأعضاء لجنة المناقشة كل باسمه .

و أخص بالذكر الأستاذ الدكتور مقنونيف شعيب الذي وقف إلى جانبي وساعدني فله مني كل التقدير والاحترام .

كما لا أنسى الأستاذ الدكتور حجازي مصطفى زميلي في الدراسة ورفيقي في حجي فله كل التحية والود والاحترام.

كذلك الدكتور محروق إسماعيل، والأخ والصديق المحترم بختاوي قاسمي والزميل الدكتور ترش عز الدين .

فلكم مني أسمى معاني التقدير و الاحترام.

مقدمة

مقدمة:

إن ظاهرة التصوف في العالم الإسلامي قديمة تعود إلى القرن الثالث الهجري رغم أن هناك من يرجعها ويعود بجذورها الأولى إلى الفترة الأولى التي أصابت الأمة عقب وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم ونأي الكثير من الصحابة والمؤمنين بأنفسهم بعيدا عن ذلك الصدام الذي كانت نواته مشكلة الخلافة .

والجزائر كباقي الأقطار الإسلامية شهدت انتشارا لهذه الظاهرة التي بلغت أوجها خلال العهد العثماني تحديدا في القرن السادس عشر ميلادي، إذ اتسع نشاط الفرق الصوفية فانعكس ذلك في أثرها الاجتماعي بأن ساهمت في بعث التقاليد الإسلامية في أوساط الكثير من التجمعات البربرية ناهيك عن دورها في التقريب بين عناصر السكان إذ جعلت منهم وحدة متجانسة ومندمجة بما زرعته من قيم ومبادئ التسامح والتآزر ونبذ الخلافات.

أسباب اختيار الموضوع:

تكمن أهمية البحث في موضوع مراكز التصوف و المتصوفة خلال العهد العثماني فيما تقدمه من إجابة عن كثير من الأسئلة التي تدور أساسا حول تراجع دور وأثر السلطة المغاربية سياسيا وحضاريا .

الإشكالية:

عملت السلطة العثمانية بالجزائر على تشجيع التصوف ودعم الطرق الصوفية والزوايا وفقا لاستراتيجية تخدم مصالحها وتوجهها في هذا البلد، فهل تمكنت هذه السلطة من توجيهها فعلا بما أرادته وما مدى التأثير والتغير الذي أحدثته في المجتمع الجزائري؟.

تفرض علينا الدراسة أيضا طرح جملة من التساؤلات سنحاول الإجابة عنها في طيات البحث ومنها:

-ما هي الأسس التي بنيت عليها مراكز التصوف في الجزائر ؟

-ما هو الدور الذي قامت به الزوايا في المجتمع الجزائري؟

-وهل تمكنت من اخضاع المجتمع لسلطتها والسيطرة عليه ؟

المنهج المتبع:

حاولنا منذ البداية اعتماد المنهج التاريخي وذلك بالعودة إلى المادة التاريخية المتناثرة والمتفرقة هنا وهناك، لقد استفدنا من أطروحات منهجية متعددة وحاولنا تنظيم ما أخذناه من هذه المناهج تنظيما يتناسب ومتطلبات الموضوع الذي نعتقد أنه يفرض علينا ولوجه الاستعانة بمناهج ومعارف متعددة ومتكاملة في آن واحد، وإلى جانب المنهج التاريخي استفدنا من المنهج الاجتماعي، وبعض الدراسات الأدبية الأنتروبولوجية والدينية.

إن هذا النوع من ليس من باب الترف المنهجي والمعرفي وإنما أملته وفرضته طبيعة البحث الذي نعتقد أنه يتحرك من صيب الطرح المعرفي والمنهجي بين مجالين مختلفين:

المجال المقدس أي ما يتعلق بالجانب الأخروي، المجال المدنس الدنيوي، فالحديث عن المقدس وعلاقته بالزاوية يفرض علينا توظيف أدوات وإجراءات معرفية مستمدة من مصادر أصلية (دينية، تاريخية وفقهية)، أما الحديث عن المدنس وعلاقته بالزاوية يفرض علينا توظيف أدوات معرفية مستمدة أساسا من العلوم الإنسانية والاجتماعية.

خطة البحث:

لقد قمت بتقسيم هذا الموضوع إلى مقدمة وخمسة فصول :

المقدمة: تضمنت سبب اختيار الموضوع وأهمية البحث والمنهج المتبع في الدراسة.

الفصل الأول: ظاهرة التصوف في الجزائر خلال العهد العثماني، تناولت فيه ظاهرة التصوف في الجزائر خلال العهد العثماني، خاصة خلال القرن 16 و17م، وقمت بتقسيمه إلى أربعة مباحث:

المبحث الأول: الأوضاع العامة للجزائر خلال العهد العثماني، تطرقت فيه إلى ظروف العامة التي سبقت التواجد العثماني في الجزائر حيث ركزت على أواخر العهد الزياني في الجزائر الذي تميز بالضعف والتراجع في شتى مجالات الحياة.

المبحث الثاني: الطريقة الصوفية، حيث تناولت فيه مفهوم الطريقة الصوفية ونشأتها وتطورها في العالم الإسلامي، ثم أشرت إلى أهم الطرق الصوفية في الجزائر وعوامل تطورها وجذورها، فهي ليست وليدة العهد العثماني بل ترجع إلى قرون خلت يمكن تحديدها بالقرن 5هـ أو 6 هـ الموافق 11م أو 12 م أي بظهور الدولة المرابطية والموحدية مرورا بالزيانية.

المبحث الثالث: نشأة الطريقة الصوفية وتطورها في العالم الإسلامي.

المبحث الرابع: الطرق الصوفية في الجزائر، تناولت فيه أبرز وأشهر الطرق الصوفية كالقادرية والشاذلية والزروقية والرحمانية.

الفصل الثاني: الزاوية في العمارة الإسلامية، حيث قسمت هذا الفصل إلى أربعة مباحث.

المبحث الأول: تعريف الزاوية لغة واصطلاحا.

المبحث الثاني : نشأة الزاوية وتطورها، تطرقت في هذا المبحث إلى البدايات الأولى لظهور الزوايا في العالم الإسلامي حيث ظهرت ملامحها في صدر الإسلام يمكن إرجاعها إلى الصحابة عليهم الرضوان وما وجود أهل الصفة إلا خير دليل على هذا الكلام.

المبحث الثالث: مراحل تكونها ومهامها، حيث مرت الزاوية في بداية نشأتها بمراحل هامة بدءا من الخلوة والاعتزال ولها أصلها في الإسلام عندما كان الرسول صلى الله عليه وسلم يخلوا بنفسه في غار حراء للتعبد ومناجاة الخالق سبحانه وتعالى.

المبحث الرابع: التكوينات المعمارية للزاوية، وغذا نحن تحدثنا عن العمارة في الزوايا فنجد أنها تتشكل من العناصر التالية: المسجد، الضريح، الصحن، الغرف، المطبخ، المخزن.

المبحث الرابع : أنواع الزوايا ووظائفها، لقد اختلفت الزوايا في الجزائر من منطقة إلى أخرى حيث ظهرت زوايا المشايخ وزوايا المرابطين والأشراف خاصة في منطقة القبائل، بالإضافة إلى نوع آخر و هو الزاوية المنسوبة إلى شخص ميت يكون محل هيبة وتقديس من العامة، فنقول مثلا زاوية سيد أحمد المليانى أو زاوية سيدي عبد الرحمن الثعالبي وهكذا.

الفصل الثالث: مراكز التصوف في الجزائر العثمانية، تطرقت فيه إلى بعض الزوايا الجزاائرية الموجودة في الشرق، الوسط والغرب، وقسم الفصل إلى ثلاث مباحث:

المبحث الأول: زوايا الشرق الجزائري.

المبحث الثاني: زوايا الوسط الجزائري .

المبحث الثالث: زوايا الغرب الجزائري.

واقتصرت في هذه المباحث على ذكر نماذج للزوايا في كل منطقة من مناطق الجزائر الشاسعة.

الفصل الرابع: مراحل التربية الروحية عند الصوفية، إذا نحن تحدثنا عن التصوف كمسألة فردية فإنه يرتكز على قواعد ومسلكيات خاصة تكلم عنها علماء التزكية والسلوك (الأحوال و المقامات)، تقوم على أساس الذوق والكشف كما أن مصدر المعرفة الحقيقية من وجهة نظر المتصوفة هو القلب.

والمقامات كما أوردها الإمام الطوسي في كتابه "اللمع" سبعا وهي : مقام التوبة ، مقام الورع، مقام الزهد، مقام الفقر، مقام الصبر، مقام التوكل، مقام الرضا .

أما الأحوال فإنها تنزل من لدن الله تعالى إلى القلب. ومن هذه الأحوال: القرب – المحبة- الخوف- الرجاء- الأنس- الاطمئنان- المشاهدة- اليقين.

وقد قمنا بتقسيم هذا الفصل إلى ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: الطريق عند الصوفية ومراحله.

المبحث الثاني: الولاية والكرامة الصوفية، تناولت فيه مفهوم الولاية والكرامة عند السادة الصوفية.

المبحث الثالث: الجوانب الجمالية والفنية للتصوف، حاولنا خلال هذا المبحث الوقوف على أهم العناصر الجمالية للتصوف كفن الذكر و السماع و الحضرة.

الفصل الخامس: أعلام التصوف في الجزائر، ركزنا فيه على أبرز رجال التصوف الذين عملوا على نشر التصوف الحقيقي ومحاربة البدع والخرافات التي انتشرت خاصة في القرى والأرياف، ومن أشهرهم عبد الرحمن الأخضري وعبد الكريم الفكون، إلى جانب الحسين الورثيلاني الذي ذاع صيته وعرف بالرحلة الورثيلانية، وأبو راس الناصري.

وعليه قسمنا هذا الفصل إلى أربعة مباحث :

المبحث الأول: عبد الرحمن الأخضري، تناولت فيه مولده ونشأته ومكانته العلمية وتصوفه وختمت هذا المبحث بالإشارة إلى مؤلفاته.

المبحث الثاني: عبد الكريم الفكون، تعرضنا فيه إلى أهم العوامل التي ساهمت في تكوين شخصية الفكون وبالأخص دور والده في صقل شخصيته وتكوينه العلمي والديني، ثم عرجنا على ذكر مؤلفاته وتصوفه .

المبحث الثالث: الحسين الورثيلاني، تناولنا فيه التعريف بالورثيلاني وبينا كيف ساهم المتصوفة في ربط المغرب الإسلامي بالمشرق من خلال رحلته العلمية التي زار من خلالها العديد من الدول الإسلامية والتقى بالكثير من العلماء فأفاد واستفادكما أشرنا إلى مؤلفاته وتصوفه.

المبحث الرابع: الشيخ أبو راس الناصري، تطرقت في هذا المبحث إلى شخصية علمية موسوعية فذة تميزت بقوة الذاكرة حتى لقب بالحافظ الفهامة، كانت له عدة رحلات داخل الوطن وخارجه ومناظرات علمية مع الكثير من العلماء ، أعلم أهل زمانه بتاريخ

الأنساب وشيوخ المذهب، ورّث مؤلفات عديدة في شتى فنون العلم والمعرفة منها ما تم تحقيقه والبعض الآخر إما ضاع أو هو حبيس المكتبات والرفوف، أملنا أن يوضع تحت تصرف الدارسين والطلبة الباحثين.

وأنهيت البحث بخاتمة تطرقت فيها إلى بعض النتائج والاستنتاجات المتوصل إليها.

مما لا شك فيه أن كل بحث علمي تعترضه مجموعة من المشاكل منها نقص المادة العلمية وقلة المصادر والمراجع التي تحدثت عن الزوايا في الفترة العثمانية وتبقى متعت البحث في عوائقه ومشاكله.

تلمسان 2021/07/06

حكيم بن يلس

مدخل

نشأة التصوف في المغرب الإسلامي

المبحث الأول: تعريف التصوف

لم يسبق أن دار نقاش حول موضوع بقدر ما دار حول التصوف والطرق الصوفية.

ففي البداية وقع خلاف كبير حول مدلول كلمة التصوف ومصدره واشتقاقه، وقد حاول المختصون بدراسة التصوف الوصول إلى المعنى الأصلي لكلمة تصوف، قيل أن اشتقاقه من الصوف، وقيل الصفاء، والبعض الآخر ينسبه إلى أهل الصفة، وقيل، أنه من الصفاء والبعض قال إنه نسبة إلى الصف الأول[1].

لقد اختلف العلماء الباحثون حول التاريخ الذي ظهرت فيه كلمة "صوفي"، ففريق يرى: أن هذا الاسم اشتهر بعد مائتين سنة من الهجرة النبوية أي أنه اسم استحدث يعد الصحابة والتابعين وفريق يذهب إلى أنه لفظ جاهلي عرفه العرب قبل الإسلام، ومهما يكن من أمر هذا الخلاف فإن أوثق المصادر الصوفية تظهر لنا أن أول من أطلق عليه اسم صوفي هو أبو هاشم الكوفي سنة 150هـ، وهو عربي من الكوفة عاش معظم حياته في الشام.

1.التعريف اللغوي:

لقد اختلف فطاحل العلماء اختلافا كبيرا في أصل اللفظ، وقد ألف عبد القهار البغدادي المتوفى في 429هـ/1037م كتابا في معنى "الصوفي" والتصوف جمع فيه ألف قول مرتب على حروف المعجم[2] وهذا عرض لأبرز هذه الآراء:

[1]- منال عبد المنعم جاد الله، التصوف في مصر والمغرب، دار المعارف، 1997، ص: 115

[2]- البغدادي، نقلا عن عبد الكريم محمد، التصوف في ميزان الإسلام، مطبعة النهضة، وهران، دت، ص ص 14-15

قيل لفظة صوفي منسوبة إلى الصف الأول المقدم في الصلاة ومشتقة منه لأن صاحبه واقف بين يدي الله تعالى وأمامه بقلبه وأسراره[1].

وقيل إن كلمة صوفي منسوبة إلى الصفة[2] ومشتقة منها وهي السقيفة أو المقعد أو الزاوية في مؤخرة مسجد الرسول "ص" بالمدينة كان يأوي إليها أهل الصفة[3] عرفوا بأنهم أضياف الله[4].

وقيل أنها مشتقة من الصفاء، هذا ما ذهب إليه أكثر الفقهاء المتصوفين كأبي حامد الغزالي، وابن عطاء الله الاسكندري، وغيرهما...وإلى هذا يشير أبو الفتح البستي[5] في هذين البيتين:

تخالف الناس في الصوفي واختلفوا جهلا وظنوه مأخوذا من الصوف

ولست أنحل هذا الاسم غير فتى صافي فصوفي حتى سمي الصوفي[6]

---

[1]- السهر وردي، عواف المعارف، المجلد 05، من كتاب إحياء علوم الدين للغزالي، منشورات دار الكتب العلمية، بيروت، 1998، ص 65

كذلك عبد الرزاق قسوم، عبد الرحمن الثعالبي والتصوف، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1978، ص 50

[2]- محمد بن عبد الكريم، التصوف في ميزان الإسلام، مطبعة النهضة، ص 15

[3]- أبي نعيم الأصفهاني، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، الجزء1، دار الكتب العلمية، بيروت، دت، ص 338

كذلك السهر وردي، المرجع السابق، ص 65

[4]- أحمد زروق، قواعد التصوف، صححه ونقحه محمد زهري النجار، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، 1968، ص 06

[5]- هو علي بن محمد بن الحسين (330-400هـ/941-1009م) نسبة لبست بأفغانستان محمد وفقيه وأديب له شعر

[6]- محمد بن عبد الكريم، المرجع السابق، ص 16، عبد الرزاق قسوم، المرجع السابق، ص 51

وقيل إلى أحد الرجال أو قبيلته ويسمى صوفي أبو يحي مصر وهو الغوث بن مر الجاهلي، أحد سدتة الكعبة أو الذي نذر نفسه خدمة الكعبة[1] وخدمة زوارها اشتهر بالزهد والعبادة[2].

وقيل أن التصوف مأخوذ من كلمة يونانية اختلفوا فيها: فمن قائل أنها صوفيا[3] وهي الحكمة الإلهية ومن قائل أنها صوفوس ومعناها حب الحكمة أو حكيم[4].

وقيل إنها منسوبة إلى ظاهر الحال والزي أي إلى اللباس الظاهر، وقد اختار هذا المذهب أغلبية مؤرخي التصوف كالسراج الطوسي وأبو بكر الكلابادي وابن الجوزي وابن خلدون وابن تيمية والسهر وردي وقالوا إنه الصحيح[5].

النتيجة أن الأصول التي ذكرها بعض الباحثين مبالغ فيها، وقد قال ابن تيمية عن الأقوال السابقة "هي أقوال ضعيفة لأنه لو كان كذلك لقيل صفي أو صفائي أو صفوي أو صفى وليس صوفي"[6].

وهذه الأقوال كلها، إن انطبقت على أوصاف الصوفي من حيث المعنى فهي غير منطبقة عليه من حيث النسبة في المبنى، كما هو معروف ومصطلح عليه في قواعد اللغة العربية[7]،

---

[1]- جمال الدين محمد بن مكرم الأنصاري بن منظور، لسان العرب، الجزء 11، طبعة بولاق، د.ت، ص 102

[2]- عبد الرحمن بن الجوزي، تلبيس إبليس، منشورات دار مكتبة الهلال، بيروت، 1991، ص 186

[33]- أحمد بن تيمية، مجموع فتاوى شيخ الإسلام، المجلد 11، مكتبة المعارف، الرباط، دت، ص 195

[4]- Depont octave et coppoloni les confréries musulmanes, j Maison neuve, Paris, 1987, pp 75- 76

[5]- قاسم غني، تاريخ التصوف في الإسلام، ج1، ترجمه عن الفارسية صادق نشأت، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1970، ص 69

[6]- ابن تيمية، المصدر السابق، مجلد 11، ص 195

[7]- ابن عبد الكريم، التصوف...، ص 16

وإذا صحت نسبة الصوفي إلى مادة الصوف من حيث المبنى اللغوي فهو ليس متقيدا بلباس الصوف[1].

ليس الصوف ليس كافيا للانتماء إلى أهل التصوف "فالسر في نفس سحنون وليس السر في تعريف النون"، ولو كانت التقوى بلبس الصوف لطار الخروف.

وقد كره الإمام مالك رضي الله عنه لبس الصوف لمن وجد غيره من الألبسة، لما في ذلك من الشهرة بالزهد، مع أن إخفاء العمل أولى بالصالحين والمتقين، وتحسين الثياب إظهار نعمة الله على عبده[2].

قال عباس محمود العقاد "ولبس الصوف ليس خاصية مميزة لأن هناك كثير من الصوفية أخذوا نصيبهم من الدنيا، ولم يلبسوا الصوف وكانوا صوفية لصفاء قلوبهم"[3]، فهموا أن الزاهد من لا تملكه الدنيا وإن ملكها.

ويعتبر القشيري البحث في الأصل اللغوي أمر لا طائل من ورائه، إذ يرى أن الصوفية غير مختصين بلبس الصوف فلا يشهد له قياس ولا اشتقاق بل ينتسبون إلى أشرف صفة بعد تبعية الصحابة وهي الصفو[4].

---

[1]- ماهر محمود، الصوفية، ملف العقيدة، التصوف، الشبكة الإسلامية Islam online

[2]- ابن عبد الكريم، نفسه، ص ص 17-18 و21

[3]- عباس محمود العقاد، التفكير فريضة إسلامية، مكتبة رحاب، الجزائر، د.ت، ص 14

[4]- عبد الكريم القشري، الرسالة القشيرية في علم التصوف، تحقيق وإعداد: معروف زريق وعلي عبد الحميد أبو الخير، طبعة2، دار الجيل للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، بيروت، 1995، ص 279

2. التعريف الاصطلاحي:

هناك عدة تعريفات نذكر منها:

- قال الجنيد: "التصوف أن تكون مع الله بلا علاقة"
- وقال معروف الكرخي: "التصوف الأخذ بالحقائق واليأس مما في أيدي الخلائق"
- وقال عبد القادر الجيلاني: "التصوف هو الصدق مع الحق وحسن الخُلقِ مع الخَلقِ"[1].
- هو علم مدون تعرف به كيفية تصفية الباطن من عيوب النفس شرعا وعقلا[2].
- هو العكوف على العبادة والانقطاع لله والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه، والانفراد عن الخلق في الخلوة للعبادة وكان ذلك عاما في الصحابة والسلف[3].
- هو فقه القلوب أو الآخرة أو علم الباطن وهو يوازي علم الظاهر أي الفقه[4].
- وهو عمليا تصوف تأملي وعاطفي وتنمية منظمة للخبرة، أو التجربة الدينية[5]، فهو ليس نظاما فلسفيا ولا فرقة دينية وإنما طريقة للعيش في صفاء كامل دون إيديولوجية ولا قواعد ولا عقلانية، وجوده يكمن في الإحساس والحدس والانطباع[6].

يتضح من هذه التعريفات أنها وليدة تجارب ذاتية ومن ثم تختلف من صوفي لآخر، لهذا فقد تم تصنيف تعريفات التصوف إلى ثلاثة مجالات، مجال يربط التصوف بالسلوك والأخلاق

---

[1]- منال عبد المنعم جاد الله، التصوف والمتصوفة في مصر والمغرب، دار النشر المعارف، 1997، ص 116

[2]- عبد الكريم القشيري، المرجع السابق، ص 279

[3]- ابن عبد الكريم، المرجع السابق، ص 14

[4]- الطاهر بونابي، حركة الصوفية في المغرب الأوسط خلال القرنين 6-7هـ/12-13م، رسالة ماجستير تاريخ إسلامي معهد التاريخ 1999-200، ص 7

[5]- سبنسر ترمنجهام، الصوفية في الإسلام، ترجمة: عبد القادر البحراوي، طبعة 1، دار النهضة العربية، بيروت، 1997، ص12.

[6]- Louis Rinn Marabouts et Khorans librairie édition Alger, 1884, p 68.

ومجال يربطه بالنّسك وصور العبادات، ومجال ثالث يربط التصوف بالمعرفة والمشاهدة، ونكتفي بهذه النماذج من التعاريف التي ساقها لنا أصحاب التصوف وتلامذتهم نظن أنها كافية لتعطينا لمحة أولية عن هذا المذهب أو المنهج[1].

أما أهل الاستشراق لا يزالوا معنيين بالتصوف يحاولون على غرار كثرة من الباحثين وأهل التخصص المهتمين بموضوع التصوف إيجاد تعريف مضبوط بالغرض لهذا المصطلح.

يذهب أهل الاستشراق في مجموعهم إلى القول إن التصوف مذهب دخيل على الإسلام ودليل هؤلاء أن اتصال المسلمين الأولين بالأمم المجاورة لهم والديانات المتعايشة معهم قد أثرت كثيرا في توجيه بعض المسلمين إلى النزعة الصوفية، وإذا سلمنا بهذا الرأي انطلاقا من هذه النظرية يصبح التصوف الإسلامي مذهبا تابعا من مذاهب وديانات مختلفة كالمسيحية والبوذية والفارسية و الصينية، واللذين يميلون إلى هذا الرأي كثير أبرزهم رينولد نيكولسون وإيسين وبلاسيون وغيرهم، وكل واحد من هؤلاء حاول إيجاد منهج غير إسلامي للتصوف بخلاف لوي ماسينون الذي ذهب إلى أن التصوف الإسلامي مصدره إسلامي مستنبط من الكتاب والسنة وسيرة الأولين[2].

وحتى وإن اختلفت آراؤهم حول هذه القضية فإنهم يكادون يتفقون على أمثلة يقدمونها كدليل على صحة الرأي القائل بأن التصوف مصدر دخيل على الإسلام ومن هذه الأمثلة من رواد الصوفية الأوائل ليسوا من أصل عربي كإبراهيم بن أدهم وشقيق البلخي، وأبي يزيد البسطامي وغيرهم[3].

---

[1]- بن لباد الغالي، زاوية سيدي بن عمر إشعاعاتها الاعتقادية والثقافية والنفسية، رسالة ماجستير، جامعة تلمسان 2000-2001، ص 78

[2]- المرجع نفسه، ص 79

[3]- عبد الرزاق قسوم، المرجع السابق ص ص 58-59

المبحث الثاني: البوادر الأولى لنشأة الصوفية

إن الدارس لتاريخ البشرية على مدى العصور والأجيال يجد أن الدين كان أمرا لازما لها، أنها لا يمكن أن تستغني عنه بحال ما، شأنها في ذلك شأن مقوماتها الضرورية، لهذا لم نجد أمة من الأمم استطاعت أن تعيش بمنأى عن العقيدة يستوي في ذلك الشعوب المتقدمة التي خطت خطوات كبيرة في سبيل الحضارة والمدنية أو الشعوب المتأخرة حضاريا.

وقد أسفر علم المقابلة بين الأديان على الإجماع على وجود ملكة الاعتقاد والاستعداد له، أيا كان موضوع الاعتقاد ونصيبه من الرشد والصحة، إلا أن العلماء اختلفوا في إيجاد الباعث في الطبيعة الإنسانية إلى طلب العقيدة، وهل هو ثابت أو متغير متجدد؟[1]

والكثير من الدارسين يرى أن ظهور العقيدة الدينية لدى الإنسان مرتبط بإحساسه بالضعف تجاه مظاهر الكون، فالإنسان في الأصل حيوان شرس يقاتل ويغالب ثم تأتي لحظات يصرعه فيها الضعف، فينتهي به الأمر إلى الاقتناع بأنه مخلوق ضعيف، وعندئذ يكون التدين والتدين في حد ذاته تصوف، لأنه نوع من الضعف، والضعف ينتهي إلى التسليم المطلق، فيرضى بالدون من العيش ويتوجه إلى التأمل في أصله ومصيره والتفكير في ملكوت السماء، فالضعف باب إلى التصوف[2].

لكن هذا رأي غير مسلّم به، فقد كان الأنبياء والدعاة إلى الأديان أقوياء من ذوي البأس والخلق المتين والهمم العالية والرأي السديد، وما زال ضعفاء النفوس ضعفاء العقيدة، فالأصح

---

[1]- عباس محمود العقاد، الله، كتاب في نشأة العقيدة الإلهية، الطبعة الثانية، دار المعارف، مصر، 1949، ص 09

[2]- زكي مبارك، التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق، الجزء 2، منشورات المكتبة العصرية للطباعة والنشر، بيروت، ص03.

والأولى أن العقيدة تعظم في الإنسان على قدر إحساسه بعظمة الكون وعظمة أسراره وخفاياه وبالتالي رهبة الإنسان وخشيته تجاه ذلك.

ومازلت البحوث والدراسات تتجدد في تحليل مسألة العقيدة، ولا نحيد إذا قلنا أن العقيدة هي ترجمان الصلة بين الكون والإنسان أو مظهر الصلة بين العالم الأكبر والعالم الأصغر كما يقول جماعة المتصوفة والنساك[1].

مما تقدم يمكن القول مثلما قال العقاد: "إن عناصر الصوفية الإسلامية مبثوثة في آيات القرآن الكريم، محيطة بالأصول التي تفرعت عليها صوفية البوذية والأفلاطونية، والمسلم يقرأ في كتابه تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾[2]، فيقرأ خلاصة العلم الذي يعلمه دارس اللاهوت في كتاب القديس توما[3].

---

[1]- العقاد، الله، ص ص 18 -19 -23- 25 (بتصرف)

[2]- سورة الشورى، الآية 11

[3]- العقاد، التفكير فريضة إسلامية، ص 115

قال القديس توما (1225-1274) بتوافق الديانة المسيحية مع الفلسفة العتيقة (أرسطو) كما حارب فكرة أن الملك هو ممثل الله على الأرض.

المبحث الثالث: العوامل المساعدة على ظهور التصوف

من أهم العوامل التي ساهمت في نشأة التصوف الجانب الروحي أي الشعور بالذنب والخوف الشديد من العقاب في الآخرة، أما الظروف السياسية التي كانت وراء نشأة التصوف فهي في اتساع مساحة الدولة الإسلامية وتعدد شعوبها وبالتالي اختلاف العادات والتقاليد الغربية عن الإسلام، وتخلي المسلمين تدريجيا عن كثير من أمور الدين والتكاسل عن أداء الفرائض والعبادات وظهور الترف والمنكرات.

في خضم هذه الأوضاع برزت دعوة تدعو إلى محبة الله أو ما أطلقت عليه من بعض المتصوفة العشق الإلهي، ومن هنا ظهرت طائفة زاهدة متبتلة متفقهة كردة فعل للترف والبذخ السائد وقتئذ ومن الظروف السياسية، كذلك الفتنة التي اشتعلت بعد مقتل الخليفة الثالث عثمان بن عفان (رض) وقيام الحروب الأهلية بين أنصار علي كرم الله وجهه وأنصار معاوية بن أبي سفيان ونتيجة لاضطراب الأحوال السياسية في ذلك العصر كان من شأنه إيثار بعض المسلمين لحياة العزلة والعبادة تورعا وابتعادا عن الدخول في الفتنة السياسية[1].

ويتضح مما سبق ذكره دور العوامل السياسية والاجتماعية في ظهور الفرق الصوفية مما أدى ببعض المسلمين إلى اعتزال الحياة الدنيا والانزواء للعبادة في الزوايا المخصصة لذلك.

مجمل القول أن لكل عامل من العوامل السابقة الذكر دوره الهام في نشأة التصوف، كما يتبين أن أهمية هذه العوامل تكمن في تأثيرها مجتمعة[2].

---

[1]- منال عبد المنعم جاد الله، المرجع السابق، ص ص 121-122

[2]- المرجع نفسه، ص 123

الفصل الأول:

ظاهرة التصوف في الجزائر خلال العهد العثماني

شهدت الممارسة الصوفية منذ القرن 5هـ/11م تبلورها في المؤسسة الطرقية التي انتشرت بشكل ملفت في أقطار المغرب العربي نتيجة عوامل مختلفة. ولما كانت الجزائر نقطة التقاء للأفكار والمذاهب السياسية، احتظنت الفكر الصوفي السني الوسطي المعتدل، الذي نما بشكل سريع ابتداءا من القرن الخامس عشر ميلادي وزاد تصاعده مع مجيء العثمانيين إلى الجزائر منذ القرن 10هـ/16م، هذا ما سنتطرق إليه في عذا الفصل بشيء من التفصيل.

المبحث الأول: الأوضاع العامة للجزائر خلال العهد العثماني

1. الأوضاع السياسية:

يستخلص من المصادر والمراجع التاريخية الخاصة بفترة البحث أن الأوضاع في مطلع القرن 10هـ/16م في المغرب الأوسط الذي أصبح يعرف منذ ذلك القرن باسم الجزائر، كانت متأزمة لأن إسبانيا التي استكملت وحدتها السياسية خلال النصف الثاني من القرن 9ه/15م بالقضاء على غرناطة آخر معقل من معاقل المسلمين في الأندلس في 997هـ/ 1492م وغدت على درجة كبيرة من القوة والازدهار[1]، في عهد الملك فرديناند وإيزابيلا وحفيدها شرلكان، وابنه فليب الثاني[2] نقلت ميدان الحرب ضد المسلمين إلى بلدان المغرب الكبير[3] التي استقبلت أعدادا كبيرة من المهاجرين الأندلسيين لاسيما في مدنها الساحلية التي

[1]- إن تتابع المخترعات: انتشار استعمال البارود، تعدد المراكز الفلكية، تطور تقنيات الملاحة البحرية، ظهور الطباعة...كل هذا جعل أوربا تتحفز لتجاوز حدودها الجغرافية المعروفة ورسم خطتها التوسعية. أنظر لطفي عيسى، مدخل لدراسة مميزات الذهنية المغاربية خلال القرن 17م، سراس للنشر، تونس، 1994، ص 28

[2]- سيطر الملكان الكاثوليكيان (إيزابيلا وفرديناند) في 1492م على غرناطة وفي نفس السنة اكتشف كريستوف كولمب العالم الجديد ومنذئذ بدأ الأسبان في تكوين إمبراطورية عظيمة.
للمزيد ينظر، أحمد جامع، الرأسمالية الناشئة، دار المعارف، مصر، 1968، ص 29

[3]-F. Braudel , la méditerranée à l'époque de Philipe 2, Tome 2, Librairie Armand Colin, Paris, 1976, p 20

أضحت مراكز لصناعة السفن[1]، ومنطلقا مع إخوانهم الجزائريين لغزو السفن والشواطئ الإسبانية، فاضطربت الأمور فيها إلى حد كبير، وقد أدى عجز الدول التي كانت قائمة وهي:

دولة بني مرين وخلفائهم الوطاسين في المغرب الأقصى، ودولة بني زيان في النصف الغربي للمغرب الأوسط (الجزائر) ودولة بني حفص في نصفه الشرقي وفي المغرب الأدنى (تونس) عن مواجهة الغزو الإسباني وفشل تلك الدول في التحكم في زمام الأمور الداخلية لضعفها بسبب التنافس المحموم على السلطة كل هذا أدى إلى تفكك داخلي كبير[2].

وإلى نجاح الأسبان احتلال مواقع كثيرة على السواحل، وتهديدهم لدواخل البلاد.

ويمكن القول فيما يتعلق بالمغرب الأوسط: إن دولة الزيانيين (634-958هـ/1236-1554م)[3] في النصف الغربي للجزائر أي في مطلع القرن العاشر 10هـ/16م قد أصابها الوهن لأن احتلال الإسبان للمرسى الكبير في 911هـ/1505م ووهران في 914هـ/1509م دفع المدن الساحلية مثل: دلس، الجزائر، شرشال، تنس ومستغانم إلى تقديم ولائها إليهم[4] خوفا من مصير مماثل لمصير وهران.

---

[1]- استقر الموريسكيون على سواحل الشمال الإفريقي وراحوا يحرضون على كره النصارى مما أدى إلى تدهور التجارة بين ضفتي المتوسط. أنظر، حسن محمد، جوهر المغرب، دار المعارف، مصر، د.ت، ص ص 31-32

[2]- Charles André, Julien, Histoire de l'Afrique du Nord, Sned, Alger, 1980, p.p 250-257.

[3]- عمار بن خروف، العلاقات بيت الجزائر والمغرب، رسالة ماجستير نوقشت في جامعة دمشق 1983، ص 40، حيث تداول على حكم الدولة الزيانية خلال الفترة (634-958هـ/1236-1554م) خمسة وثلاثون أميرا من بني عبد الواد أولهم يغمراسن بن زيان وآخرهم الحسن بن عبد الله، أنظر، ص 303-331

[4] -Avity Pierre, Description générale de l'Afrique, seconde partie du monde avec tous ses empires, chez Claude Sonnius librairie, Paris, 1636, p 159

وكذلك فعلت القبائل المجاورة للمواقع المختلفة، مما خنق تلك الدولة أي الزيانية وجردها من مواردها ودورها التجاري مع الممالك الأوربية، وحتى مع السودان الغربي وأفقد سلاطينها مكانتهم في نظر رعاياهم، لاسيما عندما تنازعوا على البقية الباقية من الملك[1]، ومالوا إلى الاستعانة بعضهم على بعض الإسبان والأتراك العثمانيين[2]، فأصبحوا شجر مدر بين هؤلاء وأولئك.

وعليه يمكن القول: إن سقوط وهران بالذات في 914هـ/1509م بيد الإسبان قد أزم أمور الدولة الزيانية في الغرب الجزائري حيث اضطربت إلى حد كبير، باعتبار أن وهران كانت بوابة تلمسان على الساحل وكانت تدر أموالا كبيرة عليها بفضل التجارة[3]، وقد نجم عن سقوطها خضوع قبائل بني عامر والقبائل الأخرى المحيطة بأطراف وهران للإسبان[4]، مثل عرب سويد الذين كانوا يقطعون السبل على الناس لنهبهم[5].

---

[1] - L'abée Bergès, complément de l'histoire de Béni Zéiyannes de Tlemcen, ouvrage de Cheikh Med Abdel Djalil Al Tenessy, Ernest Levroux Editeur, Pa ris, 1887, p 430

[2]- Ch. Julian, op.cit, p 25

[3]- Paul Ruff, La domination espagnole à Oran sous le gouvernement du conte d'alcoudete 1534-1558, présentation de Chantal de la véronne, éditions Bouchene, France, 1998, p 28 et L'abbé Bergès, op.cit, p 417

[4]- محمد الزياني ، دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران، تقديم وتعليق المهدي بوعبدلي، ش و ن ت، الجزائر، 1972، ص 142، كذلك عبد الفتاح الغتيمي، المرجع السابق، ج 6، ص 58

[5]- تعرض الأعراب للمرابط أحمد المليانى طمعا في خيوله وأبقاره...أنظر محمد بن عبد السلام الشريف الحسني، مخطوط بالمكتبة الوطنية رقم 928

واضطرار السلطان الزياني الذي تقلص ملكه كثيرا إلى إبرام معاهدة صلح مع فرديناند ملك إسبانيا في 918هـ/1512م[1]، وهو ما أنكرته عليه الرعية فانتشر الاضطراب أكثر، وأصبحت القبائل متذبذبة في ولائها لهم، حيث خضع بعضها للإسبان كما سبق ذكره ومال بعضهم إلى الإستقلال عنهم، أو إلى التعاون مع العثمانيين بعد استقرارهم في الجزائر.

أما القبائل الأخرى فظلت مرتبطة ببني زيان الذين كان سلاطينهم يهادنونهم ويستميلونهم بالمال تارة وبالمصاهرة تارة أخرى[2].

وكان من نتائج مهادنة السلطان أبي حمو الثالث للإسبان وسجنه لأخيه لأبي زيان[3] وإثقاله كاهل الرعية بالضرائب[4] أن استغاثت هذه الأخيرة بعروج[5] على لسان مناصري أبي زيان فاستجاب عروج لهم في سنة 923هـ/1517م وهزم سلطانها المذكور، وفرض سلطته فيها لكنه لم يلبث بها طويلا، لأن الإسبان كادوا له مع أبي حمو المخلوع، وتمكنوا من

1- Ernest Mercier, Histoire de l'Afrique septentrionale depuis les temps les plus reculés 15 jusqu'à la conquête française (1830), Paris, 1888, p 425

2- Léon Jean, L'africain description de l'Afrique, Tome 1, traduit de l'italien par A. Epaulard, Adrien Maison neuve, édition Paris, 1956, p 41

كذلك مولاي بلحميسي، نهاية بني زيان، في الأصالة، السنة 4، العدد 26، مطبعة البعث، فسنطينة، 1975، ص 33

3- أبو زيان (923هـ-1517م) وهو أخو أبو حمو

4- L'Abée Bergès, op.cit, p 418

5- هم أربعة إخوة اشتهر منهم عروج وخير الدين

إن كلمة عروج أصلها "أوروج" وهي لفظة تركية تعني الصيام أو رمضان، أنظر نور الدين عبد القادر، صفحات في تاريخ مدينة الجزائر من أقدم عصورها إلى العهد التركي، كلية الآداب الجزائرية، مطبعة البعث، قسنطينة، 1965، ص 43، مجلة عصور، السنة الثالثة، 4-5 ديسمبر 2003، العددان 4-5، ص 276

قتله على يد مارتن دارقون في سنة 924هـ/1518م وإعادة الملك للسلطان الذي استنجد بهم[1]. وتواصل مسلسل استعانة الأمراء الزيانيين بالإسبان وبالعثمانيين[2].

إلى أن حسم هؤلاء الأخيرين أمر تلمسان ومملكتها في 958هـ/1551م بإلحاقها بحكومتهم بالجزائر[3].

أما النصف الشرقي من المغرب الأوسط (الجزائر) فعرف هو الآخر في مطلع القرن 10هـ/16م وضعا مماثلا لما كان سائرا في النصف الغربي إذ كان يعاني هو الآخر يعاني من الغزو الخارجي الإسباني، وأدى عجز الأمراء الحفصيين في بجاية وقسنطينة وتونس عن المواجهة والتحكم في زمام الأمور إلى تفكك كبير، وبروز وحدات سياسية صغيرة هنا وهناك تحت حكم إمارات قبلية ودينية في بلاد القبائل وفي المناطق الداخلية التي تليها من جهتي الشرق والجنوب كانت مستقلة في المدن[4] والأرياف والجبال والواحات فيما بين بسكرة وقسنطينة وسطيف وآل القاضي في زواوة الغربية[5] وآل عبد العزيز وآل مقران في زواوة

---

[1]- ابن عبد السلام الحاج محمد الشريف العلي القرن محمد الشريف 13هـ/19م، مخطوط بالمكتبة الوطنية رقم 928

[2]- P. Ruff, op.cit, p 35

[3]- Ibid, p 153

تعرضت الدولة الزيانية لأطماع السعديين حيث استولى أبو عبد الله محمد الشيخ على تلمسان في 957هـ/1550م لكنه لم يلبث بها طويلا.

أنظر: أحمد السلاوي ومحمد الناصري، كتاب الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى (الدولة المرينية)، الجزء 03، تحقيق وتعليق ولدي المؤلف جعفر الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1954، ص 54

[4]- Antoine Ernest Hippolyte Carette, Recherche sur l'origine et les migrations des principales tribus de l'Afrique septentrionale et particulièrement de l'Algérie, Paris imprimerie impériale, 1853, p 421

[5]- Ibid, p 279

الشرقية، وغيرها فصارت دواخل البلاد حتى مشارق العاصمة تونس تحت نفوذ المتمردين على أواخر السلاطين والأمراء الحفصيين[1].

إن الحملات الإسبانية وإن كان لها صبغة دينية فوراءها أسباب أخرى منها: تخوف الإسبان من استرجاع المسلمين للأندلس فنقلوا الحرب إلى أرض العدو لتقطع كل أمل للأندلسيين في العودة لفردوسهم المفقود، كما خططت إسبانيا لقطع دابر القراصنة من الضفة المقابلة[2].

كذلك حلمت إسبانيا بإقامة إمبراطورية كبيرة، وقد نجح الإسبان في بضع سنين في احتلال مواقع هامة عديدة على طول الساحل الجزائري، كانوا ينطلقون منها للإغارة على المناطق المجاورة لتلك الأماكن للنهب والسلب فقط لا لاحتلالها[3]. هذه الغارات لم تكن للتسلية فقط بل للضرورة لأن الإسبان كانوا يتموّنون من النهب والسلب ما أدى إلى هجرة سكان المناطق المجاورة فيما بعد، ما نتج عنه حرمان الإسبان من تموين قار، لهذا منع الحكم المركزي بإسبانيا الهجرة بداية من 972هـ/1564م[4]، لذا لا يجب أن نغفل أن ما بدأته القبائل الهلالية من النهب والتخريب أكملته الحملات الإسبانية بالإبادة[5].

---

[1]- أحمد مبارك بن العطار، كتاب تاريخ بلد قسنطينة، مخطوط بالمكتبة الوطنية رقم 1645

[2]- Ch. Ajulien, op.cit, tome 2, p 251

[3]- توفيق المدني، المرجع السابق، ص 162، كذلك Julian, op.cit, p 252

[4]- Braudel, op.cit, tome 2, p 187-188

[5]- Carette, op.cit, p 424

وقد كان الغزو الإسباني، وفشل الحفصيين والزيانيين في التصدي له، وميلهم إلى مهادنة المحتلين الإسبان من أسباب بروز القوى الدينية[1] على المسرح السياسي لقيادة المقاومة ضد الغزاة، وملء الفراغ الذي أحدثه ضعف الحفصيين والزيانيين.

ومما تقدم يمكن القول: أن طلب الجزائريين مساعدة العثمانيين بسبب ضعف السلطة المركزية في تلمسان وتونس، والمحلية هنا وهناك، وسيطرة الإسبان على السواحل الجزائرية، واتساع رقعة نفوذهم إلى ما جاورها، واكتساحهم الساحة، قد وجد التجاوب المرغوب لدى الإخوة بربروس والسلطان العثماني سليم الأول، والفرصة كانت مواتية لتحقيق انضمام الجزائر للباب العالي، وربما لكل تلك الأسباب مجتمعة وظروف المرحلة وحركية التاريخ المستمرة فإن دخول العثمانيين للجزائر أنقذها من براثن إسبانيا المسيحية، وحماها من مصير مماثل لمصير الأندلس[2].

فالتنافس على السلطة وهجمات الأعراب والهجرة الأندلسية وما تبعها من تحريض الأندلسيين لإخوانهم المغاربة ضد الإسبان، كل هذه الأسباب مجتمعة أدت إلى تجرؤ الإسبان لغزو الضفة الجنوبية للمتوسط، لكن هذا الغزو الإسباني لسواحل الجزائر، ومحاولة توغله نحو داخل البلاد، أعطى الفرصة للقوى الدينية الممثلة في المرابطين وأتباع الطرق الصوفية والأشراف في الجهاد في سبيل الله، إلى المناداة بالجهاد ضد الغزاة الإسبان فبرزت عناصر منهم على المسرح السياسي على نحو ما سنفصله في العناصر القادمة.

---

[1]- Braudel, op.cit, tome 1, p 164

[2]- بعارسية صباح، حركة التصوف في الجزائر خلال القرن العاشر الهجري 16 م، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث، الجزائر، 2005-2006، ص19.

2. الأوضاع الاقتصادية:

تتفق المصادر والمراجع على أن الأوضاع الاقتصادية في الجزائر، قد مالت في مطلع القرن 10هـ/16م إلى التأزم نتيجة الأوضاع السياسية التي أشرنا إليها في بداية المبحث الأول من غزو خارجي، وتفكك داخلي مما جعل الأمور تضطرب في كل أنحاء البلاد إلى حد بعيد، وكان لكل ذلك أسوء الأثر على مختلف الميادين الاقتصادية، الزراعية، الصناعية والتجارية[1]، وإذا ما بحثنا بشيء من التفصيل فيما آل إليه كل نشاط من الأنشطة الاقتصادية المذكورة عشية قيام الحكم العثماني في الجزائر وجدنا:

- **أولا: فيما يتعلق بالزراعة**

لقد أصيبت في الصميم، حيث هجر كثير من الفلاحين أراضيهم نتيجة اضطراب الأمن بعد تزايد الأخطار الداخلية والخارجية، ومما يدل على تدهور الزراعة أن مدنا ومناطق كثيرة باتت مهددة بالجوع لأن المحاصيل الزراعية لم تصبح كافية لحاجة السكان[2]، ويذكر هايدو أن عروج وزع القمح الذي وجده في إحدى السفن على أهالي جيجل، أما حسن الوزان فكثيرا ما أشار في كتابه إلى انعدام الأمن في الطرق والأرياف والأسواق، ما أدى إلى هجرة السكان من بعض المناطق بحثا عن الأمن فأقفرت المناطق الخصبة[3].

---

[1] – عبد الله العروي، مجمل تاريخ المغرب، الجزء 03، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 1999، ص 03
كذلك أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، 1500-1830، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1998، ص 50

[2] – مولاي بلحميسي، المرجع السابق، ص 31

[3] – Braudel, tome 2, op.cit, p 51

➢ **ثانيا: الصناعة**

يستنتج من المصادر والمراجع أنه لا يمكن الحديث عن وجود صناعة بالمعنى الشائع، وإنما الأصح هو الحديث هو وجود بعض الحرف، والصنائع في شكلها البسيط، مثل: حرفة النسيج للزرابي، الحياك، الأقمشة والحرف الخاصة بصناعة الأدوات البسيطة التي كان يستعملها الفلاحون كالسروج وألجمة الخيول وسكك المحراث والمناجل، الفؤوس والسلال والأواني الفخارية...الخ.

كما كان يتم تصنيع الفحم من أشجار الخروب[1]، كما قامت في بعض المناطق كما في كوكو ببلاد القبائل بعض الصناعات المعدنية لتوفر المادة المستعملة في تلك الصناعات كالحديد، وملح البارود، فكانت تصنع السيوف، الرماح والبارود[2]، وفي بجاية قبل احتلالها كانت تصنع السفن لتوفر الأخشاب فيها وبمدينة الجزائر[3].

➢ **ثالثا: التجارة**

أما بالنسبة للتجارة الداخلية والخارجية فيمكن القول أن كلاهما لم تكن جيدة.

أ. فالتجارة الخارجية: أخذت تعاني منذ نجاح ما عرف بالكشوفات الجغرافية في اكتشاف طرق تجارية جديدة[4]، خاصة بعد سقوط الأندلس واضطهاد المسلمين فيها

[1]- مرمول كربخال، إفريقيا، الجزء 2، ترجمه عن الفرنسية: محمد حجي، محمد الأخضر، أحمد توفيق، أحمد بن جلون، دار المعرفة للنشر والتوزيع، الرباط، 1988، ص 296 و300، 323، 351، 352، و361

[2]- مرمول كربخال، المرجع السابق، ص 375

[3]- نفسه، ص 385

[4]- Brosselard, les inscriptions arabes de Tlemcen in Rev Afr n° 5, 1860, OPU Alger, p 15.

وانتشار القرصنة التي كان ينشطها على السواء المسلمون والمسيحيون وإقدام الإيبيرين على احتلال الكثير من المنافذ البحرية لبلدان المغرب ومنع التجارة بينها وبين الأمم الأوربية[1].

فالدور التجاري لوهران، بجاية وهنين وغيرها اضمحل أو كاد، خاصة بعد وقوع بعضها تحت الاحتلال الإسباني وتدمير أو تهديد بعضها الآخر[2]، كما قل دخل تلمسان بعد احتلال وهران، وانفراط المناطق الخاضعة لها.

ب. أما التجارة الداخلية فعانت من انعدام الأمن، وسكان الجبال لم يتمكنوا من بيع سلعهم بالسهول خوفا من الأعراب، وبالمدن خوفا من الحكام لأنهم كانوا لا يدفعون الضريبة[3]، فالطرق كانت غير آمنة على الناس وحتى على الحجاج لهذا أقام العثمانيون فيما بعد لما آل الحكم إليهم الأبراج (برج منايل، البويرة، صور الغزلان...) لتأمين الطرق.

خلاصة القول أن الوضع الاقتصادي كان متأزما بسبب الهجمات الإسبانية على سواحل الجزائر، وانعدام الأمن بالريف بسبب الأعراب الذين عاثوا فسادا مما أدى إلى ركود الزراعة وتدهور الصناعة والحرف وتذبذب التجارة، وأخيرا بسبب التنافس والتطاحن على السلطة الذي عرفته الدولة الزيانية في أواخر عهدها في النصف الغربي للجزائر والدولة الحفصية في النصف الشرقي لها.

---

[1]- الغنيمي، المرجع السابق، ج06، ص 58

[2]- اندثرت مدن بأكملها كما حدث لهنين، وتدهورت مدن أخرى مثل مزاغران لأن هذه المدن كانت تعتمد على التجارة، ينظر مارمول، المرجع السابق، الجزء2، ص ص 296، 297، 350، 352

[3]- Léon l'Afrcain, op.cit, tome 2, p 408

3. الأوضاع الثقافية:

إن عجز الزيانيين والحفصيين الذين كانوا يتقاسمون الحكم في المغرب الأوسط عن صد الغارات الإسبانية، وفشلهم في التحكم في زمام الأمور الداخلية كان له أسوأ الأثر على الحياة الثقافية في الجزائر من جراء ما تعرضت له المراكز الثقافية من دمار وتخريب، وما تعرض له العلماء والطلبة من قتل وأسر وتهجير...كل ذلك أدى إلى انتشار حركة التصوف وظهر ذلك في مجال التعليم حين أخذ التعليم الصوفي والتصوف يصبح ظاهرة غالبة في تلك الفترة.

حيث سيطرت روح التصوف على الحياة العلمية والاجتماعية في الجزائر خلال العهد العثماني[1].

إن عجز الأمراء عن حماية الأرض والسكان من الأخطار الداخلية والخارجية أدى إلى انتشار اليأس والسخط والقلق، كان لكل ذلك أكبر الأثر على الحياة الثقافية والمراكز الثقافية، وإذا كانت بعض المراكز العلمية قد حافظ على بعض أهميته رغم الأوضاع المتدهورة كتلمسان حاضرة بني زيان، وقسنطينة بفضل ما كان فيها من أهل العلم، وهناك مراكز أخرى عديدة قد فقدت أهميتها كلية أو جزئيا كما حدث لوهران وبجاية على الخصوص التي هجرها علماؤها بعد الاحتلال إلى مراكز علمية أخرى أكثر أمنا في الجزائر، أو فيما جاورها إلى المغرب الأقصى وتونس وحتى إلى المشرق أو بلاد السودان، على أن النشاط الثقافي والمستوى العلمي في تلك المراكز قد مال إلى الركود، هذا ما تنبأ به ابن خلدون في القرن 8هـ/14م عندما لاحظ تزايد المختصرات والملخصات والتقليد بل الإبداع[2]، والاكتفاء

[1] – سعد الله أبو القاسم ، تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، دار الغرب الإسلامي، ط1، 1998، ص 111.

[2] – عبد الرحمن بن خلدون، المقدمة، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، الجزء الثاني، 1984، ص 588

بالتقليد دون أعمال الفكر[1]، والتزام الزوايا بالعلوم الدينية فقط، وجهلهم لها عدا ذلك من العلوم كالفيزياء والرياضيات[2].

وأضحت قراءة السيرة النبوية لا تعدو أن تكون ترديدا لمنظومات مليئة بالغلق والتغزل في عيون النبي "ص" وخدوده وقوامه تاركين سيرته "ص" وجهاده ومعاناته فشغل الناس بذلك[3]، ولأنه عصر حكم عليه بالعقم المعرفي وضيق أفق شخصياته، فإعادة استعادة ما تم نسيانه كان يعد تقدما في حد ذاته[4]، أصبح الزهد والانقطاع للتصوف دليل على سلامة النية وقوة المستوى الثقافي لدى النخب[5].

مجمل القول أن الوضع الثقافي تقهقر لأسباب تعود لعصر بن خلدون وأخرى تعود لعصر أقرب لفترة البحث موضوع الدراسة (الغارات الإسبانية والتطاحن على الحكم) الذي أدى إلى انعدام الأمن بالمدن والطرقات، هذا ما دفع بالعلماء وطلبة العلم إلى الهجرة إلى الأرياف أو إلى خارج الوطن أو إلى الانطواء.

---

[1]- أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي جمعة شقرون المغراوي، الجيش الكمين لقتال من كفر عامة المسلمين، مخطوط بالمكتبة الوطنية رقم 2301

[2]- Etienne Cecile Edoird Villot Mœurs, Coutumes et institutions des indigènes de l'Algérie , 3ème éditions, Librairie Alger, 1888, p 461

[3]- عبد الرحمن عبد الخالق، الفكر الصوفي في ضوء الكتاب والسنة، الطبعة الرابعة، دار الحرمين للطباعة، القاهرة، 1993، ص 195

[4]- لطفي عيسى، مدخل الدراسة مميزات الذهنية المغاربية خلال القرن 17م، سراس للنشر، تونس، 1994، ص 8 و134

[5]- نفسه، ص ص 89-90

المبحث الثاني: الطريقة الصوفية

عرفت الطريقة بتعاريف مختلفة تبعا لمكوناتها أي العناصر المشكلة لها وتبعا لوسائلها التربوية والروحية وللأهداف التي تبتغي الوصول إليها وتحقيقها، وتبعا كذلك لما تملكه من سلطات ونفوذ بين الناس.

ومن هذه التعاريف:

– أنها أسلوب عملي لرعاية سلوك المريد وتوجيهه عن طريق اقتفاء أثر طريقة معينة في التفكير والشعور والذكر والتعلم والعمل تؤدى من خلال تعاقب مراحل المقامات وتصاعدها في ارتباط متكامل مع التجارب السيكولوجية أو النفسية المسماة أحوال، وقد كانت الطريقة تعني أولا ببساطة، ذلك المنهج التدريجي للتصوف التأملي وتحرير الروح والذكر المتواصل بالتجمع حول شيخ معترف به طلبا للتدريب خلال الاتصال أو الصحبة[1].

– أنها سلطة مادية قوية بما تملك من أتباع وأموال مختلفة وسلطة روحية معنوية على الناس من خلال مشايخها[2].

– أنها اعتراف المريد بالولاء التام والإيمان الكامل والانقياد المطلق لشيخ الطريقة الذي يعد من الأولياء الصالحين في نظر المؤمنين به، والذي يستمد نفوذه على أتباعه من القدرة

[1]– سبنسر، الفرق الصوفية في الإسلام، ترجمة ودراسة وتعليق عبد القادر البحراوي، ط1، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 1997، ص 26

[2]– محمد الأمين بلغيث، السلطة في الجزائر وتونس في القرن 17م من خلال تاريخ العدواني، الوادي، 1،2،3 نوفمبر 2000، ص 6

الخارقة للطبيعة (أي الخوارق والكرامات) والإتيان بما يعجز عنه البشر عادة والاستمداد من العلم اللدني*.

إذا فالطريقة نظريا هي السلوك القاصد إلى الله وحبه وهو السيرة المختصة بالسالكين إلى الله تعالى[1].

وأما عمليا: فالطريق هو ما يضعه شيخ من شيوخ الصوفية لمجموعة من المريدين من أوضاع وأذكار وأوراد يلتزمونها، ويختصون بها دون غيرهم[2].

أو بصيغة أخرى هي: منهاج اختص به المتصوفة بغية تطهير القلوب من كل المؤثرات التي تشغلها عن محبة الله، وهذا المنهاج أساسه الالتزام والمجاهدة والانتساب إلى شيخ مربي (مرشد روحي)[3] يدعو لنقسه بلوغ مرتبة من مراتب الصوفية كالقطب والغوث والوتد...الخ،

*- العلم اللدني هو العلم الذي يحصل بالرياضة والمجاهدة بحيث تدرك النفس المعارف الربانية بغير واسطة من العالم العلوي لا من خارج بطريق الحواس، وتنطبع بالفضائل من محبة الحق ومعرفته والشوق إلى جمال حضرته فيصير لها ذلك خلقا وعادة للمزيد أنظر: ابن الدباغ بن محمد الأنصاري، كتاب مشارق أنوار القلوب ومفاتح أسرار الغيوب، تحقيق: هـ، ويتر، دار صادر، بيروت، 1959، ص 6

1- عبد الوهاب الشعراني، الأنوار القدسية في بيان قواعد الصوفية، تحقيق: لجنة التراث في الدار، ط1، دار صادر، بيروت، 1999، ص 37

2- محمد مكحلي، الصوفية في الجزائر خلال العهد العثماني (1707-1827)، المجلة التاريخية المغاربية، العدد 114، جانفي 2004، منشورات مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات، زغوات، ص 93

3- Benjamin Stora, Akram Ellyas, les 100 portes du Maghreb, l'Algérie, le Maroc, la Tunisie, trois voies singulières pour allier l'islam et modernité, éditions de l'atelier, Paris, 1999, p 122

فتحصل له الكرامات والمكاشفات لما أوتي من علم الأسرار يقول أنه تلقاه من الغيب[1] فيعتقد الناس ويأخذون به[2].

وقد عرفها الجرجاني قائلا: "الطريق عبارة عن مراسم الحق تعالى المشروعة التي لا رخصة فيها"[3]، كما عرفها بن خلدون في شفاء السائل بقوله "...هي العلم بكيفية تطهير القلب من الخبائث بالكف عن الشهوات وإخماد القوى البشرية بقطع جميع العلائق البدنية والاقتداء بالأنبياء صلوات الله عليهم في جميع أحوالهم، فبقدر ما تتجلى من القلب ويحاذى به شطر الحق، تتلألأ فيه حقائقه وهذه هي الرياضة والمجاهدة..."[4].

كما وصفها أحد مشايخ الصوفية بقوله "إنها تعني اتصال المريد بالشيخ وارتباطه به حيا أو ميتا، وذلك بواسطة ورد من الأذكار يقوم به المريد بإذن من الشيخ أول النهار وآخره ويلتزم به بموجب عقد بينه وبين الشيخ، وهذا العقد يعرف بالعهد، وصورته أن يتعهد الشيخ بأن يخلّص المريد من كل شدة ويخرجه من كل محنة متى ناداه مستعينا به، كما يشفع له يوم القيامة في دخول الجنة، ويتعهد المريد بأن يلتزم بالورد وآدابه فلا يتركه مدى الحياة، كما يلتزم بلزوم الطريقة وعدم استبدالها بغيرها من سائر الطرق".

---

[1]- عبد الستار الراوي، التصوف، مقدمة أولى في الكرامات الصوفية والظواهر النفسية الفائقة، ط1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1994، ص 40

[2]- Louis Massignon, «Tarika» in Encyclopédie de l'islam, T4, Librairie Klinck, Paris, 1934, p 700-705

[3]- على بن على الجرجاني، التعريفات، تحقيق إبراهيم الأبياري، ط1، دار الكتاب العربي بيروت، 1405

[4]- عبد الرحمن بن خلدون، شفاء السائل وتهذيب المسائل، تحقيق: محمد مطيع الحافظ، دار الفكر، دمشق، 1996، ص ص 10-11.

ونلاحظ من خلال هذه التعاريف أن الطريقة الصوفية تتكون من الشيخ العالم أو المربي أو المعلم صاحب السلطة الروحية التي اكتسبها بسبب اجتهاده وتعليمه أو لعلو مكانته الاجتماعية بين عشيرته وبين عامة الناس، كما تتكون من المريد الذي يعد تلميذا وسالكا في الطريق بهدى شيخه، والوسائل التعليمية والطقوس التعبدية والتعاليم التي يلزم المريد التشبث بها إيمانا أو قولا أو عملا.

كما نلاحظ أن للطريقة الصوفية سلطة حاكمة تأمر وتنهي، تتسع صلاحيات هذه السلطة وتقوى بحسب الظروف الاجتماعية والسياسية، كما تقوى بحسب ما تملك من مؤيدين وأتباع وأموال وبحسب قوة شخصية الشيخ أو المؤسس وأعماله وآثاره، ونلاحظ في التعريف الثالث أنه يحكي واقع الحال لما وصل إليه التصوف خلال العهد العثماني من تصور وجوب وقوع الكرامات وخوارق العادات على أيدي زعماء التصوف ليكونوا وقتها أهلا للمشيخة.

ومما يجدر الإشارة إليه حدوث تنافس محموم بين الطرق الصوفية لجذب المريدين، ولذلك فإن كل طريقة من الطرق تحاول أن يكون لها ذكر خاص تنفرد به عن سائر الطرق، وأن يكون لهذا الذكر ميزة خاصة، ولكل طريقة مشاعر خاصة من حيث لون العلم والخرقة* وطريقة الذكر ونظام الخلوة.

*- للطرق الصوفية شارات وبيارق وألوان يتميزون بها، فالطريقة الرفاعية تتميز باللون الأسود، وتتميز القادرية باللون الأخضر والأحمدية بالأحمر، أما الطريقة البرهانية فإنها لا تتميز بلون واحد كسائر الطرق بل تتميز بثلاثة ألوان الأبيض الذي تميز يه السيد إبراهيم الدسوقي، والأصفر الذي تميز به الإمام أبو الحسن الشاذلي والأخضر كناية عن شرف الانتساب لأهل بيت رسول الله (صلعم)

والطرق يتوارثها الأبناء عن الآباء وذلك أن الطريقة التي تستطيع جلب عدد كبير من المريدين والتابعين تصبح بعد مدة إقطاعية دينية تغد الوفود إلى رئيسيها أو شيخها من كل ناحية، وتأتيه الهدايا والصدقات والبركات من كل حدب وصوب، وحيثما حل الشيخ في مكان ذبحت الطيور والخرفان وأقيمت الموائد.

والفرق الموجودة بين الطرق الصوفية الأصلية والفرعية عموما، هو في كيفية تطبيق العبادة والصلوات الخاصة، وكذا ميل المؤسس لمزايا ما، فمثلا الطريقة القادرية تميل إلى التصدق، والخلواتية تميل للانعزال، في حين العيساوية تتبع اللاشعور الفيزيائي، أما البكداشية فتميل للتواضع، والدرقاوية للفقر والابتعاد عن ذوي السلطات، والطيبية ميالة لتقدير أحفاد الرسول (ص) والإخلاص لهم، أما التيجانية فتميل إلى التسامح[1].

أما ما تجتمع عليه الطرق فهو:

❖ أن الطريقة لا يسميها مؤسسها باسمه وإنما يفعل ذلك أتباعه بعد وفاته إذا اعتقدوا القطبية فيه فإنهم غالبا يسجلون اسمه بعد اسم القطب الذي أدخله فيها[2]، وهذه السلسلة يكون على رأسها اسم النبي (ص) مع أنه لم يعرف طريقة[3].

وقد جاء في البستان لابن مريم نقلا عن أبي مدين شعيب أشهر أولياء تلمسان قوله: "كرامات الأولياء نتائج معجزات سيدنا محمد (ص) وطريقتها هذه أخذناها عن أبي يعزى"

---

[1]- Louis Rinn, Marabouts et Khouans, études sur l'islam e, Algérie, librairie – éditeur Alger, 1884, p 72

[2]- لمعلومات أكثر، ينظر: الفقي عصام الدين عبد الرؤوف، تاريخ الفكر الإسلامي، ط1، دار الفكر العربي، القاهرة، 1997، ص 44

[3]- محمد حاج صادق، مليانة ووليها سيدي أحمد بن يوسف، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، د.ت، ص 96

بسنده عن الجنيد عن سري السقطي عن حبيب العجمي عن الحسن البصري عن علي رضي الله عنه عن النبي (ص) عم جبريل عليه السلام عن رب العالمين جل جلاله"[1].

- ❖ الاحتفال بدخول المريد في الطريقة بطقوس دقيقة مرسومة وقد يطلب في بعض الطرق من المريد أن يمضي وقتا شاقا في الاستعداد للدخول.
- ❖ يجب التقيد بزي خاص، فلابد أن يكون هناك نوع خاص من الزي يمثل رمز أصحاب الطريقة الذي يلبسونه فيميزهم عن غيرهم.
- ❖ اجتياز المريد مرحلة شاقة من الخلوة والصلاة والصيام والقيام وغير ذلك من الرياضات.
- ❖ الإكثار من الذكر مع الاستعانة بالمدائح والحركات البدنية المختلفة التي تساعد على الجذب.
- ❖ الاعتقاد في القوى السرية الخارقة للعادة التي يكتسبها المريدون بعد طول عناء وهي القوى التي تمكنهم من أكل الجمر والتأثير على الثعابين والإخبار بالغيبيات.
- ❖ احترام شيخ الطريقة إلى درجة التقديس.

[1]- ابن مريم التلمساني، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1986، ص 60.

المبحث الثاني: نشأتها وتطورها في العالم الإسلامي:

وضع أبو سعيد محمد أحمد الميهيي الصوفي الإيراني (ت في 430هـ/1038م) أول هيكل تنظيمي للطرق الصوفية حيث أقام في بلدته نظاما للدراويش وبنى خانا* بجوار مترله للصوفية، وجعله متسلسلا عن طريق الوراثة، وهو أول من كتب في طريقة التربية الصوفية[1].

ويعتبر القرن 6هـ/12م البداية الفعلية للطرق الصوفية وانتشارها حيث انتقلت من إيران إلى المشرق الإسلامي، فظهرت الطريقة القادرية المنسوبة لعبد القادر الجيلاني (ت 561هـ/1166م)، تعتبر القادرية أوسع الطرق الصوفية انتشارا في العالم الإسلامي.

كما ظهرت الطريقة الرفاعية وتنتسب إلى مؤسسها أبي العباس الرفاعي (ت 578هـ/1175م)، وفي القرن 7هـ/13م دخل التصوف الأندلس وأصبح ابن عربي أحد أقطاب الصوفية 638هـ/1239م.

واستمرت الصوفية بعد ذلك في القرون اللاحقة، إذ انتشرت الفوضى واختلط الأمر على الصوفية لاختلاط أفكار المدارس الصوفية وبدأت مرحلة الدراويش أو الإخوان.

---

*- الخان أو الوكالة كانت تخصص لإقامة المسافرين وقوافل التجار، عبارة عن مبنى له مدخل ضخم، وصحن تربط فيه الدواب، وحواصل مفتوحة على الصحن لوضع البضائع والسلع.

ينظر، عاصم محمد رزق، معجم مصطلحات العمارة والفنون الإسلامية، ط1، مكتبة مدبولي، 6 ميدان طلعت حرب، القاهرة، مصر، 2000.

[1]- عبد الرحمن عبد الخالق، الفكر الصوفي في ضوء الكتاب والسنة، ط 3، مطبعة الفيصل، الكويت، 1986/1406، ص579.

ويميز المؤرخون ظهور نظام الطريقة في بداية القرن 6هـ/12م بثلاث خصائص رئيسية هي:

1. الشيخ المؤسس الذي يرجع إليه أتباعه كلهم باعتباره رئيسا للجماعة ومنظما للرابطة.
2. الطريقة التي سنها أو المذهب بما فيه من شعائر وطقوس وأوراد.
3. نوع العلاقات التي تربط بين أفراد الجماعة، وهي علاقات تتوثق أحيانا وتضعف أخرى[1].

وتركيب هذه الخصائص الثلاث هو الذي يعطي لكل رابطة أو مشيخة أصالتها ووحدتها وقوتها ويمد كل عضو فيها بنوع من الإحساس حتى يطمئن إلى كونه منتميا إلى هذا التنظيم القار.

وقد كانت هذه الخصائص مطلوبة خصوصا في مناطق وفترات عمتها الغزوات ومزقتها الحروب وفككتها خلافات الأسر المتنافسة على وراثة الحكم، وقطعت أواصر العلاقات بينها الانقسامات الدينية، وفرقت بينها الصراعات الثقافية والحضارية.

كل ذلك ولد مناخا باعثا على القلق، فكان الانتماء إلى جماعة بَنَتْ علاقتها على الانسجام الروحي الذي يسعى إلى التخفيف من حدة هذا المناخ الكئيب[2].

وترجع تسمية هذه الطرق إلى أسماء أقطابها ومشايخها البارزين المشهورين، فتخلدت أسماؤهم بنسبتها إليهم، وربما رجعت تسمية الطرق إلى أقطابها بحكم اجتهادهم فيها وخدمتهم لها، فأطلق هذه التسميات مريدوهم وتلاميذهم وأتباعهم ومحبوهم.

---

[1]- جان شوفلي، التصوف والمتصوفة، ترجمة عبد القادر قنيني، دار إفريقيا الشرق، بيروت، 1999، م، ص 71

[2]- المرجع نفسه، ص 71

وعليه فإضافة الطرق إلى أسماء هؤلاء الأقطاب لم تكن بأمرهم وإنما حدثت من غيرهم، لأن كل واحد من المشايخ كانت له آثار واضحة في نشاطه واجتهاده في ترتيب أذكار وتوظيف أوراد وإضافة بعض الآداب والأخلاق[1].

ومع ذلك فلا تقتصر معظم الطرق على مشايخها الذين تسمت بهم، فهناك شخصيات كثيرة تنتحلها وتنتسب إليها "كأبي القاسم الجنيد بن محمد"*، و"أبي زيد البسطامي"•، هذا الأخير الذي وجد في سلاسل فرق كثيرة مثل الطريقة النقشبندية، للإشارة فإن المتصوفة عموما اهتموا بتتبع سلاسل مشايخ التصوف وعلمائه وخاصة يعد أن ضعف التصوف واحتاج الأمر إلى سند يجلب احترام المريدين وإعجاب الناس، وهذه السلاسل الكثيرة التي أوردها المتصوفة تنتظم في سندها للمتصوفين المعروفين من أول التصوف إلى وقت تنظير الطرق الصوفية[2].

وإذا كان بعض هذه الطرق قد أسست قبل الغزو المغولي لبغداد (656هـ/1258م) فإنها تعددت وتشعبت منذ القرن 14م في أنحاء العالم الإسلامي، وكان أول من نادى بها وأسسها الشيخ عيد القادر الجيلاني في العراق[3].

---

[1]- عبد القادر الشطي، حقيقية السلفية الوفية لمذهب أهل الحق الصوفية، مطبعة دار هومة، الجزائر، 2002، ص 333

*- أبو القاسم الجنيد بن محمد ولد ونشأ بالعراق كان رئيسا من رؤساء الصوفية وورعا وزاهدا، مات سنة 297هـ، أنظر: أبو القاسم القشيري، الرسالة القشيرية، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، ط1، 1998، ص 50
أنظر أيضا: ابن النديم، الفهرست، ط2، دار المعرفة، بيروت، 1997، ص 229

•- هو أبو زيد طيفور بن عيسى البسطامي نسبة إلى بسطام بخراسان، كان زاهدا عابدا، توفي سنة 261هـ/857م، أنظر: أبو عيد الرحمن السلمي، الطبقات الصوفية، ط2، تحقيق: أحمد الشرباصي، منشورات كتاب الشعب، القاهرة، 1998/1419، ص 25

[2]- مختار بن الطاهر فيلالي، ص 33

[3]- نفسه، ص 34

ظهور الطرق الصوفية في الجزائر وعوامل تطورها:

يرجع المؤرخون بداية ظهور الطرق الصوفية بالجزائر إلى القرن 10هـ/16م ثم أخذت تنمو وتتسع حتى انتشرت على نطاق واسع في النصف الثاني من القرن 12هـ/18م والربع الأول من القرن 13هـ/19م خاصة الطريقة القادرية، وهي أوسع الطرق انتشارا والشاذلية والتيجانية[1].

ويعود انتشار الطرق الصوفية بالجزائر في هذه الفترة إلى عوامل أهمها:

- تدهور الأوضاع المعيشية للسكان الناجم عن الكوارث الطبيعية والأزمات الاقتصادية وبروز الدور الاجتماعي لهذه الطرق من خلال مساعدة الناس ومواساتهم.

- شدة تمسك الجزائريين بعقيدتهم، وابتعاد الكثير منهم عن مظاهر البذخ والترف وميلهم إلى حياة الزهد والتقشف.

- الاعتقاد الكبير في الأولياء وكل من له علاقة بالدين

- اضطهاد بعض الحكام العثمانيين للشعب وإرهاقه بالضرائب، مما جعله يبحث عن قوة جديدة تحميه ويلتف حولها، فوجد ضالته في الطرق الصوفية.

معظم شيوخ الطرق الصوفية أشراف أو يدعون الشرف يقينا منهم بقداسة آل البيت عليهم الرضوان[2].

- حدوث تطور اجتماعي في عقلية أبناء القبيلة، فعضو القبيلة لم يعد ينحصر أفقه في نطاق القبيلة فقط وإنما أصبح يشعر ولو بطريقة بسيطة الانتماء للوطن.

---

[1]- عبد الفتاح الغنيمي، موسوعة تاريخ المغرب العربي (بني حفص، بني زيان وبني مرين)، ج 06، دراسة في التاريخ الإسلامي، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1994، ص 94

[2]- شيوخ بعض الطرق يرجعون نسبهم إلى الرسول (صلعم) مثل الشيخ أحمد التيجاني رحمه الله

– اتخاذ كافة الطرق الصوفية الوسط الريفي ميدانا لنشاطهم لكونه أرضا خصبة لنشر الدعوة واكتساب الأتباع بسبب ضعف المستوى المعرفي لسكان الريف، كل هذا ساعد على انتشارها وتوسعها وفي نفس الوقت ضمنت الابتعاد عن أنظار ومراقبة السلطة العثمانية.

– اعتماد مؤسسي الطرق وسيلة الإغراء بالكرامات والغفران لكل من تبعهم والتي أثرت على العقول وجعلتها تستوعب هذه الطرق وتدافع عنها بكل ثقة وإيمان راسخين، وبذلك حققت هذه الطرق التوسع والانتشار وكسب الأنصار وضمنت لنفسها الاستمرار والنفوذ.

– ومن العوامل الهامة التي ساهمت كذلك في انتشار الطرق الصوفية بالجزائر خلال العهد العثماني أنها سميت بأسماء أقطابها ومشايخها البارزين المشهورين الذين كانت لهم آثار واضحة في جهادهم واجتهادهم[1].

بعد ذكر كل هذه العوامل نخلص إلى القول بأن تأثر الجزائر بالتصوف والطرق الصوفية المتواجدة بالمشرق العربي إنما كان عن طريق رحلات الحج والرحلات العلمية، وعن طريق المؤلفات الصوفية التي ذاع صيتها "كالإحياء" لأبي حامد الغزالي، حتى قيل عن هذا الكتاب "من لم يقرأ الإحياء فليس من الأحياء"، وقد ازدادت الطرق الصوفية في الجزائر قوة في نهاية العهد العثماني أي في فترة الدايات وتحديدا في نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر ميلاديين، وصار لها بعد ذلك شأن عظيم من حيث التعليم القرآني والحفاظ على مقومات الشخصية الإسلامية، والتكافل الاجتماعي ومؤازرة الفقراء والمحتاجين، ومن حيث نشر الإسلام في إفريقيا في عصر ساءت فيه الأحوال المعيشية والثقافية والسياسية.

[1] – الطاهر بونابي، نشأة وتطور الأدب الصوفي في المغرب الأوسط، حوليات التراث، مجلة دورية تصدرها كلية الآداب والفنون، جامعة مستغانم، العدد 02، سبتمبر 2004، ص 06

المبحث الرابع : الطرق الصوفية في الجزائر:

المتتبع لتاريخ الحركة الصوفية والزوايا بالجزائر خاصة في العهد العثماني يجد أنها انتشرت عدة طرق صوفية، بعضها مشرقي الأصول، وبعضها الآخر مغربي وعنها تفرعت باقي الطرق، كما أن لكل طريقة من الطرق زواياها ومقاماتها وأتباعها.

وإذا وقع التركيز على أبرز الطرق الصوفية وأهم فروعها التي كانت قائمة في الجزائر في الفترة موضوع البحث، وهي من أخصب الفترات، وجد أنها كانت تتفرع عن طريقتين أساسيتين، الأولى مشرقية الأصل وهي الطريقة القادرية، والثانية مغربية المنشأ وهي الطريقة الشاذلية، وقد تفرع عنهما عشرات الطرق الصوفية خاصة الشاذلية، ففي هذا الإطار يقول أبو القاسم سعد الله: "...نكاد نجزم بأن معظم الطرق الصوفية التي بعد القرن 8هـ/14م تتصل بطريقة أو بأخرى بتعاليم الطريقة الشاذلية..."[1].

كما حاول المؤرخ الفرنسي لوي رين في كتابه "مرابطون وإخوان" إحصاء الطرق الموجودة بالجزائر فوجد ثلاث عشرة طريقة من مجموع 16 شاذلية الأصل[2]، كذلك فعل بروسلار الذي ذكرها فقط[3] عكس رين.

ومحاولة وضع جرد للطرق الصوفية بالجزائر مهمة صعبة جدا إن لم تكن مستحيلة، ذلك أنها متشعبة ومتفرعة حيث نجد العديد من الطرق متفرعة عن طريقة واحدة، لكن الأصعب وجود

---

[1]- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي (ق 10-14هـ/16-20م)، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1981، ص466.

[2] - Louis Rinn, Marabouts et Khouans, études sur l'islam e, Algérie Adolphe Jourdan, librairie éditeur, Alger, 1884, p 158

[3]- Brosselard, Les Khouans de la constitution des ordres religieux musulmans en Algérie, imprimerie de A. Bruget, Alger, aout 1952, p 7

طرق متفرعة عن طريقتين أصليتين أو أكثر، بهذا سنقتصر في حديثنا على ذكر أهم الطرق أي تلك التي كانت تتمتع بشهرة كبيرة، أو التي كانت لها علاقات مع السلطة أو بالأحرى تلك التي لها علاقة مباشرة بموضوعنا.

أ. الطريقة القادرية:

نسبة لمؤسسها الشيخ "عبد القادر الجيلاني بن أبي موسى الحسيني"، وهو من كبار الزهاد والمتصوفين، ومن أشهر رجال الصوفية ويعرف بالقطب* الجيلاني، فهو أحد الأقطاب الأربعة –الرفاعي الجيلاني- البدوي والدسوقي ولد بجبل جيلان قرب بغداد سنة 471هـ/1078م وترعرع بها[1]، اتصل بشيوخ العلم والتصوف وبرع في أساليب الوعظ والفقه والأدب، كان يأكل من عمل يده مقتديا بهدى النبي (صل)، تصدر للتدريس والإفتاء منذ 528هـ / 1133م، ثم مال للتصوف ولجأ للخلوة ومجاهدة النفس وابتعد عن ضجيج المدن فاتجه إلى الصحراء وكان له مريدون كثيرون نهجوا نهجه وساروا على سيرته، توفي في بغداد سنة1166م[2].

*- اعتبر بن خلدون القطب أو الغوث هو رأس العارفين لأن المعرفة الإلهية مركزة فيه وهو موضع الله من العالم في كل زمان، للمزيد ينظر: مقدمة بن خلدون

1- أحمد شلبي، موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية، ط3، ج6، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1986، ص211

2- نفسه، ص 212

برزت هذه الطريقة في القرن 6هـ/12م، وتعد أول طريقة في الإسلام من حيث العدد، انتشرت في العراق، اليمن، الصومال، الهند، الصين، تركيا، مصر وبلاد المغرب العربي، وغربي إفريقيا ووسطها، وتتميز بالإصلاح والإرشاد والتسامح مع نشر العلم والمعرفة[1].

كما ذكرها حسن بن باديس صاحب "السينية" منذ القرن 8هـ/14م، كما تحدث عنها محمد الزواوي صاحب "المرائي الصوفية" منذ القرن 9هـ/15م[2].

والقادرية ذكراها محاطة بتقديس خرافي[3] وهي من الطرق التي واصلت انتشارها في القرن 10هـ/16م بالجزائر، لكنها كانت موجودة قبل هذا الزمن، ويعود هذا لشعبيتها الكبيرة على مستوى العالم الإسلامي، وقد انتشرت في الداخل مع مريدها مثل عبد الكريم المغيلي التلمساني بتوات، وأولاد سيدي الشيخ الذين تمركزوا بالجنوب الغربي، كما كان لها ممثلون من المرابطين في كل من مدينة الجزائر، قسنطينة، بجاية وحتى فاس، من أورادها "حزب الوسيلة وورد الجلالة"[4].

أما انتشار الطريقة القادرية في الجزائر والمغرب بصفة عامة حسب ما ذهب إليه الأستاذ "رين" كان عن طريقين، طريق مصر وطريق الأندلس حيث استقر بمصر أحد أبناء الشيخ عبد القادر وهو الشيخ عيسى مؤلف كتاب "لطائف الأنوار" في التصوف، أما الطريق الثاني

[1]- إبراهيم مياسي، مساهمة القادرية في تأطير الثورات الشعبية، دراسات في العلوم الإنسانية، العدد 4، جامعة الجزائر، 2004/2003، ص 94

[2]- أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص 187

[3]- Brosselard, op.cit, p 07

[4]- مراد سعيد، الفرق والجماعات الدينية في الوطن العربي، قديما وحديثا، مصر، 1997، ص ص 533-534

بواسطة أحفاد ابنيه الآخرين إبراهيم وعبد العزيز الذين ساهموا في نشر تعاليم القادرية في المغرب العربي بعد هجرتهم من الأندلس إلى فاس[1].

كما يذكر الضابط "رين" أن عدد المساجد والزوايا والقبب التي تحمل اسم عبد القادر الجيلاني في الجزائر كان كبيرا جدا*، ففي إقليم وهران وحده كان هناك 200 زاوية تحمل هذا الاسم بغض النظر عن المساجد، وأن هناك 268 مقدما وعدد الأتباع وصل إلى 14574 مريد[2].

ولقد وصفت الطريقة القادرية بالتساهل والتسامح اتجاه الأديان الأخرى، ومما يثبت ذلك قول "رين": "إننا لا نجد في تعاليمه -الجيلاني- أي إشارة معادية للمسيحية"[3].

كما تعد الطريقة القادرية الطريقة الأم في الجزائر نظرا لقدمها زمنيا وكثرة دعاتها خاصة في المناطق الغربية[4]، وقد كان من مقاديمها* الشيخ محي الدين بن المختار والد الأمير عبد القادر.

1- Louis Rinn, op.cit, p 178

*- كان ذلك حسب الإحصاء قام به لويس رين في أواخر 1882، لكن يبدو لي أن العدد مبالغ فيها نوعا ما، هذا لا يتعارض مع شهرة القادرية ومدى انتشارها واتساعها الجغرافي

2- Louis Rinn, op.cit, p 200

3- Ibid, p 200

4- إدوارد دونوفو، دراسة أتنولوجية حول الجماعات الدينية عند مسلمي الجزائر، ترجمة وتحقيق: كمال فيلالي، دار الهدى، عين مليلة، 2003، ص 32.

*- مقاديم جمع مقدم وهي وظيفة في الزاوية.

ب. الطريقة الشاذلية:

نسبة إلى أبي الحسن الشاذلي أصله من المغرب الأقصى سنة 593هـ/1196م، كان تلميذا لأحد أتباع أبي مدين شعيب، وأحد كبار أولياء المنطقة، مولاي عبد السلام بن مشيش أخذ عنه تعاليم التصوف، اتجه نحو المشرق مخلفا وراءه حشدا من الأتباع[1].

وبعد إقامة فريضة الحج طاف بأقطار المشرق العربي وتلقى على شيوخها شتى الفنون، ومال إلى التصوف وعندما عاد أقام بقرية شاذلة بتونس ورابط هناك وتفرغ لتربية المريدين والأتباع حتى شاع أمره بين الناس في بلاد المغرب ومصر[2].

لم يلقن أبو الحسن الشاذلي كشيخ زاهد تلاميذه أية قواعد أو شعائر خاصة، ولكن تعاليمه حافظ عليها الأتباع وأحد هؤلاء الأتباع بصفة خاصة هو العباس المرسي بن عمر الأندلسي (ت 686هـ/1288م) الذي انضم إلى حلقته بالإسكندرية وكان يعتبر خليفة له[3].

كان تصوفه يميل إلى الورع كما توخى الزهد في كل شيء، وانعزل بزاوية عن الناس، أما أتباع الشاذلية بالجزائر لا ينكرون التمتع بنعم الحياة، فالشاذلي نفسه لم يقل بالتجرد عن ملذات الحياة، فقد كان يملك مالا كبيرا وعقارات كثيرة، كما كان يلبس فاخر الثياب ويأكل ما لذ وطاب وفق الشرع الحكيم، كما قال الشاذلي بتدريب النفس على فعل الخير

[1]- سيدي موسى محمد الشريف، جذور التصوف ببلاد المغرب والجزائر، الندوة الفكرية الخامسة للشيخ محمد العدواني، الوادي، 1،2،3 نوفمبر 2000، ص ص 3،4.

[2]- ممدوح الزوبي، الطرق الصوفية، ظروف النشأة وطبيعة الدور، ط1، دمشق، 2004، ص 111

[3]- سبنسر ترمنجهام، المرجع السابق، ص ص 90 -91

وإعادتها بالتدريج إلى أحكام الشرع عن طريق الذكر جماعيا أو فرديا، فالشاذلية إن لم تسع للمال فهي لا ترفضه[1].

وتقترب الشاذلية في ارتباطها تصاعديا كثيرا من الجندية[2]، فهي تقوم على المبالغة في الذكر والمطالعة والخوف من الله والتسليم لإرادته.

توفي أبو الحسن الشاذلي بعد عودته من الحج إلى مصر سنة 656هـ/1258م.

وتعتمد الشاذلية على خمسة أصول هي:

- تقوى من الله في السر والعلن
- إتباع السنة في الأقوال والأفعال
- الإعراض عن الخلق في الإقبال والإدبار
- الرضا عن الله في القليل والكثير
- الرجوع إلى الله في السراء والضراء

وتعد هذه الطريقة أهم الطرق التي ظهرت في المغرب الإسلامي، حيث تفرعت إلى عدة طرق في المناطق الممتدة بين الحجاز شرقا وإسبانيا غربا، ففي مصر تفرعت عن الشاذلية ثمانية فروع، ولكل فرع سلسلته وقطبه أهمها الطريقة الوافية، وفي المغرب الأقصى تفرعت إلى نحو عشرين فرعا أهمها الطريقة الدرقاوية، كما تفرعت عن الشاذلية العروسية ومؤسسها أبو العباس أحمد بن عروس الذي كان قبل ذلك مقدما للشاذلية، أما في الجزائر تفرعت عن

[1]- أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص 463

[2]- Louis Rinn, op.cit, p 172

الشاذلية الطريقة الزروقية نسبة إلى أبي العباس أحمد زروق البرنسي الفاسي المتوفى سنة 899هـ/1493م[1].

ج. الطريقة الرحمانية:

طريقة دينية صوفية ظهرت في القرن 18م، تفرعت عن الطريقة الخلوتية*، ونسبت إلى مؤسسها محمد بن عبد الرحمن القستولي الجرجري الأزهري•، المولود حوالي 1720م في قبيلة آيت إسماعيل التي كانت جزءا من حلف قتشولة في قبائل جرجرة، زاول دراسته الأولى في مسقط رأسه، ثم واصل تعليمه في الجزائر العاصمة، وفي 1739م توجه لأداء فريضة الحج، وفي عودته استقر بالجامع الأزهر فترة طويلة مترددا على العلماء وشيوخ التصوف كمحمد بن سالم الحفناوي المتوفى سنة 1181هـ، حيث أصبح محمد بن عبد الرحمن مريدا وتلميذا له، حيث أدخله الطريقة الخلوتية.

وبعد غياب طويل دام أكثر من ثلاثين سنة عاد إلى الجزائر بعدما تلقى الأمر من شيخه الحفناوي بالعودة إلى بلده، ونشر الطريقة الخلوتية، فأسس زاوية بمسقط رأسه (آيت إسماعيل)

---

[1]- إدريس عزوزي، الشيخ أحمد زروق آراؤه الإصلاحية، مطبعة فضالة المحمدية، المغرب، 1998، ص 76

*- طريقة صوفية سورية الأصل (800هـ/1397م) نسبة للزاهد إبراهيم الخلاقي، والخلوتية هي الطريقة الأم للحفناوية بمصر.

للمزيد، ينظر: Benjamin Stora, op.cit, p 124، وينظر كذلك: Louis Rinn, op.cit, p 290

•- سمي الشيخ بالجرجري نسبة إلى جبل جرجرة موطن قبيلته وبالأزهري لتتلمذه بالجامع الأزهر، ينظر: (مجموعة من المستشرقين)، دائرة المعارف الإسلامية، تعريب أحمد الشنتاوي وإبراهيم زكي خورشيد وعبد الحميد يونس، مراجعة الدكتور محمد مهدي علام، دار المعرفة، بيروت، ص 79-81

وشرع في الوعظ والتعليم، وقد التف حوله جموع الناس من سكان جرجرة المستقلين عن السلطة العثمانية[1].

انتقل إلى الحامة إحدى ضواحي العاصمة، ومن المحتمل أنه فعل ذلك فرارا من خصومه المرابطين الذين عادوه لما حققه من نجاح هدد نفوذهم في المنطقة، أو لأنه تأكد من رسوخ تعاليمه وانتشارها في المنطقة فرأى أن يستقر بالغرب من العاصمة ليوسع دائرة دعوته، أسس في الحامة زاوية وأخذ نشر تعاليم الطريقة الخلوتية، ولكن سرعان ما أثار غضب المرابطين للأسباب التالية:

1.ابن عبد الرحمن من أبناء الريف، لذا لابد أن يلقى معارضة من أهالي الحضر المرابطين والعلماء خوفا على نفوذهم.

2.خوف الأتراك منه لأن قبيلته تنتمي إلى حلف قشتولة وبالتالي فهي لا تخضع لحكمهم بل معادية لهم، ولهذا الغرض أثار الأتراك العلماء والمرابطين ضده.

3.دعوته الدينية تبعث على إحياء الوحدة الروحية والوطنية التي طالما عمل الأتراك من أجل عدم تحققها طوال حكمهم حتى لا تكون خطرا على سلطانهم[2].

بعد كل هذا رأى بن عبد الرحمن أن الحكمة تقتضي منه العودة إلى مسقط رأسه فعاد سريعا إلى زاويته ببلدة آيت إسماعيل، وبعد ستة أشهر من عودته جمع مريدوه وأخبرهم بقرب أجله وعين من يخلفه في منصبه وهو علي بن عيسى المغربي[3].

---

[1]- مختار الطاهر فيلالي، المرجع السابق، ص 40، ومفتاح عبد الباقي، أضواء على الطريقة الرحمانية الخلوتية، الوليد للنشر، الوادي، 2004، ص ص 61 ،62 ،63.

[2]- مختار الطاهر فيلالي، المرجع السابق، ص 42

[3]- نفسه، ص 43

لم يحصر ابن عبد الرحمن نشاطه غي نشر دعوته الدينية الصوفية على منطقة (القبائل) والعاصمة فحسب، وإنما مد نشاطه أيضا إلى إقليم الشرق الجزائري، حيث قام بتعيين خليفة له من أبناء قسنطينة، وهو مصطفى بن عبد الرحمن بن الباش تارزي الكرغلي، فقام هذا الأخير بنشر تعاليم الطريقة في الإقليم الشرقي حيث نصب عدة مقاديم أشهرهم الشيخ محمد بن عزوز في واحة البرج قرب بلدة طولقة[1].

بعد وفاته 1208هـ/1793م ازدادت الطريقة نجاحا واتسعت دائرة نفوذها مما زاد من هياج الأتراك وحنقهم.

كرد فعل قام العثمانيون بمحاولة لوضع حد لتدفق الزوار من كل مكان على الزاوية الأم بآيت إسماعيل فدفعوا بثلاث مجموعات استطاعت إحداها نقل جثمانه إلى الحامة حيث دفن في احتفال مهيب، ثم شيدوا عليه مسجدا وقبة، على أن سكان قرية آيت إسماعيل حينما تحققوا أن الجثة لم تفارق قبرها الأصلي وكانوا قد نبشوا القبر ليلا، اعتقدوا أن جثة الشيخ قد ازدوجت ومنذ ذلك الحين لقب محمد بن عبد الرحمن بـ(بو قبرين*)[2].

وقد استطاع خليفته علي بن عيسى الذي بقي مدة 43 عاما في منصبه 1208هـ/ 1251هـ أن يدير الزاوية الأم بكل نجاح وحكمة مما أكسب الطريقة اتساعا وانتشارا سواء في وسط البلاد أو شرقها وجنوبها، إلا أن موته أفقد إدارة الزاوية الالتحام والوحدة حيث أن

[1]- مختار الطاهر فيلالي، المرجع السابق، ص 43، وعبد الباقي مفتاح، المرجع السابق، ص 98

*- سمي الشيخ عبد الرحمن القشتولي ببو قبرين لأن الأتراك نقلوا جثمانه من زاويته بمسقط رأسه إلى الحامة بالعاصمة ليكون ضريحه مراقبا.

[2]- مختار الطاهر فيلالي، المرجع السابق، ص 43، وعبد الباقي مفتاح، المرجع السابق، ص 62

خلفاءه لم يستطيعوا بسط هيمنتهم على مقاديم الزوايا البعيدة التي أعلنت استقلالها عن الزاوية الأم، وذلك نتيجة ضعف شخصية هؤلاء الخلفاء.

د. الطريقة الدرقاوية:

طريقة دينية صوفية تفرعت عن الطريقة الشاذلية، وسميت بالدرقاوية• نسبة إلى مؤسسها الشيخ بن العربي أحمد الحسين بن محمد بن يوسف الملقب بـــ" أبي درقاوي" المولود سنة 1150هـــ/1737م بقبيلة بني زروال بضواحي مراكش بالمغرب الأقصى، وكان يتردد على دروس الصوفي على بن عبد الرحمن الفاسي آخر شيخ للسلسلة الصوفية التي تمتد إلى أبي مدين شعيب أشهر أولياء تلمسان، ويرى البعض أنه المؤسس الحقيقي للطريقة الصوفية الدرقاوية[1].

أصبح الدرقاوي صديقا وخليفة لابن عبد الرحمن الفاسي حيث حول هذا الأخير إليه كافة سلطاته الروحية قبل وفاته بعد أن أوصاه بالزهد والاستقامة، ثم بادر إلى تأسيس زاوية له في "بويريج" بفاس والتف حوله الكثير من الناس، وحققت طريقته انتشارا واسعا في المغرب ووصلت إلى غاية الغرب الجزائري، كوهران وتلمسان ومستغانم وتيارت[2].

وهذا ويتميز أتباع هذه الطريقة باللحية وحمل العصا وكان الواحد منهم يكنى "بودربالة"*.

•- درقاوى هو جمع درقاوي، اسم جمع يطلق على أبناء الطريقة التي تنتظم أنصارى مولاي العربي الدرقاوي، وكان أول من دعا إلى مذهب الدرقاوية الشريف إدريس من جماعة العمرانيين، للمزيد أنظر: دائرة المعارف الإسلامية، تعريب أحمد الشنتاوي، إبراهيم زكي وعبد الحميد يونس، المجلد التاسع، ص 198

1- Louis Rinn, op.cit, p 232

2- دائرة المعارف الإسلامية، المرجع السابق، ص 199-200

*- المقصود ببودربالة أو دربالة أي الأثواب الرثة البالية والمرقعة.

يستعمل أتباعها السبحة وبعض الأوراد وحلقات الذكر، ويتبعون التقشف، ويمنعون اللباس الفاخر ولا يحلقون شعرهم[1].

ولقد لقيت الطريقة الدرقاوية تأييد السلطان المغربي مولاي سليمان، وخاصة وأنها تدعو للسلم، وكان انتشارها في الجزائر على يد "عبد القادر بن الشريف"، وقد لمع اسمه أثناء الثورة التي قام بها ضد الأتراك.

وقد بلغ عدد زوايا طريقة درقاوة بالجزائر حسب إحصاء الضابط لويس رين 32 زاوية و268 مقدم و14574 مريد وأهم فروع الدرقاوية المدنية الهبرية والعليوية[2].

بعد استعراضنا لمفهوم التصوف الإسلامي ونشأته ومراحل تطوره ومفهوم الطرق الصوفية وتطورها في العالم الإسلامي عموما والجزائر خصوصا، نخلص إلى القول بأن مؤسسي الطرق الصوفية في الجزائر التي نشأت في أواخر العهد العثماني وخاصة في القرن 18م كانوا يلجؤون إلى وسيلة الحج، باعتباره مؤتمرا عالميا يلتقي فيه العلماء والمتصوفة، كما كانوا يقومون بالرحلات عبر مختلف البلدان الإسلامية.

ومن بين تعاليم الصوفية المشتركة فرض الطاعة والاحترام الكامل والانقياد لشيخ الطريقة ومن تعاليمهم أيضا قولهم "من لا شيخ له فالشيطان شيخه"[3]، كما كانوا يستعملون شعائر وأذكار ويختلفون في أوقات الذكر والحضرة.

---

[1]- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج4، دار الغرب الإسلامي، 1998، ص 113.

[2]- Louis Rinn, op.cit, p 235

[3]- مختار الطاهر فيلالي، المرجع السابق، ص 57

كما يلاحظ أن جل الطرق التي نشأت خلال القرن 18م كانت بمثابة حركات مناهضة للسلطة العثمانية بعد أن شعرت بالظلم والاستبداد، فقامت بعدة ثورات ضدها مثلما حدث مع الطريقة الدرقاوية والتجانية[1].

خلاصة:

ما يمكن استخلاصه في هذا الفصل هو الانتشار الواسع للطرق الصوفية منذ بداية العهد العثماني ، تصاعد تيار المرابطين كمنافس للطرقية، وكذلك تبني السلطة العثمانية وتشجيعها للتصوف والطرق الصوفية والمرابطين واتخاذها كوسيلة وواسطة بينها وبين فئات المجتمع.

[1]- للمزيد من المعلومات ينظر: محمد مكحلي، ثورات رجال الزوايا والطرفية في الجزائر خلال العهد العثماني (1707-1827)، رسالة لنيل شهادة الدكتوراه، جامعة سيدي بلعباس 2004، ص ص 226، 227

الفصل الثاني:
نشأة الزاوية وتطورها

لا يمكن الحديث عن التصوف دون التطرق للزاوية التي كانت في الأصل مدرسة ومقر مثلت وظائف مسسة للزاوية الجزائرية الصورة المثلى لهذه المؤسسة استرشادا ومستودعا مؤمنا ومحلا لإطعام الطعام وملجأ الأمان. لكن هذه الوظائف بقدر ما كانت تعبر عن أدوار محددة بقدر ما كانت تخفي في طياتها أسرار تطور الزاوية وفاعلها مع المجتمع والسلة على حد سواء.

المبحث الأول: تعريف الزوايا لغة واصطلاحا

1-تعريف الزوايا لغة:

الزاوية لغة مشتقة من فعل (زوى) الشيء يزويه (زيا) أي جمعه وقبضه، وفي الحديث النبوي الشريف "إنَّ الله تعالى زوى لي الأرض فأريت مشارقها ومغاربها"، زويت لي الأرض: جُمعت. ومن دعاء السفر، وازو لنا البعيد أي اجمعه واطوه. وزاوية البيت: ركنه والجمع زوايا[1] .

والزاوية في البيت ركنه، وجمعه زوايا، وتزوى، وانزوى، أي صار فيها[2]، فهي ركنه الذي يجمع فيه بين قطرين، ويضمّ منه ناحيتين، ومنه زوى الشيء جمعه أو اختاره، وزوى الكلام، هيأ في نفسه، وانزوى القوم إلى بعضهم البعض، تضامنوا، ومنه كذلك زيا الشيء نحاه، واعتزل، وانفرد، وصار في زاوية[3].

كما يرجع أصل كلمة زاوية إلى الانزواء والانعزال الذي له أصل في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، فأما بالنسبة للقرآن الكريم فمن الأمثلة والآيات الدالة على ذلك قوله

[1] ــ الرازي، مختار الصحاح، ط1، دار الفكر، بيروت، لبنان، 2001، ص124.

[2] ــ الفيروزي آباري، القاموس المحيط، ط7، بيروت، لبنان، 2003، ص1292.

[3] ــ سي فضيل (من)، الزوايا بين الماضي والحاضر، رسالة ماجستير، قسم علم الاجتماع، جامعة الجزائر، 2004ــ2005، ص128.

تعالى: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللهَ﴾[2].

أما في السنة الشريفة فهناك أحاديث كثيرة تدعو إلى العزلة عند فساد الأحوال والخوف من الفتن والوقوع في الحرام، ومن بين الأحاديث ما ورد عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: "قال رجل أي الناس أفضل يا رسول الله، قال: مؤمن مجاهد نفسه وماله في سبيل الله، قال ثم من، قال: رجل معتزل في شعب من الشعاب يعبد ربه".

2-تعريف الزوايا اصطلاحا:

الزاوية عبارة عن بناية ذات طابع ديني، يقوم فيها المتصوفة بالاعتكاف والتفرّغ للعبادة، وتعليم المريدين مختلف العلوم الشرعية، النقلية والعقلية، وكذا تحفيظ القرآن الكريم للناشئة، وإيواء وإطعام الفقراء وابن السبيل[3] .

وقد ساد مصطلح الزاوية في بلاد المغرب الإسلامي في حين كانت تعرف في المشرق بالخانقاه بالفارسية والتكية جمع تكايا بالتركية[4].

أما من الجانب المعماري، فالزاوية عبارة عن تجمع من البنايات ذات طابع ديني بحت، شبهها بعض المستشرقين بصومعة الراهب المسيحي، كما شبهها آخرون في طريقة تسييرها

---

[1]- سورة مريم ، الآية 48

[2]- سورة الكهف الآية 16

[3]ـــ لبني بروفنسال "الزاوية"، ترجمة الشتتاوي، عن دائرة المعارف الإسلامية، مركز الشارقة للإبداع الفكري، 1996، ج17، ص ص5239ـــ 5242.

[4]ـــ محمد حمزة اسماعيل (الحداد) العمارة الإسلامية في أوربا العثمانية، جامعة الكويت، 2002، المجلد الأول، ص229.

بالدير في العصور الوسطي، كما أطلقت على المسجد الصغير أو على المصلى جمعت الزاوية بين هندسة المسجد والمترل والمدرسة، وقد تكون كثيرة الرطوبة والعتمة، قليلة النوافذ شكلها يوحي بالعزلة والتقشف والهدوء.

وقد تكون عكس ذلك، فهناك زوايا فريدة في تصميم عمارتها وتنوعها وثراء زخارفها وأناقتها ولعل ذلك يرجع إلى مكانة الزاوية وارتباطها بالطريقة الأمّ، فبقدر ما تكون تلك الزاوية تابعة لطريقة ذات نفوذ واسع بقدر ما تحظى الزاوية بنفوذ مادي ومعنوي كبيرين ومن ثمّ يكون الحجم العمراني لتلك الزاوية أوسع وأجمل.

تتكون عادة من مباني محاطة بسور، في وسطه ضريح لأحد المرابطين تعلوه قبة، هي مرقد الشيخ المؤسس، ويعتبر مكان مقدس، وقد يدفن خلفاء مؤسس الزاوية بنفس الضريح أو في أضرحة منفصلة، وإن كان لها مسجد فهو في الغالب بدون مئذنة، كما توجد حجرة لتحفيظ القرآن الكريم وأخرى للترتيل، وحجرات يأوي إليها الشيخ، وأخرى لباقي الأعضاء، إضافة لإيواء المنتسبين والزوار والمسافرين، كما تقوم بإطعام المحتاج وإغاثة اللهفان، وعادة ما يكون للزاوية الرئيسة زوايا فرعية أخرى، على حسب عدد مريديها وأتباعها كالزاوية التيجانية والقادرية.

أما من الجانب الديني والاجتماعي، فالزاوية مؤسسة دينية قائمة بذاتها مستحدثة في المجتمع الإسلامي[1]، وتعني بمفهومها البسيط مكان انزواء وخلوة للعباد والزهاد، والصالحين، ففيها يلتقي الشيخ بمريديه لإقامة حلقات الذكر وقراءة الأوراد وحفظ القرآن وبعض العلوم الدينية الأخرى، والزاوية التي هي من هذا النوع، تكون ملكا لصاحبها يتوارثها أبناؤه

[1] ــ التليلي العجيلي، الطرق الصوفية والاستعمار الفرنسي بالبلاد التونسية (1881-1939)، ط1، منشورات كلية الآداب تونس، 1992، ص35.

وأحفاده من بعده[1]، ويدفن فيها المؤسس وأبناؤه وتصبح محجة للسكان في تلك المنطقة ولكل مريديه يقصدونها للتبرك بضريح الشيخ وتقديم الهدايا ويحاط الخلفاء بهالة من التقديس والتبجيل.

[1] ــ يحي بوعزيز، أوضاع المؤسسات الدينية في الجزائر خلال القرنين (19ــ20م)، مجلة التقافة، العدد 63، وزارة التقافة، الجزائر، ماي ــ جوان1981، ص17.

المبحث الثاني: نشأة الزاوية وتطورها:

لقد عرف العالم الإسلامي أول بيت للزهد والتعبد على عهد الخليفة **عثمان بن عفان (رضي الله عنه)**، عندما بنى والي البصرة بالعراق **زيد بن صوحان** بيتا لبعض المسلمين يتفرغون فيه للعبادة طوال اليوم والليلة[1] ثم كانت الأربطة التي أنشئت على أطراف الدولة الإسلامية حيث كان المسلمون يحبسون أنفسهم للجهاد والحراسة تنفيذا لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا﴾[2]،خاصة في شمال إفريقيا لصدّ من محاولات الغزو البحري الأوربي وإعداد حملات المجاهدين. ويلتقي في الرباط طريقة دينية للعبادة والاستعداد للجهاد وأكثر الرباطات كان في تونس أشهرها رباط المنستير في 179هـ/795م، ورباط سوسة 206هـ/821م، ويسمى البكري هذه الرباطات بالمحارس دلالة على وظيفتها العسكرية[3] هذه مرحلة تميزت بظهور التصوف الحقيقي القائم على الزهد والتقشف ثم ظهرت كلمة خانقاه لأول مرة في النصوص العربية، خلال القرن 4هـ/10م، في خرسان وهي كلمة معربة عن الفارسية ومعناها رباط الصوفية أو بيت الدراويش[4].

وفي النصف الأول من القرن 3هـ/9م، عرفت الخانقان مرحلة مهمة من مراحل التأسيس والتنظيم خاصة بعدما ألحق بها مدفن مؤسسها أو الصالحين من الزهاد والصوفيين، فقد عرفت انتشارا كبيرا خاصة في مصر والعراق وسوريا، وارتبطت بالمذهبين الشافعي

---

[1] ـ محمد رزق عاصم، معجم مصطلحات العمارة الإسلامية، ط1، 2000، ص94.

[2] ـ سورة آل عمران، الآية 200.

[3] ـ عبد العزيز لعرج المباني المرينية في امارة تلمسان الزيانية، رسالة الدكتوراه، دولة قسم الآثار، جامعة، الجزائر، 1999، ص329، أنظر أيضا البكري أبو عبيد المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب، نشر دوسلان ، الجزائر، 1857، ص ص35ـ36.

[4] - محمد رزق عاصم، مرجع سابق، ص94.

والحنفي، كما أنشأ السلاجقة البعض منها في دمشق في أواخر القرن 5هـ/11م، كما أنشأ صلاح الدين الأيوبي خانقاه أو خانقة الصالحية في القرن 6هـ/12م لتكون مركز للصوفية والمريدين[1].

وفي العهد المملوكي استخدم لفظ الخانقاه بعكس معناها المعماري ووظيفتها الصوفية المشار إليها[2]، بحيث أصبحت تشمل على المدرسة والضريح في آن واحد وهو ما يلاحظ في خانقاه بيبرس[3] في القرن 8هـ/14[4]، وفي العهد العثماني ظهر مصطلح التكية في المناطق، الشرقية من الدولة.

وهي نوع من العمائر الإسلامية لا تختلف كثيرا عن الخانقاة من حيث الهدف والغاية وإن اختلفت عنها بعض الشيء في التخطيط والعناصر.

أما الزاوية في بلاد المغرب الإسلامي فقد عرفت في أواخر القرن 5ه/11م باسم دار الكرامة كالتي بناها السلطان يعقوب المنصور الموحدي في مراكش، ثم أطلق المرينيون على الزوايا التي شيدوها في عهدهم اسم "دار الضيوف"، ومن ذلك الزاوية العظيمة التي أنشأها السلطان أبو عنان المريني خارج مدينة سلا في منتصف القرن 8هـ/14م وهي الزاوية التي ذكرها ابن بطوطة في رحلته، ومع بداية القرن 7ه/13م أصبح مصطلح الزاوية مرادفا

[1]- محمد رزق عاصم، مرجع سابق، ص94.

[2]- المرجع نفسه، ص94.

[3]- اسمه الكامل هو ركن الدين بيبرس البندقراي، من أصل تركي ولد في 620م ــ1223م بمنطقة القبجاج قرب نهر القلوجا بوسط آسيا وقع في الأمر من قبل المغول ثم بيع في دمشق لرجل يدعى "العمار الطابع" ثم اشترن عن طريق الأمير علاء الدين الملقب بالبئد قداري والذي أخذ منه بيبرس لقبه بعد ذلك ثم انتقل بيبرس بعد ذلك من الأمير علاء الدين إلى الملك نجم الدين آيوب حيث انظم بيبرس إلى الممالك البحرية تحت قيادة الأمير أقطاي، وبرز نجم بيبرس خاصة بعد موقعة التي أبلى فيها بلاءا حسنا تمكن خلالها المسلمون من صد الحملة الصليبية.

[4]- حسن الباشا، مدخل الأثار الاسلامية، دار النهضة العربية، مصر1979، ص173.

للرباط[1] أو الصومعة وهو المكان المخصص لإقامة الولي مع تلامذته من أجل العطاء الديني والعلمي، كما عرفت بالمغرب الإسلامي بأنها مؤسسات الطرق الصوفية.

كان هدفها الحفاظ على القرآن الكريم وتحفيظه للأجيال بالإضافة إلى إيواء اليتامى وعابري السبيل والمسافرين والطلبة. وازداد هذا النوع من الزوايا انتشارا ابتداءا من القرن 10ه/16م خاصة بعد ازدياد خطر الهجمات المسيحية على شواطئ المغرب الإسلامي خاصة من طرف الإسبان والبرتغال[2] .

وهذا وقد بدأت الطرق الصوفية والزوايا تنتشر في الجزائر منذ القرن 16م، وأخذت تتطور وتزداد نفوذا واتساعا في النصف الثاني من القرن 18 وهي المرحلة المتعلقة بموضوع البحث. وقد تمكنت هذه الطرق في ظرف قصير من التحكم في توجهات السكان الروحية ومواقفهم السياسية، كما استطاعت أن تعالج الانحطاط الثقافي الذي كان يعيش فيه الريف الجزائري لابتعاد الحكام عنه، وارتباط الفقهاء بالمدن من جهة أخرى[3] .

وعموما يمكن القول بأن الزوايا في المغرب الإسلامي خضعت بصفة مباشرة للظروف السياسية، والعوامل الإجتماعية والطبيعية فكانت في أول أمرها منتشرة على السواحل التي نزل بها الأعداء والمناطق المهددة، أي في المدن على مساحات محدودة حيث كان الطلبة جنودا

---

[1] ــ التكية هي كلمة تركية معناه الزاوية والخانقاه، وكلمة تكية نفسها غامضة وفيها اجتهادات، فبعضهم يرجعها إلى الفعل العربي"اتكأ" بمعنى استند أو اعتمد، خاصة أن معاني كلمة "تكية" بالتركية تعني الاتكاء والاستناد إلى شيء للراحة والاسترخاء. والتكايا نمط من البناء يتكون أولا من المسجد المستقل، وثانيا المجتمع السكني المتكامل، ثم عناصر معمارية أخرى تلحق عادة بالتكية وتحتل غرفا أو قاعات مستقلة، وهي الضريح، المكتبة وغير ذالك من أبنية ذات نفع عام، ومن أشهر التكايا في القاهرة التكية السليمانية التي أنشأها الأمير العثماني سليمان باشا عام 950هـ والتكية الرفاعية في 1188هـ ببولاق أنظر موقع .http://ar.wikipidia org يوم 2011/07/18 على الساعة 18.00.

[2] ــ محمد نسيب زواياالعلم والقرآن بالجزائر، دار الفكر، مطبعة النخلة، الجزائر، دت، ص31.

[3] ــ ناصر الدين سعيدوني، عصر الأمير عبد القادر، الكويت، مؤسسة عبد العزيز سعود، 2000، ص113.

وعلماء في الوقت نفسه، ومإن زال الخطر الخارجي انتشرت الزوايا بالبوادي والأرياف حتى أصبحت ميزة أساسية للحياة الصحراوية والجبلية[1] .

وبناء على ماسبق ذكره يمكن تقسيم الزوايا في المغرب الإسلامي عامة والجزائر خاصة إلى نوعين:

1) زوايا المدن: هي عبارة عن المؤسسة أو مبنى ذو حجم كبير أو متوسط، يشتمل على عدد من الغرف لإيواء الطلبة والعلماء والغرباء عن البلد وتلحق بها ميضات وعيون عمومية[2].

كما يعين لها أساتذة للدراسات العليا بحيث تصبح المؤسسة في هذه الحالة مدرسة أكثر منها زاوية.

2) زوايا الأرياف: هي عبارة عن مؤسسة تكونت في بدايتها حول مسجد أو ضريح لأحد الأولياء والصلحاء تجتمع فيها قبيلة أو عرش كما يخصص فيها من يتولى أمرها لإطعام الوافدين إليها، واستقبال من يأتيها بالهبات والهدايا، ويتولى الإشراف على الزاوية أكثر الشخصيات علما وحكمة من المقيمين فيها، تعمل على استقبال الغرباء والضيوف وعابري السبيل.

[1] ــ Alfred (bel), coup d'oeil sur l'islam en herberie, Revues de l'histoire des religions, janv-fev 1917, Paris, P .18 .

[2] ــ عبد العزيز لعرج، مرجع سابق، ص327.

وإلى جانب الوظيفة الإجتماعية والخيرية فهي إذن مؤسسة تعليمية يقبل عليها الطلبة بمختلف الأعمار ويكون ذلك تحت إشراف أولئك المعلمين والمدرسين والمشايخ المقيمين بالزاوية[1].

وتتخذ الزاوية مأوى للطلبة يقوم على خدمتهم فيها المرابطون الذين لا أعمال يدوية لهم فيها[2]، وربما كانت هذه الوظيفة للزاوية هي ماأشار إليه ابن مرزوق في قولة:" والظاهر أن الزوايا عندنا في المغرب هي المواضع المعدة لإرفاق الواردين وإطعام المحتاج من القاصدين..."[3].

وقد كان للعلماء أكبر الأثر في ظهور ما يسمى في منطقة القبائل بمصطلح (ثمعمرث) أي الزاوية وهي معاهد للعلم وتعليم القرآن وحفظه ودراسة العلوم النقلية والعقلية، وقد انتشر هذا النوع من الزوايا بنواحي بجاية الناصرية بعد احتلال اسبانيا بجاية ومغادرة سكانها، وخاصة الجالية الأندلسية التي كانت فيها، فإن الكثير من أفرادها أسسوا زوايا بني يعلى، وبني عيدل، وبني وغليس، وبني عباس وغيرها[4]

وبذلك لم يمض نصف قرن حتى شهدت جبال ووهاد بلاد القبائل ثلة من قلاع المعرفة والدين، والزهد قائمة على الورع والتقوى.

---

[1] ــ عبد العزيز لعرج، مرجع سابق، ص326.

[2] ــ Devoulx, les édifices Religieux de l'ancien Alger, Alger Bostide SA, P.10.11

[3] ــ محمد بن مرزوق التلمساني، المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن،دراسة وتحقيق ماريا خيسوس بغيرا تقديم محمود بوعياد، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981، ص413.

[4] ــ محمد نسيب، المرجع السابق، ص31.

ولقد استقبل سكان هذه القرى هؤلاء العلماء، الذين أنزلوا منازلهم وعرف الناس حقوقهم وحظوا بالتقدير والاحترام والتبجيل من قبل السكان، فالمجال لا يسع لذكر كل العلماء الذين استقروا بهذه المناطق وقد نشير إلى البعض منهم بحسب ما تقتضيه ضرورة البحث[1].

واستمرت الزوايا في توسعها وتطورها لتشهد خلال الفترة العثمانية أزهى أيامها، لما لاقته من استحسان وقبول لدى الأتراك، خاصة وأنها وقفت إلى جانبهم في أيام الشدائد والحروب، وقد كانت الكثير من الزوايا في مثل هذه المناطق عبارة عن رباطات يقيم فيها الجند ليكونوا رهن الإشارة كلما دعت الضرورة إلى ذلك، وقد بقيت هذه الرباطات والزوايا في الغرب الجزائري أكثر من غيره من المناطق لاستمرار الوجود الإسباني بوهران وبعض السواحل المجاورة لها.

وبعد انقضاء الخطر الخارجي، تخلت الزوايا عن دورها العسكري، وتفرغت للجانب الروحي والاجتماعي حيث لعبت دورا كبيرا في التعليم خاصة في الأرياف وكانت تؤذى بها الصلوات الخمس والدروس وتلقين أوراد الطريقة المتبعة حسب كلّ زاوية، كما كانت تأوي الفقراء والعجزة والغرباء، وتحمي الهاربين من المجرمين المغضوب عليهم من طرف الحكام[2].

[1] ــ عبد الكريم عزوق، المعالم الأثرية الإسلامية ببجاية ونواحيها، أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه دولة في الآثا الإسلامية، جامعة الجزائر،2007ــ2008، ص81.

[2] ــ عبد القادر دحدوح، مدينة قسنطينة خلال العهد العثماني، دراسة عمرانية أثرية، رسالة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه العلوم في الآثار الإسلامية، جامعة الجزائر، 2008ــ 2009، ص342.

وقد كانت للزوايا قداسة كبرى حتى من طرف هؤلاء الحكام، بحيث إذا لجأ أحد إلى الزاوية فلا يمكن لأحد أن يعترضه أو يعاقبه، فمجرّد دخوله الزاوية فهو في حماها، وليس بمقدور أحد أن يعتدي عليه.

وقد كان بناء الزوايا يرجع في كثير من الأوقات عند اشتهار المتصوف بين الناس بتقواه وورعه وحسن سيرته، فتصبح له مكانة عندهم، فيقوم أتباعه ومريدوه ببناء زاوية له يتعبد فيها ويعلم الطلبة ويستقبل زواره، ومن ثم تأخد الزاوية في الغالب اسمه، وبعد وفاته يدفن داخل زاويته[1]، ومن ثم كثرت الزوايا وانتشرت في الجزائر في المدن والأرياف والصحاري خاصة في الحواضر والمدن التاريخية كالجزائر، قسنطينة، بجاية، تلمسان ومعسكر ومازونه...

[1] ــ أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص265.

المبحث الثالث: مراحل تكوّنها ومهامها:

إنّ العملية التي يقوم بها المرابط عبارة عن مراحل متعددة وهي:

1-الخلوة أو الاعتزال:

إنّ المريد بعد نيل إجازة معلمه، وبركته يذهب هو الآخر ليبين ما أمره الله به للعالم من الرحمة الإنسانية والعقيدة، فيهيم على وجهه أياما وشهورا، وربما أعواما إلى أن يستقر به المقام في الخلاء ربما كهف أو مغارة كالتي وجدت في منطقة القبائل ينشغل المريد في مغارة بالصلاة والمجاهدة والزهد في الملذّات لا يطول به المقام حتى يلاحظه الرعاة ويحترمون خلوته لكن فضول الإنسان يدفع بالناس إلى التقرب منه، ويرون فيه النشوة والروحانية، رغم ضعف بنيته فهو لا يهتم بالدنيا، ما يقوى إيمان العامة فيه مصداقا لقول الرسول صلى الله عليه وسلم: **"من زهد فيما عند الناس أحبه الناس"**، فيلتمس الناس منه، الدعاء والبركة لأنه في نظرهم ولي من أولياء الله، الذين تكون دعواتهم مستجابة[1].

2-الاحتكاك بالناس:

بحكم منزلته بين الناس تتهاطل الهدايا على المرابط لكنه يرفضها في بادئ الأمر، ثم يقبلها على مخض ويطلبونه منه الطلاسم للحفظ من شرّ العين والحسّاد، وتسأله النساء الخصوبة والإنجاب تودادا لأزواجهن، وترجوه الأمهات شفاء أطفالهن ويتوافد عليه الزوار

[1]- حديبي مراد، الزوايا التيجانية بالجنوب الجزائري، مذكرة الماجستير في الآثار الإسلامية، معهد الآثار، جامعة الجزائر 2011-2012، ص65.

يشكون له الجفاف والجراد والأمراض فينصتون لتوجيهاته ونصائحه التي محركها الأساسي هو حب الله تعالى.[1]

3-تأسيس الزاوية:

عندما تتعدى سمعة المرابط حدود المكان المتواجد به، فتحط بالقرب منه عائلات كاملة تسكن خياما بالية أو أكواخا من طين وأغصان، ويكبر التجمع حول المرابط بحيث يكوّن قربه صغيرة (دشرة أو دوار) يقترح شيوخ التجمع على ذلك المرابط بناء زاوية له للعبادة والمهام الأخرى المذكورة، ثم الزواج من بناتهم، فيتكون من أبنائه وأحفاده أسرة تكون محلّ التقدير والاحترام[2].

وعند وفاة المرابط، يرفع له أبناؤه والمعجبون به فوق قبره، قبة تحت ظلها تصلي الجماعة وتنقل بوفاء، ما حفظته من ذكر.

يمكن أن نجعل المرابط أحمد بن يوسف الملياني مثالا لما سبق ذكره، فقد تزوج من القبيلة التي استقبلته وآزرته بزواوة وأسس ثم درّس بالزاوية وخلّف ذرية، ورغم أنه لم يدفن هناك، لكن ذريته أصبحت فيما بعد قرية قائمة بذاتها تسمى (قرية آيت أحمد بن يوسف)[3].

---

[1]- حديبي محمد ، المرجع السابق، ص 66.

[2]ـــ بعارسية صباح، حركة التصوف في الجزائر خلال القرن العاشر الهجري السادس عشر الميلادي، مذكرة لنيل درجة الماجستير في التاريخ الحديث الجزائر، 2005-ـــ2006، ص79.

[3]ـــ أحمد ساحي، "أحمد بن ادريس البجائي الأيلولي (القرن 8هـــ/14م)، ودور زواوة في التراث العربي الإسلامي، مجلة الدراسات التاريخية، العدد 07، معهد التاريخ، جامعة الجزائر 1993، ص65.

كذلك المرابط سيدي بوزيد الذي عاش في القرن 16م حيث اختلى في جبل عمور لكن سمعته سبقته والتَفَ حوله الناس، وبعد وفاته بنو له قبة وسكنوا بالقرب منها[1]، والمرابط سيدي منصور الجنادي المتوفى في 1056ه/1645، فقد استقبلته قبيلة ببلاد القبائل وولد له هناك عقب[2].

4-مهامها:

أدت الزاوية باعتبارها مؤسسة صوفية دورا حقيقيا ومؤثرا في حركة رجال التصوف والأولياء، ونظرا لأن فترة تكوّنها ليست بالبعيدة وتقترب من المرحلة التاريخية التي ندرسها، يجدر بنا إعطاء نبذة تاريخية عنها، فقد كانت الزاوية التي يعتبر أبا مدين شعيب من روّاد بنائها مركزا لتلقين المبادئ الصوفية، ثم مكانا للتثقف والدعوة.

وتأسست الكثير منها على تخوم المدن الكبرى للمغرب الأوسط وافريقية وربما تكون قد استلهمت أصل تسميتها من هذه الوضعية الجغرافية، فالزاوية كما سبق ذكره مشتقة من فعل انزوى أي اعتزل الناس وعاش في خلوة.

وقد استفادت الزاوية من الأزمة السياسية وضعف الإمارات المحلية خاصة إمارة الزيانيين من أجل الانتشار والتوطد عبر مختلف جهات المغرب.

---

[1] _ Trumelet ©, l'Algérie légendaire en pèlerinage ça et aux tomheaux ,libraire Adolphe jourdan, Alger 1892, P30

[2] ــ بعارسية صباح، المرجع السابق، ص80.

وابتداء من القرن 16م تحولت أغلب الرباطات إلى زوايا بفعل تقارب ومتانة العلاقات بين مختلف الفئات الصوفية مما أحدث نوعا من الخلط بين رجال التصوف والمرابطين أو الأولياء، كلّ هذا من أجل مواجهة التحديات الجديدة للإمارات[1].

كما كانت الرباطات المؤسسة على مبدأ الجهاد نواة للحكم انضافت إليها الزوايا، في حين بقيت الرباطات القديمة الموجودة على الساحل الوهراني على أهبة الاستعداد للدفاع وحماية دار الإسلام من الخطر الإسباني المسيحي.

واستمرت الزاوية التي تشكل الدعامة الأساسية للعمق التاريخي والفكري، والصوفي والحربي في أداء أدوار مختلفة اختلطت فيها العناصر الدينية والسياسية والاجتماعية وذلك حتى نهاية القرن18م وما بعده. وقد أدرك الحكام العثمانيون أهمية انتشار نفوذ الزوايا، فسعوا إلى تحويل سلطتها الدينية وشهرتها لخدمة مصالحهم السياسية والاقتصادية خاصة في المناطق الريفية.

وفي نفس الإطار قدم العثمانيون امتيازات كثيرة إلى الزوايا الكبيرة من حيث النفوذ والانتشار[2].

لكن وفي الوقت نفسه اتبع الحكام العثمانيون سياسة متذبذبة اتجاه الزوايا تتراوح بين قمع العصاة والمتمردين من روادها، وإعطاء الهدايا للمتعاطفين منهم مع الحكم العثماني.

و لم يتردد الحكام إذا تطلب الأمر في مساومة هذه المؤسسات الدينية المبنية على الزهد من أجل طلب تودها وخضوعها.

[1] - Robin (N), Notes historiques sur la grande Kabylie "R.AF, 1876, P 367.
[2]- Ibid, P 367.

وقد تمتعت الزاوية خلال القرن17 وما بعده بسلطة أخلاقية وروحية قوية، وتحولت بفعل طابعها القدسي إلى مكان محرم معلوم لدى عامة الناس.

وخصّص شيخ الزاوية ضيافته لكل فئات المجتمع بدون استثناء سواء كانوا سرّاقا أو متمرّدين أو فارين، بل حتى الذميين الذين وجدوا في الزاوية ملجأ يوفر الأمان. ولم تكن الزاوية في القرن 16م مجرّد ملجأ أو مكان للإحسان، وإنما هي مركز تصنع فيه السلطة والتفوق. وترتبط قوتها ومصداقيتها من الناحية السياسية بمدن تموقعها الاجتماعي وعلاقتها بالسلطة، ففي المدن الذي يظهر فيها تفوق سلطة البايلك، اضطرت الزاوية إلى تحسين علاقتها مع الحكم من أجل اكتساب التقدير والاحترام اللازمين لانتشار سلطتها، وفي الوقت نفسه بقي أتباعها وحلفاؤها يأملون في الحياة وتطور سلطة الزاوية.

وعلى العكس من ذلك اتخذت السلطة إجراءات مسيطرة ضد الزاويا المعادية لها وراقبتها عن كتب، مما أذن إلى تقويضها وتحديد مصادر عيشها الذي اقتصر على الدعم والتبرعات التي تتلقاها من الأتباع.

ومن هنا تحول المجال الحضري إلى مزاد للزوايا، بحيث أن أكثرها قربا من السلطة هي التي تستفيد من أفضالها وامتيازاتها، ففي قسنطينة مثلا نجد أن تسع زوايا من الثلاثة عشر خاضعة للحكم العثماني، فزوايا آل الفكون، وبن جلون، وابن العربي وابن نعمون استمدت قوتها وغناها من تعاونها مع البايات، في المقابل روقبت زاوية أولاد سيدي عبد المؤمن وسيدي الأوراسي، وحدد دورها الذي اقتصر على الزيارة والذكر، ومنعت من النشاطات الاجتماعية

والسياسية والسياسية . أما في مدينة الجزائر التي قارب عدد زواياها زوايا قسنطينة[1]، فإن الزاوية الثعالبية والولي دادة وهي الأكثر تأثيرا ونفوذا قد حظيت بكثير من التقدير والتبجيل.

وعلى عكس الزاوية الأخوية التي سعت إلى المحافظة على حق ميراث السلطة من بين أعضاء السلالة المقدسة فإن الزاوية الصوفية حملت اسم مؤسسها أو العائلة المرابطة، مثلما هو الشأن بالنسبة لزاوية سيدي يوسف المليانى، والفكون وغيرهما.

أما الزاويا الضعيفة أو التي أضعفتها السلطة، فغالبا ما تحمل اسم موقعها الجغرافي مثل زاوية النجارين والغرازين[2]، والتي كانت ملكا شخصيا للخلف قبل أن تصبح ملكا جماعيا لطائفة أو هيئة ما.

وربما سعى الصوفية والأولياء إلى تدعيم حق الميراث في سلالاتهم، فقاموا بدفن رفاة ذويهم في الزاوية أو في قبة تبنى بالقرب منها، والتي تشكل مستودعا جنائزيا تتراكم به روائح القداسة، على أن هذه العادة تخص الزاوية المرابطية وتتعارض مع مبادئ الإسلام.

وقد شهد القرن 18م بلوغ زوايا الريف ذروتها مستفيدة من استقلاليتها وحرية حركاتها، وتفرع عنها العديد من الزوايا الصغيرة جهويا ووطنيا شكلت دعما آخر لسلطة الصوفية والأولياء.

وعلى الرغم من دعوة القبائل للسلطان في القسطنطينية خلال القرنين 16و17م، فإنه لم يحصل منهم على ضرائب جديدة. وتشير بعض الإحصائيات التي قام بها المحتلون الفرنسيون

[1]_ Devoulx (A), «la propriété urbaine à Alger »,R.AF, 1898, PP.191-197.
[2]_ Féraud (L.ch), « Mœurs et coutumes kabyles », R.AF, 1862, PP 82-85.

أن عدد الزوايا تجاوز بكثير عدد المساجد، وما تسميه بلاد القبائل بزواوة إلا دليل على صحة ما نقول ففي بجاية وجدت خمسة وثلاثون زاوية مقابل سبع وعشرين مسجدا.

وفي مدينة تلمسان 36 زاوية مقابل 19 مسجدا وفي قسنطينة 13 زاوية مقابل 7مساجد وحوالي 30 مصلى.

وبالتالي فإن عدد الزوايا الذي تجاوز عدد المساجد في بداية القرن 18م قد أكد بكل وضوح تأثير وسلطة الزوايا، حتى أن سكان الريف فضلوا التردد على الزوايا لبركتها والثقة المطلقة في شيوخها وتركوا أداء الفرائض اليومية في المساجد انطلاقا من المثل الشائع بين رواد الزوايا أن الذي لا شيخ له فالشيطان سيده.

5-الهيكل التنظيمي للزاوية:

-الشيخ: يأتي على رأس الهرم وهو المدرس والمصلح والمفتي والمستشار والدليل الروحي لكل من يلجأ إليه يستمد نفوذه من مكانته الدينية، باعتباره العارف بالله والقادر على تقوية النفوس، يقول في شأنه الإمام السهروردي" وهو صاحب المكاشفات والكرامات والبركات يملك المعرفة الحقة بالشريعة، وهو الذي يكشف الداء ولديه الدواء الشافي، وعنده كل الأسرار التي منحه إياها الله عز وجل... والشيخ لا يعترف إلا بقوة الله ورسوله"[1] .

كما يصفه الخوارزمي بقوله "إنّ الواحد منهم خفيف الظهر من كل حق، منفك الرقبة من كل رق، لا يلزمه أداء الزكاة، ولا تتوجه إليه عوائل النائبات ولا يستبطئه إخوانه

[1]- Depont Octave et Coppolani Xavier, les Confréries religieuse musulmanes, j.maison Neuve Geuthners S.A, 1887, P194.

ولا يطمع فيه جيرانه ولا تنتظر منه في الفطر صدقة، ولا في العيد أضحية فهو كالمسجد يحمل إليه ولا يحمل عليه، ويؤخذ بيديه ولا يؤخذ من يديه، فهو إما غانم أو سالم"[1].

وقد أحيط الشيوخ بهالة من التقديس في نظر الأتباع والمريدين فأصبحوا هم مصدر السعادة والخير والنفع والشر والضرر، فكل من مسّه الأذى أو الشقاء إلا واعتبره غضبا من الشيخ فيسرع إلى ضريحه لنيل مرضاته، فهو واسطته التي يتوسل بها عند الله تعالى فيقدم له الهدايا والزيارة ويتعهده بالطاعة والولاء له ولخلفائه ويداوم على ورده (إذ كان الشيخ صاحب الطريقة).

وكثيرا ما تنسج الخرافات وتمارس الشعوذة عند ضريح الشيخ وتنسب له أمور حتى يصبح مصدر ثراء لخلفائه، وهو من ذلك بريء فكم من شيخ نسبت إليه أقوال وأفعال، بل حتى مؤلفاته قد حرفت وتحولت الكثير من الزوايا عن العبادة والعلم إلى ممارسة طقوس لا تمت للدين بصلة فظنها عامة الناس أنها الدين بعينه نظرا للجهل وانتشار الأمية.

كما أن هناك بعض الأشباه المشايخ ودعاة العلم من وجد في ظاهرة انتشار الأمية ضالته لفرض نفسه على العامة، عن طريق الترهيب وتهديد الناس في صحة أبدانهم وثروتهم وعقم نسائهم إن هم عصوه أو لم يدفعوا له الزيارة.

-الخليفة: يأتي في المرتبة الثانية فهو الذي يرث مقاليد الطريقة وعادة ما يسمى بالخليفة الأكبر أو بصاحب السجادة، ويتوارث الأبناء والأحفاد بركة الشيخ، اللهم إلا في الحالات

[1] ــ أبو بكر الخوارزمي الرسائل، ط1، مطبعة الجوانب، القسطنطينية، 1227هـ ، ص90.

نادرة كما هو الشأن بالنسبة للتيجانية، حيث أوصى بها الشيخ التجاني قبيل وفاته إلى أحد مقدميه المقربين وهو الحاج علي التيماسيني صاحب الزاوية التجانية بتيماسين[1].

ويسهر الخليفة على تسيير الطريقة والدفاع عن مصالحها، فيحافظ على أوراد الطريقة وأذكارها فلا يزيد فيها ولا ينقص، ولا يفشي أسرار الموروثة فهو بمثابة المدير العام المسؤول على تسيير مجموعة وحدات تخت إمرته عدد من الشيوخ يدعون بالمقدمين[2]، وقد يكون الخليفة هو النقيب بالزاوية الأم[3].

أما بالزاوية المحلية فيقوم شيخها بتعيين خلفاء للمناطق، والذين غالبا ما تصبح منازلها زوايا وليدة متفرعة[4].

إلا أنه في بعض الحالات تقع نزاعات بين الأبناء والأحفاد مما يؤدي إلى استقلالية بعض الزوايا الفرعية للطريقة أو تضعف إدارتها المركزية فيستغل المقاديم (جمع مقدم ضعفها) ويعلنون الانفصال كما هو في الطريقة الرحمانية.

للعلم أن الخليفة يختاره الشيخ ضمن طلبته القدماء والذي يرى فيه القدرة والكفاءة العلمية والمعرفية ليكون خليفة له بعد وفاته، وهو حامل البركة بعد شيخه وذلك مع وصية

---

[1] - Coppolani et Depont, op, cit, P195-196, et Bel Alfred, l'islam mystique, jules carbonal impriomeur, editeur Alger, 1928, P112.

[2] - Brosseleord (chorles) « les inscriptions arabes de Tlemcen » in Rev AFV, n°05 , 1860, Alger P :21 .

[3] - Coppolani et Depont, op cit, P P 207-208.

[4] ـــ سبنسر ترمنجهام، مرجع سابق، ص268.

(الإجازة[1]) توضّح أنه هو خليفة ويسمح له بإعطاء الإجازة لغيره هو كذلك وإعطاء الورد ونشر الطريقة والاهتمام بها وبشؤونها والحفاظ على سمعتها[2].

-النائب: نجده في الزوايا الأم يحل محلّ الخليفة أثناء غيابه لضمان سير الإدارة المركزية للطريقة، ولا تعطى له كافة الصلاحيات، وعادة ما يقوم بهذه المهمة الوكيل.

-الوكيل: قد يعوض المرابط في حالة وفاته وانقطاع عقبه، ويلتزم بذلك حرفيا جميع طلبة الزاوية والأتباع المعروفين، وتحديد الإخوان فيوزعون بينهم حسب قدراتهم ومكانتهم من شيخ الزاوية الخدمات والمهام المتعددة، وقد يضطرون أحيانا حرصا على مصلحة الزاوية لوضع تعليمات وإجراءات محددة في شكل قانون داخلي للزاوية يحفظ بالتواتر أو يسجل كتابيا[3] .

ويقوم الوكيل بأعمال وشؤون الطريقة المالية والغذائية انطلاقا من الزاوية الأم فهو بمثابة المقتصد في المؤسسة والمحاسب، والمسيّر ورجل الأعمال، يشرف على الجوانب الإدارية، من مراسلات، تجهيز، وضبط الميزانية، كما يعمل على حراسة وحماية ضريح سيده وتحت إدارته عدد من الخدم (الشاوش)[4].

وبقدر ما يكون الوكيل يمارس مهامه في الزاوية الأم بقدر ما تكون أهميته كبيرة، كما هو الشأن في الزاوية الطيبية في وزات بالمغرب الأقصى، أو الزاوية القادرية ببغداد، أو الزوايا

---

[1] ــ الإجازة هي عبارة عن تعويض له من طرف الشيخ أو الخليفة في ممارسة مهامه لدى أتباع الطريقة بالزاوية التي التحق بها.

[2] ــ أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي الجزء 4 المؤسسة الوطنية للنشر والتوزيع ط1، 1981، الجزائر، ص12.

[3] ــ ناصر الدين سعيدوني، مؤسسة الزوايا في الجزائر العثمانية (نموذج بلاد القبائل)، عمل نشر في International congress istambul, April 1999 ,P07.

[4] - Coppolani et Depont, op cit, p p 207-208

التجانية بعين ماضي وتيماسين وفاس، أما في الزوايا الثانوية فعادة مايكتفي الوكيل ببعض المساعدين.

ويساعد الوكيل مجموعة من الخدام يقودهم مقدم يسمى عند بعض الطرق مقدم الخدام[1] .

-المقدم: هو مندوب الخليفة أو ممثل للشيخ أمام العامة بالزوايا الفرعية وقد يمنحه الشيخ صلاحيات واسعة بالمناطق البعيدة عن مقر إقامته، ولكن وبسبب اتساع الرقعة الجغرافية لبعض الطرق حدثت اللامركزية، حيث ظهرت زوايا جديدة تحت رعاية شيخ جديد، أو بانتخاب المقدم الذي يمنحه شيخ الطريقة الأم إجازة[2] .

وعلى المقدم أن يسير منطقة محددة دينيا يراسل الخليفة ليطلعه على الأخيار أو يطلب منه نصائح، له خاتم، وتحت إمرته نقيب[3] .

ويترشح لمرتبة المقدم كل مريد توفرت فيه مواصفات معينة، كالسمعة الجيدة بين المريدين وعند مسؤوليه، إلى جانب التحلي بالآداب مع الخاصة والعامة والاستيعاب الجيد لأفكار وأدوار الطريقة.

للإشارة تمنح إجازة مكتوبة بمثابة دبلوم للمقدم المرسم وهذه الإجازة تخول له حق تلقين ورد الطريقة والإشراف على مجموعة من المريدين المقيمين في حدود المنطقة المعينة له[4].

---

[1] - Coppolani et Depont, op cit, p207

[2] - Ibid p195-196, et ,Bel l'islam mystique, p25-26

[3] - Brosselard, op cit, p09 .

[4] ــ محمد بن عبد الله، الفتح الرباني فيما يحتاج إليها المريد التجاني، مطبوعات الحاج عبد السلام، مصر (د.ت)، ص31.

وتتضمن الإجازة عادة التعريف بالمقدم -سلسلة الطريقة وذكرها- أسلوب تلقينه للأتباع وينتهي نص الإجازة بتقديم النصح للأتباع بطاعة المقدم[1].

-النقيب: بالزاوية الأم هو الخليفة، ينوب عن الشيخ، يسمى أيضا شيخ الحضرة يقوم عادة بإمامة الصلاة[2]. أما الزوايا الفرعية، فمهمته نيابة الشيخ في الأوقات اللازمة، تحت إمرته عدد من الأعوان الثانويين أهمهم الرسول[3].

-الرسول أو الشاوش أو الراقب: بالزوايا الفرعية هو رسول المقدم للعامة، يقوم ببلاغ المريدين بموعد مرور المقدم لجمع الصدقة[4] ، أما بالزاوية الأم فيتواصل بينها وبين فروعها، كذلك يتواصل بين الشيخ والخليفة[5].

وكثيرا ما يحظى الراقب بالترحاب من قبل المريدين أثناء تأدية مهامهم، ويتميزون عن غيرهم بحمل ترخيص من قبل الجهة المكلفة لهم.

-المريدون: يشكلون قاعدة الهرم، يطلق عليهم "الإخوان" في المغرب العربي، بينما يعرفون في المشرق باسم "الدراويش"، ويتميزون بأسماء مختلفة من طريقة إلى أخرى مثلا عند القادرية يعرفون باسم الفقراء، وعند التجانية يعرفون باسم الأحباب[6]، وأهم شيء يلقن

[1] ــ محمد العجيلي، الطرق الصوفية والاستعمار الفرنسي بالبلاد التونسية (1881ــ1939)، ط1، منشورات كلية الآداب تونس 1992، ص38.

[2] - Coppoloni et Depont, op cit, p207-208 .

[3] - Brosselard, op cit, p09.

[4] - Coppoloni, op cit, p195-196, et , Bel l'islam mystique, op cit, p25-26.

[5] - Brosselard, op cit, p09.

[6] ــ محمد بن عبد الله، مرجع سابق، ص31.

للمريد عند انخراطه في الطريقة هو طاعة أهلها وعلى رأسهم الشيخ، وأن يطبق القاعدة الصوفية المشهورة "اعتقد ولا تنتقد".

وأي مسلم يرغب في الانضمام إلى طريقة ما عليه أولا أن يمرّ بالمقدم الذي يحضّره ثم يصبح مريدا، وقد تدوم هذه التحضيرات سنوات حتى يتم تلقينه الذكر، والذي يختلف من طريقة لأخرى، وزيادة على الذكر فإن للمريد واجبات أخرى مثل: حضور الحضرة، الزيارة، الصدقة... .

6-العلاقة بين المدرسة والزاوية والرباط:

يبدو الاختلاف واضحا بين جمهور المؤرخين في الفرق بين مفاهيم الرباط والزاوية من جهة وبين الزاوية والمدرسة من جهة أخرى.

فابن مريم يدمج بين المؤسستين، فمرّة يذكرها زاوية وأخرى مدرسة وأخرى مدرسة الزاوية.[1]

اما ابن خلدون، وابن أبي زرع فيظهر الاختلاف واضحا بينهما في التعبير الاصطلاحي للمبنى الذي شيده أبو يوسف يعقوب سنة 684هـ/ 1285م.

فابن خلدون يسميه رباط[2] وابن أبي زرع يسميه زاوية[3] ومن هنا يبدو من اللائق أن نتساءل عن معاني المصطلحات (الزاوية، الرباط، المدرسة) ودلالاتها اللغوية والوظيفة.

---

[1]- ابن مريم، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، ط1، دم،ج وهران، 1986، ص 126.

[2]- عبد الرحمان ابن خلدون، كتاب العبر، ج7، ص 435.

[3]- ابن أبي زرع (علي بن عبد الله)، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس ، دار المنصورة للطباعة ، الرباط ، 1972، ص 257.

7- الزاوية:

الزاوية لغة تعني الركن أو المكان المنعزل وتسمية الزاوية يدل ابتداءا على أنها بقعة من الأرض جاءت من انزوائها بعيدا عن بقية المناطق المتقاربة من بعضها.[1]

فهي في الأصل ركن البناء، كانت في بادئ الأمر تطلق على صومعة الراهب المسيحي، ثم أطلقت على المسجد الصغير أو على المصلى ولا تزال اللفظة هذه تحتفظ بنفس المعنى عند مسلمي المشرق، على أن مصطلح الزاوية بقي معمولا به في شمال إفريقيا بمعنى أكثر شمولا من ذلك إذ يطلق على بناء أو مجموعة من الأبنية ذات طابع ديني، تشبه الدير أو المدرسة، حيث نجد في الزاوية الأشياء التالية أو الكثير منها، غرفة للصلاة بها محراب ضريح لأحد المرابطين، أو وليا من الأشراف يعلوه قبة وغرفة خصّصت لتلاوة القرآن وأخرى لتحفيظه وغرفا مخصصة لضيوف الزاوية وللحجاج والمسافرين والطلبة. على أن المصطلح أطلق على الحلقة التي يشكلها الطلبة حول مدرّس أو شيخ في أي مسجد، سواء كانت الحلقة في زاوية المسجد، بالفعل أو في صدره.[2]

يتضح مما سبق أن مصطلح الزاوية يقصد به مكان معينا منعزلا بعيدا عن الضوضاء في جامع ويختص بمدرّس أو مذهب أو دروس معينة، وكان بعضها يعني بالأوقاف لإعانة الطلبة ودفع رواتب المدرسين والزاوية بهذا المعنى قريبة من وظيفة المدرسة، من حيث الأوقاف

[1]- قدور إبراهيم عمار، زاوية سيدي عمر، تاريخها ونشأتها، ديوان المطبوعات الجامعية، وهران 1997، ص 28.

[2]- عبد العزيز لعرج، المباني المرينية في إمارة تلمسان، أطروحة دكتوراه جامعة الجزائر، 1999، ص 331.

عليها، أما بناء الزوايا في الأماكن المنعزلة خارج المدن فكان في الغالب لاستقبال الغرباء وعابري السبيل.[1]

أما الأستاذ "جورج مارسي" يرى أن تطوّر الزاوية ارتبط أساسا بتطوّر الحركة الصوفية في بداية القرن السابع الهجري 13م. ويذكر أيضا بأن الزاوية في المغرب الإسلامي ما هي إلا رباطات ففدت وظيفتها الحربية، وتمسّكت بالجانب التقيدي. فقد كان للرباط دور بارز في تاريخ المغرب الإسلامي، فهو لم يكن للدفاع عن الحدود وملازمة الجهاد، وإنما كان مأوى للمتعبدين والزهاد، ومركز إشعاع ديني يتعلم فيه المقيمون أصول دينهم وأحكام الإسلام.[2]

وعلى أية حال، فإن هذه الربط قد ضعف شأنها في العصر المريني، وبدأت تترك مكانها للزوايا التي انقطع أغلبها للجهاد الروحي، وأصبح مصطلح الرباط.[3] في إشارات مؤرخي ذلك العصر يلتبس أحيان بالزاوية، وبالمقبرة الجماعية أحيانا أخرى، إذ نجد صاحب "انتصار الأخبار" قد جمع بين الربط والزاوية في إحصاء واحد دون تمييز كما نعت ابن أبي زرع شالة المقبرة الملكية لبني مرين بالرباط.

[1]- عبد العزيز لعرج، مرجع سابق، ص 325.

[2] -George Marçais l'art musulman, presses universitaires de France, Paris, 1962, p129.

[3]- الرباط مصدر رابط يرابط بمعنى أقام ولازم المكان وارتبط ارتباط الخيل وإعدادها، ويعني أيضا المكان الذي يرابط فيه الجيش، وأصل الرباط أن يرابط الفريقان في ثغر كل منهما معد لصاحبه، ثم سمي المقام في الشعور رباطا والمرابط والرابط الزاهد الذي نزه نفسه عن الدنيا، والربط من الحصون، يقام عند الساحل أو شاطئ نهرا واحد الصحاري، قصد الدفاع عن الثغور، وقد انتشرت هذه الربط منذ الفتح الإسلامي في الشمال الإفريقي من المحيط الأطلسي غربا إلى تونس شرقا ينظر: محمد حجي، نظرات في النوازل الفقهية، القاهرة، د.ت، ص 100.

8-أقسام الزاوية:

ظلّ مصطلح الزاوية محتفظا في شمال إفريقيا بمعنى أكثر شمولا، إذ يطلق على مجموعة من الأبنية ذات طابع ديني، أو تلك التجمعات من البيوت والمنازل المختلفة الأشكال والأحجام، المقسمة من الداخل على بيوت للصلاة (المسجد)، وقاعة الضريح وغرف لتحفيظ القرآن الكريم، وتعليم اللغة العربية والعلوم الإسلامية، وأخرى لسكن الطلبة وطهي الطعام (المطبخ)، وتخزين المواد الغذائية والعلف (المخزن)، وأفنية وصحون ومقابر.[1]

وقد ارتبطت أنماطها المعمارية بالطابع المحلي التقليدي الريفي والصحراوي، من تخطيها ومواد بنائها، ممّا جعل الفرق بين زوايا المدن وزوايا الأرياف وزوايا الجنوب في المناطق الصحراوية.[2]

أ) **زوايا الأرياف:** هي عبارة عن مؤسسة تكونت في بدايتها حول المسجد أو ضريح لأحد الأولياء والصلحاء تجتمع فيها قبيلة أو عرش، كما يخصص فيها من يتولى أمرها لإطعام الوافدين إليها واستقبال من يأتيها بالهبات والعطايا.

ويتولى الإشراف على الزوايا أكثر الشخصيات علما وحكمة من المقيمين فيها، تعمل على استقبال الغرباء والضيوف وعابري السبيل.

[1]- بوزرينة سعيد، الزوايا في الجزائر خلال العهد العثماني، دراسة أثرية معمارية فنية مذكرة الدكتوراه، جامعة الجزائر (2)، 2015-2016، ص 110.

[2]- المرجع نفسه، ص 111.

أ) **زوايا المدن**: هي عبارة عن مؤسسة أو مبنى ذو حجم كبير أو متوسط، يشتمل على عدد من الغرف لإيواء الطلبة والعلماء والغرباء عن البلد وتلحق بها ميضآت وعيون عمومية.[1] كما يعين لها أساتذة للدراسات العليا بحيث تصبح المؤسسة في هذه الحالة مدرسة أكثر منها زاوية.

[1]- عبد العزيز لعرج، مرجع سابق، ص 326.

المبحث الرابع : التكوينات المعمارية للزاوية:

1- المسجد:

-تعريف المسجد لغة:

إن التحديد اللغوي للكلمة هو من فعل سجد خضع وانحنى إلى الأرض، وسجد يسجد سجودا، أي وضع جبهته على الأرض[1]، والمسجد بكسر الميم هي الحصير الصغير.[2]

أما ابن منظور، فيقول، بأن فعل سجد بمعنى خضع، ومنه سجود الصلاة، ولا خضوع أعظم منه.[3]

-تعريف المسجد شرعا:

هو كل موضع في الأرض، لقوله صلى الله عليه وسلم "جعلت لي الأرض مسجدا"

ولما كان السجود أشرف أفعال الصلاة لقرب العبد من ربّه لقوله صلى الله عليه وسلم "فأقرب ما يكون العبد من ربّه وهو ساجد"[4] اشتق اسم المكان منه فقيل "مسجد" و لم يقولوا مركع[5] والمسجد، جمعه مساجد وهو عموما كل مكان يسجد ويتعبّد فيه الإنسان، واحدا تقام فيه الصلوات الخمس، فقط يدعى بالمسجد، بينما تقام الآخر تقام فيه الصلوات الخمس

[1]- محي الدين مرتضى الزبيدي، تاج العروس، تحقيق على يسري، دار الفكر بيروت، 1994، ص ص 165-167.
[2]- أبو الحسن بن عبد اللع العسكري، كتاب التصحيف والتحريف وشرح ما يقع فيه، ج1، القاهرة، 1808، ص 137.
[3]- ابن منظور، لسان العرب، ج4، ط18، بولاق 1900، ص ص 187-188.
[4]- محي الدين النوري، شرح مسلم، ج3، بيروت، 2000، ص 293.
[5]- الزركشي إعلام الساجد بأحكام المساجد تحقيق أبو الوفاء مصطفى المراغي، القاهرة، 1995، ص 13.

وصلاة الجمعة والأعياد ويسمّى بالمسجد الجامع أو الجامع.[1] هذا ويعتبر المسجد وحدة معمارية متميزة، فهو يمتلك خاصية هيكلة النسيج العمراني، خاصة في البيئة الصحراوية، وهذا نظرا لقيمته المعمارية المستمدة من قيمته العقائدية وقدسية المكان التي نلمسها من الهيبة والوقار التي يكتسبها.[2]

تمتاز بيوت الصلاة في زوايا الجزائر خلال العهد العثماني الجمع بين وظيفتي التدريس وأداء الصلاة، أما من حيث تخطيطها المعماري فيتميز بشكلها المستطيل والمربع وبعناصرها المعمارية كالمحراب والعقود والأعمدة والدعامات والمئذنة والقباب.

2- الضريح:

- تعريف الضريح لغة:

هي كلمة مشتقة من فعل ضرح، وهو معنى القبر حفرة أو شقة، أي حفر له ضريحا.[3] وسمي ضريحا لأنه يشق في الأرض شقا أو لأنه انضرح عن جانبي القبر فصار في وسطه.[4]

- تعريف الضريح اصطلاحا:

أما في المصطلح الأثري فهو الحجرة المشتملة على قبر أو تربة تعلوها قبة، وقد ميّز البعض بين القبر الذي هو حفرة الميت وبين التربة التي هي بناء مقام فوق القبر الذي أخذ في العصر الإسلامي أشكالا عديدة كان منها البسيط الذي يتألف من كومة من الحصى أو

[1]- عبد الرحيم غالب، موسوعة العمارة الإسلامية، ط1، بيروت، 1988، ص 381.

[2]- بوزرينة سعد، المرجع السابق، ص 111.

[3]- ابن منظور، لسان العرب، ج11، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، 1955، ص 526.

[4]- محمد حمزة إسماعيل حداد، القباب في العمارة المصرية الإسلامية، ط1، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 1993، ص ص 18-19.

التراب، ومنها المبنى المرتفع الذي تفنن المعماريون فيه.[1] وهو مدفن لسلطان، أو أمير، أو رجل (ولي) صالح أو إنسان آخر له مكانة اجتماعية مرموقة تدعو إلى تخليد ذكراه.[2]

وقد عرفت كلمة ضريح عدّة اصطلاحات في مناطق مختلفة من العالم الإسلامي، كاصطلاح "التربة" خاصة في العهد العثماني وتحديدا في تونس وكذلك "مشهد" وهذا للدلالة على مدفن تذكاري لدفن الشهداء وأهل البيت، وهذا الخبر متداول في مصر كما نجد مصطلح "مزار".

ويطلق على ما يزار من الأماكن من قبور الأنبياء والأولياء والصحابة عليهم الرضوان في البقيع. وهناك من يطلق على الكلمة مقام. كمقام سيدي أبي مدين بتلمسان وسيدي عبد الله بن منصور وسيدي محمد بن علي بعين الحوت. هذا وقد تعددت أساليب بناء القبور منذ فترة ما قبل التاريخ، حيث وجدت مدافن على شكل مسكن، وهي عبارة عن مناضد حجرية تتكون من عدّة غرف، وأشكال أخرى عبارة عن مغارات في الصخور، وفي مصر ظهرت عمارة الأهرامات والمصاطب، ونفس الفكرة ظهرت في حضارة وادي الرافدين.[3]

أما في العصر الإسلامي، فإن أقدم ضريح أقيمت عليه قبة يرجع تاريخه إلى القرن الثالث الهجري، التاسع الميلادي وذلك في مدينة سامراء بالعراق على الضفة الغربية لنهر دجلة، ثم يأتي ضريح إسماعيل السماني المبني عام 296هـ/ 970م في مدينة بخارى، ثم ضريح الإمام علي كرّم الله وجهه بالنجف الذي بناه الحمدانيون سنة 317هـ/ 929م.

[1]- عاصم محمد رزق، معجم مصطلحات العمارة والفنون الإسلامية، مكتبة مدبولي 2000، ص 125.

[2]- عبد الجواد توفيق، تاريخ العمارة والفنون الإسلامية، ج3، القاهرة، 1972، ص 74.

[3]- بوزرينة سعيد، المرجع السابق، ص 113.

ويكون ضريح الولي عادة مرتفعا ومغطى بتابوت خشبي عليه أقمشة مذهبة وملونة حريرية وغيرها ومحاط بشباك مغلق، وتكون الأعلام والرايات التي ترجع إلى الطريقة التي ينتمي إليها إن كان من أصحاب الطرق.

الشكل العام للضريح عبارة عن حجرة مغطاة بقبة تنوعت أشكالها من المشرق إلى المغرب، بتنوع الأضرحة فمنها البسيط المنفرد والبناء المتكون من غرفة واحدة مقببة ومنها الملحقة بالمدرسة أو الجامع.[1] أما الأستاذ الباحث كوفي Cauvet أعطى أشكالا وأنواعا مختلفة من الأضرحة تتمثل في:

* أضرحة تعلوها قبة نصف كروية: وهي أضرحة مغطاة بقبة نصف دائرية مذنبة قليلا في المركز يلاحظ هذا النوع في كل من طرابلس، تونس، الجزائر والمغرب.

* أضرحة على شكل كوخ بسقف عادي أو منحدر ومزدوج توجد بكثرة في المناطق الجبلية بحيث يكون على هيئة كوخ بسيط غالبا ما يبنى بالحجارة والسقف من القرميد ويتوفر هذا خاصة في منطقة القبائل الكبرى.

* أضرحة ذات قباب محمية بسطح من القرميد، هذا النوع خاص بالمناطق الساحلية (كثيرة الأمطار والثلوج) وقد عثر عليه في منطقة المدية وسيدي عيسى وبسكرة مجسدا في زاوية وضريح سيدي خالد.

[1] – بوزرينة سعيد، المرجع السابق، ص 114.

* أضرحة ذات قباب أو مخروطية: له قمّة حادّة على الجانب، إذ تتخذ شكلا متساوي الأضلاع مشكلة بذلك قوس تام منكسرا أو نصف دائري.[1]

3- الصحن:

الصحن هو المساحة المكشوفة أو المغطاة تتصل بها من الناحية الجنوبية برواق القبلة ومن النواحي الثلاث الأخرى، حيث يعتبر المجال المركزي والعصب الحيوي في المسكن الأصيل.[2] ويعرف صحن الدار على أنه وسطها ومركزها ويطلق عليه أحيانا باحة أو ساحة، ويسمّى محليا بوسط الدار أو الحوش، وهو أهم فضاء في المترل، ولم يقتصر تصميمه على الدور السكنية فقط، وإنما اتخذ كنواة للفندق والوكالة والمارستان والقصر والدار والزوايا.[3] يعتبر من العوامل الأساسية التي لها دور في التكوين المعماري لكل مبنى.

فالمساجد لم تستغن عنها، بل كانت جزءا لا يتجزأ من المساجد التقليدية التي اتخذت منه وسيلة للتقليل من الحرارة القاسية.

والواقع أن مواضع الصحون في هذه الزوايا لم يكن نابعا من تقليد معماري معين وإنما فرضته طبيعة المكان والموقع والمساحة المخصصة للبناء.

4- الغرف:

الغرفة جمعها غرف بضم الغاء وفتح الراء، وهي الحجرة في الطابق الثاني من الدار وفوقها، أما معماريا فهي حجرة صغيرة بالأدوار العلوية.[4] وقد حدّد التصميم الداخلي للغرفة حسب الوظيفة التي تؤدي فيها، وكلها تقريبا تشترك في خاصية واحدة تتمثل في الشكل

---

[1]- بوزرينة سعيد، المرجع السابق، ص 114.

[2]- محمد الطيب عقاب، فصور مدينة الجزائر في أواخر العهد العثمانيين دار الحكمة، الجزائر، 2007، ص 48.

[3]- جمعة أحمد قاجة، موسوعة فن العمارة الإسلامية، ط1، لبنان، 2000، ص 327.

[4] عاصم محمد رزق، المرجع السابق، ص 211.

المستطيل والمربع، كما يتم توزيعها حول الصحن من جهاته الأربع في بعض الزوايا، وأن مقاساتها تختلف من زاوية لأخرى، فنجد أن غرف الإقامة تمتاز بالبساطة وهي دلالة واضحة على الزهد والتقشف الذي ميز الحياة في الزاوية. كما توجد غرف الاستقبال في معظم بيوت الجنوب الجزائرية وفي الزوايا الكبيرة وهي عادة ما تفتح مباشرة على السقيفة، إلا في بعض الاستثناءات في الزاوية، إذ نجد بابا مخصصا لدخول الضيوف دون إزعاج من بداخل الدار، كما يفتح بها باب ثاني خاص بأهل البيت ليسهل عليهم عملية تنظيفها ونقل الطعام إلى الضيوف وتزويدهم بما يحتاجونه.[1]

5- المطبخ:

يعتبر من بين المرافق التي يحتويها كل مبنى، هذا ما جعل البناء يهتم بطريقة بنائه واختيار المكان المناسب، حيث نجده في الزوايا والمباني بالطابق الأرضي بعيدا عن هبوب الرياح لمنع تصاعد الدخان إلى الفضاءات الأخرى في المبنى. وتسهيل تزويده بالمواد الأولية كالحطب والماء وغيرهاّ، ووضع فتحات تكون مفتوحة على الخارج، وبنوافذ مفتوحة نحو الداخل وذلك لتوفير الإنارة والتهوية اللازمة.[2]

وتعلو المطبخ رفوف وأوتاد وبعض الكوات التي تستعمل لوضع لوازم المطبخ والأواني المستعملة لها.

6- المخزن:

يعتبر المخزن من مكونات القارة للزاوية، كونه يرتبط بمستقبلها وتأمين المواد الغذائية الإستراتيجية، فهي غرفة ضيقة، تحتل موقعا من الزاوية بعيدا عن الأنظار ويكون أبرز مكان فيها، وأقل عرضة لأشعة الشمس، وتكون هذه في غالب الأحيان بالطابق الأرضي وتحت السلم وتزوّد بداخلها بعوارض خشبية تعلق عليها حزمات البصل والثوم.[3]

---

[1]- بوزينة سعيد، المرجع السابق، ص 117.

[2]- محمد الطيب عقاب، مساكن قصر القنادسة، دراسة معمارية أثرية، دار الحكمة، الجزائر، 2007، ص 115.

[3]- المرجع نفسه، ص 124.

المبحث الخامس: أنواع الزوايا ووظائفها

1- أنواع الزوايا:

إن تعدد الزوايا في الجزائر سمح بوجود أنظمة مختلفة أدت إلى وجود ثلاثة أنواع من الزوايا:

*** النوع الأول: زوايا المشايخ**

وهي ملكية خاصة ونظامها يشبه النظام الملكي الوراثي، وصاحب هذه الزاوية يكون عادة صاحب الطريقة، ويعرف بشيخ الطريقة وهو الذي يعطي الأوراد.[1] وهذا الشيخ له أتباع ومريدون يسمون الإخوان، والزاوية تقوم على أكتاف هؤلاء المريدين والمحسنين فهم الذين يولون الزاوية ويجمعون لها الزكاة والتبرعات والصدقات من الشعب.

والشيخ هو المشرف والمسؤول المباشر على زاويته وهو صاحب الحل والعقد، وهو الذي يعين المعلم ويعزله حين يشاء ويحدّد المواد التي تدرّس للطلبة.

***النوع الثاني: زوايا المرابطين**

وهي ملكية جماعية من المرابطين ويسيرونها فيما بينهم، تتمثل في صدقات المحسنين والنذر والهبات والزيارات والحبوس وتنفق على طلبة العلم والإخوان. فالمرابطون أحفاد المؤسس الأوّل للزاوية لا يحق لهم أن يأخذوا شيئا من أموالها. فالزكوات والصدقات والتبرعات سواء كانت نقودا أو حيوانات فهي للزاوية وحق لطلبة العلم والفقراء والذين يقصدون الزاوية. وينتشر هذا النوع من الزاوية في منطقة زواوة بالقبائل.

---

[1]- الورد في اللغة هو الشرب قال تعالى "وبئس الورد المورود" سورة هود، الآية 98.

واصطلاحا: ما يركبه العبد على نفسه أو الشيخ على تلميذه من الأذكار والعبادات والورد لغة هو الطارق والقادم يقال ورد علينا فلان، والورد يقرأ أوقات منظمة فيقال أوراد الليل ، للمزيد انظر: د عبد الحكيم خليل سيد أحمد المعتقدات الشعبية، في الطقوس والشعائر الصوفية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2012، ص 238.

***النوع الثالث:**

وهو فريد من نوعه في الجزائر حسب ما ذهب إليه الباحث بوزرينة سعيد تقلا عن الشيخ الذي زاره في منطقة القبائل، والأمر يتعلق بزاوية سيدي عبد الرحمن اليلولي بجبال جرجرة في عرش يلولة بعزازقة التابعة لتيزي وزو والتي تأسست في القرن 17م وبالتحديد في 1635م، حيث يسيرها الطلبة بحرية تامة واستقلالية في تسيير شؤونهم وتدبيرها ويسهرون على وضع نظامها الداخلي.[1]

ويمكن إضافة نوعا آخر من الزوايا وهي:

– الزاوية المنسوبة إلى شخص ميت تقدسه العامة وتحي ذكراه وهو مدفون بالزاوية.

إن العامل المشترك بين الزوايا يتمثل في مجانية التعليم والإيواء للضيوف والإخوان، إلى جانب السلطة الروحية التي تمارسها الزاوية على مريديها.

2– وظائف الزاوية:

لقد كان للزوايا الدينية نشاطات مختلفة ومتنوعة في الحياة الدينية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية، بل حتى السياسية بالجزائر وهي أنها:

أولا: الوظيفة التربوية والتعليمية.

إن التعليم في الزوايا وإن كان بسيطا مقصورا على العلوم الشرعية، والعربية وكذا التصوف الصحيح (أي علم الأخلاق أو علم السلوك) له أهميته الكبيرة في تكوين الإنسان المسلم الحقيقي. وتجدر الإشارة إلى أن التربية هي أرضية التعليم التي ترسى عليها حياة المتعلم الفردية والجماعية في هذه الزوايا إذ يتسامح مع المتهاون في جانب الدرس ولا يتسامح مع المضيع لفريضة الصلاة بأي حال من الأحوال.

[1]– بوزرينة سعيد، المرجع السابق، ص 121.

ثانيا: الوظيفة الثقافية:

لقد كانت الزوايا بمثابة مخازن ودواوين للكتب والمخطوطات في مختلف حقول العلم والفنون وذلك بفضل اهتمام شيوخها وأتباعها بالعلم والتعليم والنسخ، والنقل والجمع والتأليف غير أن معظم ما بها من تراث تسرّب إلى البلدان الأوروبية، كما تعرض جزء هام من هذا الكتر إلى التلف والضياع بفعل الثورات والحروب.[1]

ثالثا: الوظيفة الاجتماعية:

إضافة إلى دورها العلمي والثقافي فقد كانت الزوايا تقوم بدور لا يقل أهمية عن تعليم العلم الشرعي وتحفيط القرآن الكريم، بل كان لها وجود اجتماعي. فالزاوية تستقبل الغرباء والفقراء والمساكين وكل من ألجأه الزمان إلى النزول فيها وألزمته الحاجة إلى البقاء فيها أياما وشهورا أو أعواما، فهؤلاء ضيوف الله" علما أنها كانت تسمى الزاوية دار الضيافة في العهد المريني" يكرّمون ويقابلون بالرأفة والشفقة والعناية. وقد جرت العادة في الزوايا أن لا يوزع الطعام على الطلبة حتى يأكل الضيوف.

كما عملت الزوايا على إزالة الفوارق الاجتماعية بين فئات المجتمع، فجمعت تحت لوائها بين الأغنياء والفقراء، والعلماء والأميين، وشرفاء الأصل وغيرهم حتى لا يبقى بينهم شحناء كما أدت الزوايا دورا بارزا في إنهاء الخلافات والخصومات بين مختلف الفئات والطبقات الاجتماعية وذلك بفضل مركز شيوخها ووجهاهم.

كما أدت دور الحكم وقللت من المشاكل والخصومات بين الناس يعقد مجالس الصلح والتأليف بين قلوب الناس.[2]

---

[1]- يحي بوعزيز، المساجد العتيقة بالجزائر في الغرب الجزائري، ط1، منشورات ANEP، الجزائر، 2002، ص 20.

[2]- المرجع نفسه، ص 21.

الخلاصة:

تعد الزوايا من أهم المؤسسات الدينية التي ساهمت في تفعيل حركة التصوف في الجزائر خلال العهد العثماني . والمتتبع لتاريخ الزوايا والتصوف خلال القرنين 16 و18م يقف على مزايا وظائف مراكز التصوف عبر مختلف مناطق البلد .

الفصل الثالث:

نماذج لبعض الزوايا في الجزائر

لقد مرت الزاوية بعدة مراحل ويعتبر العهد العثماني من أهم المراحل التي بلغت الزاوية فيه أوجها خاصة خلال القرن السابع عشر والثامن عشر، حيث شهد انتشارا واسعا للزوايا خاصة في الغرب الجزائري بحكم قربه من المغرب ونظرا لازدياد الحملات الصليبية على سواحل الغرب الجزائري باعتبار أن الزاوية أصبحت مؤسسة تنشئة اجتماعية ومحضن من محاضن التربية والتعليم ، كانت بمثابة مدرسة وجامعة.

المبحث الأول: زوايا الشرق الجزائري

1. زاوية سيدي عبد المؤمن:

تقع هذه الزاوية بشارع ملاح السعيد، وقد كانت تنفتح على سويقة باب الجابية بأحد الشوارع الرئيسية التي كانت بالمدينة خلال العهد العثماني، والرابط بين باب الجابية وباب القنطرة.[1]

أصل التسمية:

تنتسب هذه الزاوية إلى سيدي عبد المؤمن الذي كان يشغل منصب شيخ الإسلام وأمير الركب الحجازي منذ العهد الحفصي، وبقي في منصبه مع بداية الحكم العثماني بالجزائر إلى غاية اغتياله في 12 محرم 971هـ/4 سبتمبر 1561م، وقد كان سبب مقتله وقوفه في وجه الأتراك، ومنعهم من دخول المدينة، فتحايلوا عليه واستدرجوه إلى معسكرهم وهنالك

[1]- عبد القادر دحدوح، مدينة قسنطينة خلال العهد العثماني – دراسة معمارية أثرية، رسالة دكتوراه في الآثار الإسلامية، الجزائر، 2009-2010، ص 344.

قضوا عليه، وهو من أسرة شريفة وفدت من المغرب استقر بها المقام في بسكرة، ثم انتقل البعض منها إلى قسنطينة[1].

المؤسس:

لقد سجلت الكتابة الأثرية اسم المجدد، وهو السيد صالح خوجة بن مصطفى بن محمد، وهو صهر إحدى حفيدات سيدي عبد المؤمن[2]، أما مؤسسها الأول فمن المحتمل أن يكون سيدي عبد المؤمن الذي سبقت الإشارة إليه.

تاريخ التأسيس:

لقد اختلف الباحثون حول هذا المعلم، فهناك من يقول بأنه كان عبارة عن مسجد للصلاة[3]، في حين يقول البعض الآخر أنه كان زاوية[4]، وكان إلى عهد قريب يعرف بالزاوية القادرية[5]، لكن الكتابة الأثرية التي نقشت على لوحة رخامية في أعلى مدخل الزاوية ترجح الرأي الأخير، وقد كتبت بخط الثلث بأسلوب الحفر البارز نصها كالآتي:

سيدي المباني السعد في أرجائها يبدو الطلعة الزهرة وبإزائها

تحديده يحكي الربيع وزهـــره أو السماء ترصعت بنجومها

---

[1]- محمد المهدي بن علي (شعيب)، أم الحواضر في الماضي والحاضر، مطبعة الشعب قسنطينة، الجزائر، 1980، ص ص 118-119

[2]- معزوز عبد الحق ودرياس لخضر، جامع الكتابات الأثرية العربية بالجزائر، الجزء الأول: كتابات الشرق الجزائري، منشورات المتحف الوطني للآثار القديمة، مطبعة سومر، بئر الخادم، الجزائر، 2000، ص 170

[3]- رشيد بورويبة، قسنطينة، سلسلة الفن والثقافة، وزارة الإعلام والثقافة، الجزائر، 1980، ص 113.

[4]- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، الجزء الأول، دار الغرب الإسلامي، 1998، ص 264

[5]- محمد المهدي بن علي (شعيب)، المرجع السابق، ص 246

نادى لسان الحال جهرا معلنا بأن البنا لصالح من شادهـــا

زاد الله البنا رغما عـــــــلى حساده من تممت بكمالهـــا

جدد هذه الزاوية السيد صالح خوجة بن مصطفى بن محمد ململي يكجري عام ثلاثة وثمانين ومائة وألف[1].

ويفهم من هذا النص بأن هذا المعلم كان زاوية في الأصل، وتم تجديده في 1183هـ/1769م، أما بخصوص تاريخ البناء، فإنه لا يوجد أي أثر تاريخي كان أو مادي يمكن الاعتماد عليه، لكن وبالاعتماد على الشخصية التي تنسب إليها هذه الزاوية وهو سيدي عبد المؤمن فإنه يمكن القول بأنها ترجع إلى النصف الثاني من القرن 10هـ/16م.

الوصف المعماري للزاوية:

***الواجهات والمدخل:**

بنيت زاوية سيدي عبد المؤمن في وسط مجموعة من البنايات، يحدها من الجهة الغربية زاوية سيدي محمد النجار، شمالا تحدها مساكن، في حين بقيت الواجهة الجنوبية والشرقية ظاهرة، ففي الأولى يظهر درج مكون من درجة واحدة، يتقدمها باب بسيط عرضه 1م وارتفاعه 2م، وعلى جانبه باتجاه الشرق فتحت ثلاث فتحات صغيرة في أعلى الطابق السفلي، ويحد هذا الطابق والطابق الذي أعلاه إفريز بارز عرضه 10سم، وفوقه فتحت نافذتان تطلان عل قاعة الصلاة العلوية، وفوقها فتحة أخرى صغيرة، أما الجهة الشرقية تنعدم فيها أية فتحة سواء كانت بابا أو نافذة، أما الجزء الذي يظهر من الناحية الغربية فهو يتمثل

[1]- رشيد بورويبة، قسنطينة، المرجع السابق، ص 114

ينظر أيضا: عبد الحق معزوز، لخضر درياس، المرجع السابق، ص ص 169-170

أساسا في المدخل الذي هو الآخر عرف تجديدات، حيث يبدو أنه شهد توسعه إلى الخارج من هذه الناحية[1].

وللزاوية أيضا مدخل رئيسي في الجهة الغربية، وكما سبق وأن أشرنا أنه عرف توسيعات، حيث يبدو أنه بارز إلى خارج الزاوية بمقياس 1,50م، يحيط به من الطرفين عمودان رخاميان رشيقان، لهما قاعة مثمنة يعلوها بدن مثمن في نصفه السفلي وحلزوني في نصفه العلوي يعلوه تاج مركب ينطلق فوقه عقد مفصص يبدو أنه كان في الأصل في الجدار الداخلي الذي يعقب الباب الأول، وكان محفوفا بهذين العمودين يعلوهما عقد حدوي لازال بارزا إلى اليوم، في وسطه تثبت اللوحة الرخامية المخلدة للتجديدات التي قام بها صالح خوجة بن مصطفى، فتح في ضلعه الشرقي بابا ينفتح على الميضأة وآخر في الجدار الشمالي عرضه 2,30م ينفتح على بيت الصلاة[2].

***بيت الصلاة:**

شكله مستطيل غير منتظم الأضلاع، حيث يقدر طول الجدار الجنوبي 7,90م والشرقي يسير بشكل منحني نسبيا طوله 10,95م يتوسطه محراب تصف دائري، تقع في منتصفه نصف دائرة في شكل هلال يتجه نحو الأسفل، تنطلق منها قبيبتيه بها خمسة تعاريق مشعة نحو عقد الواجهة، ومن الجانبين يكتنف المحراب عمودان غليظان يضل قطر الواحد فيهما إلى 30سم، لهما بدن حلزوني من دون قاعدة ولا تاج يعلوه طنف متدرج بشكل مربع.

[1]- عبد القادر دحدوح، المرجع السابق، ص 346.

[2]- نفسه، ن ص .

أما الجهة الشمالية طولها الإجمالي بشكل9,80م، بها انكسار عند البلاطة الثانية الموازية لجدار القبلة، حيث يوجد بها جدار يبرز إلى داخل بيت الصلاة بـــ1م، فتح في هذا الجدار باب عرضه 80سم[1]، كما يوجد جدار آخر في مؤخرة بيت الصلاة موازي لجدار القبلة طوله 2,5م به سلم صاعد.

ويتشكل بيت الصلاة من رواق يحيط بصحن أوسط من ثلاث جهات، ورواقان في الجهة الرابعة وهي الجهة الجنوبية، والرواق مشكل من دعامات ذات أشكال مختلفة، منها المستطيلة، ومنها المتعددة الأضلاع، تقوم فوق بعضها عقود نصف دائرية يبلغ عددها خمسة عقود.

وتعلو الرواق الغربي ومباشرة خلف الصحن قبة وهي تقوم على حنايا ركنية مثلثة وضعت بشكل مسطح، وهي مزخرفة بدائرة مركزية بها ثلاثة فصوص تنطلق منها نجمتان من 12 رأسا، إحداهما أصغر من الأخرى، تحيط بها دائرة كبيرة تتخللها فصوص من الداخل[2].

***الصحن:**

يتوسط الصحن بيت الصلاة، وهو ذو شكل مستطيل مقاساته 2,40×3,85م.

***الميضأة:**

تقع إلى جانب بيت الصلاة في الجهة الجنوبية، يتم الدخول إليها عبر باب ينفتح على الرواق الذي يتقدم المدخل الرئيسي للزاوية، عرضه 80سم، تتقدمه درجات نحو الداخل هابطة، وقد استحدثت معظم أجزائها.

[1]- عبد القادر دحدوح، المرجع السابق، ص 347.

[2]- نفسه، ص 348.

***التغييرات والتجديدات:**

تعرضت هذه الزاوية إلى تغييرات كبيرة حيث جددت أجزاء من المدخل والميضأة، ودعم جانب من بيت الصلاة بدعائم استخدم فيها الإسمنت، وكسيت جدرانها وأرضياتها ببلاطات عصرية، وبني درج يوصل إلى قاعة الصلاة التي تقع في الطابق العلوي، وقد جددت هذه القاعة حيث فقدت الكثير من ملامح أصالتها[1].

2. زاوية حنصالة:

تقع هذه الزاوية في نهج رواق السعيد رقم الباب 19، في موضع وسط بين الطريق الرابط بين الجامع الكبير ورحبة الصوف .

أصل التسمية:

لقد كانت تعرف هذه الزاوية باسم زاوية حنصالة وزاوية النجارين، فأما بالنسبة للاسم الثاني فهو نسبة إلى سوق النجارين الذي عليه الزاوية خلال الفترة العثمانية، أما الاسم الأول مأخوذ نسبة إلى الطريقة الصوفية التي كانت تتبعها والمتمثلة في الطريقة الحنصالية[(2)].

وقد ورد الاسمان إما مفردان أو معا، جاء ذكر اسم زاوية حنصالة في كل من القائمة التي حققها الأستاذ عميراوي والتي ترجع إلى بداية الاحتلال الفرنسي[(3)] وقائمة مرسي

---

[1]- عبد القادر دحدوح، المرجع السابق، ص 349.

[2]- طريقة إخوان حنصالة أسست على مشارف قسنطينة بالجبل القريب من المدينة المسمى بشطاية، مؤسسها هو سيدي يوسف الحنصالي.

ينظر: إدوارد دونوفو، الإخوان، دراسة إتنولوجية حول الجماعات الدينية عند مسلمي الجزائر، ترجمة وتحقيق: الدكتور كمال فيلالي دار الهدى للطباعة والنشر، 2003، الجزائر، ص 75

[3]- أحمد عميراوي، دراسات في تاريخ الجزائر الحديث، دار الهدى، الجزائر 2004، ص ص 142-143

(Mercier)[1]، كما جاء ذكر اسم زاوية النجارين منفردا في القائمة المرفقة بدفتر أوقاف صالح باي[2].

الوصف المعماري:

الواجهات والمداخل:

الزائر لزاوية حنصالة يلاحظ أنها تقع ضمن المباني المحيطة بها من أربع جهات ولا يظهر منها إلا جزء يوجد في الجهة الشمالية من الجزء القبلي، حيث يقع المدخل، وفيه تبرز فتحة مستطيلة بمقياس (1,40×2,20م) تنتهي بلوح خشبي في وجهه الداخلي، كما زخرفت الواجهة الخارجية لنفس اللوحة بكتابات بخط النسخ نصها كما توضحه .

بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على سيدنا محمد

زاوية حنصالة

﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾[3]

وفي أعلى اللوح يوجد عقد منكسر محفور في الجدار بـــ12سم نقشت بداخله كتابة جصية تحيط بها زخارف نباتية في شكل أوراق ومراوح نخيلية بشكل مثلث، والكتابة جاءت بخط نسخي نصها كالآتي:

[1]- E. Mercier, Constitution avant la conquête, 1903, pp 91-92

[2]- L. Ferdaud, Les anciens établissements religieux musulmans de Constantin, p130

[3]- سورة النساء، الآية 102.

﴿فِي بُيُوتٍ

أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ

وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ

يُسَبِّحُ

لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾[1].

بيت الصلاة:

يقع بيت الصلاة إلى جنوب من الصحن، وهو في شكل قاعة مستطيلة تمتد عموديا على جدار القبلة، يتراوح عرضها بين 4,11 و4,40م، وطولها يصل إلى 7,65م، يتم الدخول إليها عبر باب (1,21×2,24)، في منتصف ضلعها الشمالي الشرقي ينفتح على الصحن، وعلى يمينه ويساره نافذتان شكلهما مستطيل يكسوهما شباك خارجي، وفي منتصف، وفي منتصف الضلع الجنوبي الشرقي يوجد محراب عرف عدة تغييرات وذلك بعد أعمال الترميم التي تعرضت لها الزاوية والمحراب في وضعه الحالي عبارة عن تجويفة نصف دائرية عمقها 0,60م وعرضها 1,10م، وارتفاعها 1,66م ينتهي بقبيبة نصف دائرية خالية

[1]- سورة النور، الآية 36.

من الزخارف، يحف به من الجانبين عمودان يعلوهما عقد جصي، وهي كلها مستحدثة حسب رواية إمام الزاوية[1].

الصحن:

يتوسط الصحن بين الميضأة وبيت الصلاة ذو شكل مستطيل عرضه يتراوح بين 5,15 و5,90م، طول ضلعه الجنوبي الغربي 7,32م والشمالي الشرقي 8,16م.

وفي الجزء الشمالي الغربي يوجد رواق مشكل من ثلاثة عقود مدببة تقوم على دعامات مربعة عرفت هي الأخرى تغييرات عديدة بفعل عمليات الترميم.

التغييرات والتجديدات:

تعد التغييرات والتجديدات التي تعرضت لها هذه الزاوية قليلة مقارنة بالزوايا الأخرى المتواجدة بقسنطينة، فقد غيرت الأبواب الخشبية، والصحن تم تغطيته وتسقيفه، كما تعرض المحراب إلى تغييرات في واجهته التي استبدل فيها العمودان والعقد الذي يعلوهما وما يتصل به من زخارف.

3. زاوية بن عبد الرحمن:

تقع بحومة الشارع من حي باب القنطرة، وهي تنفتح على شارع رئيسي كان يربط بين سوق التجار ورحبة الصوف وباب القنطرة، يعرف حاليا بشارع الإخوة عرفة.

[1]- عبد القادر دحدوح، المرجع السابق، ص 352.

أصل التسمية:

لقد ورد ذكر هذه الزاوية في مختلف الوثائق والنصوص التاريخية بصيغتين، الأولى زاوية بن عبد الرحمن[1]، والثانية باسم زاوية باش تارزي[2]، نسبة إلى مؤسسها الشيخ عبد الرحمن باش تارزي القسنطيني، لكننا لا ندري سبب تسميتها بزاوية بن عبد الرحمن على الرغم أن مؤسسها الحقيقي اسمه عبد الرحمن.

تاريخ التأسيس:

لا يوجد تاريخ محدد لبناء هذه الزاوية إلا أنه من المؤكد أنها ترجع إلى أوائل القرن 13هـ أواخر القرن 18م، فقد ورد ذكرها في المجلد الثاني من سجلات المحكمة الشرعية في عقد مؤرخ بـ1 محرم 1209هـ/29 جويلية 1794، وفي عقد آخر بتاريخ 1 صفر 28/1209 أوت1794، وحتى الكتابات الأثرية التي تحتويها هذه الزاوية لا تشير إلى تاريخ البناء، ولعل أقدم تاريخ منقوش بها مؤرخ سنة 1221هـ/1806م وهي السنة التي توفي فيها المؤسس الشيخ سيدي عبد الرحمن باش تارزي[3].

[1]- سجلات المحكمة الشرعية بقسنطينة.

[2]- هو الصوفي الكبير والمربي الشهير عبد الرحمن بن أحمد بن حمودة بن مامش باش تارزي الجزائري المنشأ، القسنطيني دارا، هو تلميذ الشيخ محمد بن عبد الرحمن الأزهري صاحب الطريقة الرحمانية، وهو صاحب الزاوية الرحمانية بقسنطينة، من مؤلفاته عمدة المريد في بيان الطريقة ومنظومة الرحمانية، توفي رحمه الله سنة 1221هـ الموافق لـ1806
ينظر: صلاح مؤيد العقبي، الطرق الصوفية والزوايا بالجزائر، دار البصائر، 2009، ص 492

[3]- عبد القادر دحدوح، المرجع السابق، ص 355.

الوصف المعماري للزاوية:

الواقف أمام الزاوية يلاحظ مدخلا رئيسيا يقع وسط الجدار الغربي ينفتح على صحن حوله رواق من ثلاث جهات، في شماله توجد الميضأة، في شرقه كانت توجد ثلاث قبور.

ومن الصحن يمكن الدخول إلى بيت الصلاة عبر بابين يتكونان من مصراعين الأول (1,07×2,15م) ينفتح على البلاطة الأخيرة والثاني (1,40×2,30م) ينفتح على الوسطى، إذ يزين واجهة البابين عقد مفصص تتخللها في الباب الأول أربع دوائر، نقش كل واحدة منها اسم من أسماء الخلفاء الراشدين الأربعة "أبو بكر" و"عمر" و"عثمان" و"علي"، وفي فتحة عقدة المربع نقشت فيه بالخط الكوفي عبارة "بركة محمد".

وفي أعلى هذا الباب لوحة رخامية نقش فيها اسم الجلالة "الله" و"محمد"، بينهما هلال ونجمة وتوجد في أسلفهما الآية الكريمة "نصر من الله وفتح قريب إن الله هو الرزاق".

أما بيت الصلاة ذو شكل قريب من المربع (8,70×8,45م) شكلت منه أربع خزائن جدارية، وفي الجدار الجنوبي الغربي فتحت نافذتان (0,90×1,30م) تنتهيان بعقد نصف دائري، كما فتحت نافذة مقاسها (1,27×1م) بالجدار الشمالي الشرقي تطل على الضريح، أما الجدار الجنوبي الشرقي يتوسطه محراب نصف دائري عمقه 55سم وعرضه 97سم وارتفاعه محراب 2,10م. وإلى اليسار من المحراب في الجزء الشمالي الشرقي يوجد ضريح مؤسس الزاوية، ويعلو القبر تركيبة خشبية مستطيلة الشكل (1×2م) وارتفاعها 1,30م.[1]

[1]- عبد القادر دحدوح، المرجع السابق، ص 358.

التغييرات والتجديدات:

عرفت هذه الزاوية تجديدات جذرية لم يسلم منها إلا بيت الصلاة، وقد مس التجديد الصحن والميضأة واستحدث طابق ثاني بهذه الجهة، وبنيت المئذنة، كما شهد بيت الصلاة بعض التغييرات يسيرة، كذلك الشأن بالنسبة للمحراب تعرض لبعض التجديدات.

المبحث الثاني: زوايا الوسط الجزائري

زاوية سيدي موسى (تينبدار):

تقع هذه الزاوية في قرية تينبدار بأعالي سيدي عيش أسسها سيدي موسى في أواخر القرن10هـ/16م[1]، وسيدي موسى أحد العلماء الذين يرجع نسبهم إلى المرابطين وقدم إلى المنطقة من بجاية أين تلقى تعليمه.

وكانت الزاوية محلا يقصده الطلبة من كل المناطق خاصة من الشرق الجزائري، ولقد بلغ لها عدد الطلبة في بعض الأعوام ما بين 150 إلى 200 طالب، وقد مارست وظيفتها كزاوية متخصصة في تعليم القرآن وعلوم الفقه خاصة فقه سيدي خليل وبن عاشر، وذلك منذ تأسيسها إلى غاية دخول الاستعمار الذي حولها إلى ثكنة عسكرية، ثم سرعان ما استرجعت وظيفتها بعد الاستقلال مباشرة[2].

ومما ينبغي الإشارة إليه حسب معلومات مستقاة من شيخ الزاوية حاليا أن العديد من المؤلفات والمخطوطات ضاعت من الزاوية وذلك بفعل الاستعمار وما تعرضت له من نهب وسرقة لهذه النفائس شأنها في ذلك شأن معظم الزوايا الريفية في بلاد القبائل[3].

---

[1]- محمد نسيب، زوايا العلم والقرآن في الجزائر، دار الفكر، ص 23.

[2]- عزوق عبد الكريم، المعالم الأثرية الإسلامية ببجاية ونواحيها (دراسة أثرية)، أطروحة لنيل شهادة دكتوراه دولة في الآثار الإسلامية، الجزائر، 2007-2008، ص 93

[3]- معلومات مستقاة من شيخ الزاوية حاليا.

الوصف المعماري للزاوية:

أما من الناحية المعمارية لزاوية سيدي موسى، فهي عبارة عن معهد علمي كبير يتكون من عدة ملاحق، ويتم الدخول إلى الزاوية عن طريق مدخل يؤدي إلى رواق مسقوف، يعلو المدخل في الطابق العلوي قاعة كبيرة كانت تستعمل للتدريس.[1]

[1]- عزوق عبد الكريم، المرجع السابق، ص 94.

المبحث الثالث: زوايا الغرب الجزائري

على غرار شرق ووسط الجزائر لم يتخلف الغرب هو الآخر عن الركب الثقافي حيث عرف انتشارا واسعا للزوايا والمدارس، دور التعليم، وفي هذا الصدد يقول الدكتور يحي بوعزيز كان الغرب الوهراني يعج بطرق صرفية كثيرة وزوايا عديدة، تثير الدهشة والاستغراب لمن لا يعرف تاريخ وهذه الجهة بالذات وذلك بسبب قربها من المغرب الأقصى وطول صراعها مع النصارى الإسبان.[1] خاصة منطقة معسكر وتلمسان ومستغانم وحوض الشلف وضواحيها، بالإضافة إلى العديد من الأضرحة التي بنيت تخليدا للأولياء والصالحين ورجال التصوف.

ولعل من أشهر هذه الزوايا التي ذاع صيتها محليا ووطنيا زاوية سيدي بومدين بتلمسان وزاوية عين الحوت وزاوية سيدي بن عمر، زوايا إقليم الراشدية أي معسكر أبرزها زاوية الكرط والقيطنة اللتين انجبتا، العديد من العلماء ورجال التصوف أشهرهم عائلة المشارفة والشيخ أبي راس الناصري الذي ترك العديد من المؤلفات والكتب في شتى فنون المعرفة والتي مازالت لم تحقق الكثير منها. كما اشتهرت نواحي الشلف بزاوية الشيخ محمد بن علي المحاجي المعروف بأبهلول "بنواحي تنس المدينة التاريخية الشهيرة.

فيما يتعلق بزوايا بايلك الغرب موضوع الدراسة فإن الإحصائيات أثبتت أن عدد الزوايا والأضرحة كان يفوق بكثير ما كان عليه بايلك الشرق، وحسب الأستاذ بونقاب مختار يرجع ذلك لأسباب عديدة أهمها:

[1] – يحي بوعزيز، كتاب ملتقيات الفكر الإسلامي، محاضرات ودراسات عن الحياة للروحية في الإسلام الجزء الرابع، منشورات وزارة الشؤون الدينية والأوقاف، ديسمبر 2005، ص 131.

- استمرارية حركة الجهاد في الأيالة مقارنة بالإقليم الشرقي.

- قرب المنطقة الغربية من المغرب الأقصى سبقت الإشارة إلى ذلك نظرا لاشتهار الغرب بطرق صوفية وزوايا كثيرة.

مرور بنجاح الغرب الأقصى على المنطقة ذهابا وإيابا أثناء رحيلهم إلى أداء فريضة الحج.[1]

ففي تلمسان ونواحيها وجدت أكثر من ثلاثين زاوية خلال أواخر العثماني، وعدد لنا الأستاذ أبو القاسم سعد الله عدد الزوايا بتلمسان "زاوية سيد بومدين، زاوية محمد السنوسي، زاوية أحمد الغماري، وزاوية عين الحوت، سيدي الحلوي الأندلسي، وزاوية سيدي بن عمر بنواحي ندرومة.[2] أما فيما يتعلق بمعسكر فنسجّل زاوية القيطنة التي هي تعد من أشهر الزوايا الريفية وكانت أصبحت محجة للزوار والطلبة.[3]

هذا إلى جانب زاوية أبي راس الناصري التي تقع في وسط مدينة معسكر، وزاوية بوسكرين في حي بابا علي وزاوية أكرط التي أنجبت العديد من العلماء أشهرهم عبد القادر المشرفي أحد شيوخ أبي راس الناصري. أما مازونة اشتهر ت بزاوية سيدي بللوش، تقع في أولاد سلامة على مرتفعات الظهرة، وزاوية عدة غلام الله في وسط جبال الظهرة.[4]

[1]- بونقاب مختار، الحياة الثقافية في بايلك الغرب خلال القرنين 18 و19م، أطروحة دكتوراه في التاريخ المعاصر، جامعة سيدي بلعباس، 2015-2016، ص 76.

[2]- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، الجزء الأول، (1500-1830)، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، 1998، ص268.

[3]- نفسه، ص 268.

[4]- بونقاب مختار، المرجع السابق، ص 77.

أولا: زاوية عين الحوت: نشأتها وتطورها

1) زاوية عين الحوت مقاربة سوسيوتاريخية:

إن مقاربة الظاهرة الصوفية في تاريخها تستدعي تحليلها من حيث ظروف نشأتها وتطورها وانتشارها داخل المجتمع الجزائري عموما والتلمساني خصوصا. كما تتطلب الكشف عن طبيعة تحوّلها من مسألة فردية وممارسة تعبدية روحية تربط الإنسان بخالقه إلى ظاهرة اجتماعية شكلت تجسيدا لعلاقة اجتماعية تربط المتصوفة بالمجتمع. وفق هذا التصوّر يمكن العودة إلى المجتمع لمحاولة فهمه في تاريخه على أن التصوّف قد ندركه كجزء لا يتجزأ من هذا التاريخ. ولمعرفة حيثيات هذا الموضوع والإلمام ببعض جوانبه على الأقل في سياقه التاريخي قررت أن احدد الإطار الزماني والمكاني للبحث ربحا للوقت والجهد وفق الخطّة التالية:

-مدخل

- لمحة تاريخية عن زاوية عين الحوت.

-تعريف الزاوية وتمظهراتها في الجزائر

-الإشعاع العلمي والروحي للزاوية.

مدخل:

لقد ظهر التصوّف في الجزائر أو ما يعرف قديما بالمغرب الأوسط مع بداية القرن السادس الهجري 12م، حيث كان تصوّفا نظريا ثم تحوّل مع القرن العاشر هجري 16م، حيث توجه نحو الجانب العملي فأصبح وقتئذ يطلق عليه تصوّف الزوايا والطرق الصوفية موضوع دراستنا، وقد ظل التصوّف العملي سائدا في جميع أنحاء المغرب الإسلامي حتى بعد سقوط الدويلات الثلاث (الزيانية والحقصية والمرينية) ودخول الأتراك العثمانيين.

لقد نشطت حركة التصوّف وازدادت الطرق الصوفية والزوايا في الجزائر خاصة خلال القرنيين 17م و18م في بايلك الشرق وبايلك الغرب ومعظم هذه الطرق الصوفية أصلها إما المشرق أو المغرب، وتعد الطريقة القادرية التي أسسها الشيخ عبد القادر الجيلاني أو الجيلالي أو الكيلاني سبق لنا ترجمته في الفصل الأول. دفين بغداد من أقدم الطرق الصوفية التي ظهرت في الجزائر حيث لقب سلطان الأولياء وقطب الأقطاب والغوث أما صلته بالجزائر أي عبد القادر الجيلاني أصلها الشيخ أبي مدين شعيب قدس الله سرّه التقى به أي الشيخ الجيلاني في جبل عرفات وجعله تلميذا له و ألبسه الخرقة أو الرقعة لباس يرمز خلعه على صاحبه عند أهل الصوفية إلى تلقي أسرار العرفان والانقطاع إلى الحياة الروحية.[1]

وعند لبس الخرقة يلحق السالك الصوفي بسلسلة أسانيد المسمى عندهم بـــ "شيخ الطائفة".

[1]- د. محمد الكحلاوي، الفكر الصوفي في إفريقية والغرب الإسلامي، دار الطليعة للطباعة والنشر، الطبعة الأولى 2009، ص 80.

فالإمام الحسن البصري، فعلي بن أبي طالب كرّم الله وجهه، فالرسول صلى الله عليه وسلم. وتفرعت عن الطريقة القادرية باقي الطرق الأخرى مازالت موجودة إلى يومنا هذا كالطريقة الدرقاوية ومؤسسها مولاي العربي الدرقاوي المغربي والطريقة العيساوية والطيبية واليوسفية والجازولية وغيرها من الطرق، هذا يدل على مدى تأثر الفكر الجزائري خصوصا بتعاليم الطريقة الشادلية نسبة إلى أبي الحسن الشادلي والتي هي في الحقيقة لا تتعارض البتة مع الكتاب والسنة في شيء إلا ما حدث من انحراف على هذه الطريقة أو غيرها أو دخلها من بدع وخرافات لا تمت بصلة إلى الفكر الصوفي المعتدل.

أما فيما يخص النشاط في العصر العثماني وحسب الدكتور أبو القاسم سعد الله أن تلمسان فقدت كثيرا من سمعتها خلال العهد العثماني[1] ولا تكاد المؤسسات الثقافية خلال العهد المذكور تخرج عن المسجد والمدرسة والزاوية، واشتهرت تلمسان ونواحيها أيضا بزواياها وأضرحة الصلحاء ومقامات الأولياء، مثل حرم أبي مدين شعيب وسيدي الحلوي وسيدي الداودي وزاوية عين الحوت ومقام سيدي عبد الله بن منصور، وسيدي محمد بن علي وغيرهم كثير لا يسع المجال لذكرهم جميعا، وتذكر الإحصاءات أن عدد الزوايا والمقامات ونحوها كان يفوق عدد المساجد والمدارس، فقد كان بتلمسان ونواحيها أكثر من ثلاثين زاوية في أواخر العهد العثماني.[2]

[1]- د. أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، الجزء الأول، (1500-1830)، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، 1998، ص 176.

[2]- نفسه، ص-ص: 266-267.

كما كان التعليم منتشرا تبعا لذلك في المساجد والزوايا وبعض المدارس، حيث تقام فيها حلقات الدروس أو مجالس الإفتاء، فكان كل شيخ مشهور سواء في المدرسة أو الجامع أو الزاوية هو المرجع أو السند الذي يلتف حوله طلبة العلم وينهلون من بحره روحيا وعقليا.

مجمل القول أن العصر العثماني في الجزائر على حد قول الأستاذ أبو القاسم سعد الله هو عصر التصوّف بامتياز.

لمحة تاريخية عن زاوية عين الحوت:

إن المتأمل في الموقع الفلكي لمنطقة عين الحوت،* أو كما كانت تسمى قرية العلويين منثلما وردت في كتاب البستان في ذكر أولياء تلمسان لابن مريم يؤكد أنها من التجمعات السكانية العريقة ضاربة جذورها في التاريخ الغابر للمنطقة فهناك من يذهب أن للمنطقة أكثر من 12 قرنا. فإن قورن موقع عين الحوت بموقع تلمسان الذي أشاد به الكثير من المؤرخين والشعراء لوجدناهما متشابهين إلى حدّ ما تنظران إلى الشمال مستقبلتان الهواء البحري الرطب المحمّل بالأمطار وهي محمية من التيارات الهوائية الجافة الآتية من الجنوب.

* – عين الحوت هي القصبة الجديدة التي أنشأها محمد بن سليمان لتكون مقرا له قرب العاصمة تلمسان لأن سور تلمسان قد أصابه عطب نتيجة فتنة (199-201هـ) فتم إخراج القصبة إلى عين الحوت و لم تزل تلمسان دار العلماء والمحدثين وحملة الرأي على مذهب الإمام مالك بن أنس رحمه الله مثلما ذهب إليه المؤرخ المغربي البكري في كتابه المغرب في بلاد إفريقية والمغرب، ص ص 76-77.

وإذا كانت عين الحوت محمية أكثر من تلمسان فهي نوعا ما معزولة عن الطرق والمسالك وهو الأمر الذي جعلها تحظى باهتمام العلماء والصلحاء والزهاد حتى أصبح اسمها عنوانا للورع والعبادة والاعتكاف[1].

إن هذه المنطقة التي أثبتت حضورها الفعلي منذ الفترة الرومانية برهنت على قدراتها في استقطاب العديد من الوجوه الخيرة مع الفتوحات الإسلامية وصارت منذ القرن 2هـ/ 8م محط اهتمام أولي الأمر ومنهم آل بيت الرسول صلى الله عليه وسلم وعلى وجه الخصوص السليمانيين نسبة إلى سليمان بن عبد الله الكامل أخ إدريس الأول الذين استقروا في المغرب الإسلامي فرارا من اضطهاد الأمويين لهم.

الزاوية وتمظهراتها في الجزائر:

لقد تبين أن الخطاب الصوفي ليس طفرة في الكتابة ظهرت من فراغ أو أحسن أحوالها كانت نتاج الزوايا، فقد عاش معظم المتصوفة يبثون عقائدهم فإذا اشتهر أحدهم بين الناس يؤسس له مركز يستقبل فيه الزوّار والغرباء والأتباع ويعلم فيه الطلبة والمريدين ويتبرّع الناس بهذا المركز فيكبر ويتضاعف قصّاده ومريدوه ويصبح اسم المتصوّف (المرابط) علما على المكان ويصبح المكان يدعى بين الناس زاوية سيدي فلان فإذا مات صاحبها يدفن في الزاوية أو يصير الضريح علامة على الزاوية.[2]

إن الزاوية في الأصل هي ركن البناء وكانت تطلق في بادئ الأمر على المسجد الصغير أو المصلى، كانت تعرف في المشرق بالخانقاه وهو لفظ أعجمي جمعه خانقوات.

[1] -Expériences du divin dans l'Algérie contemporaine adaptes des saint de la région de Tlemcen. Sossie Andezien, CNRS Edition, Paris 2001, P65-66.

[2] – أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص 263.

وقد ظلت الزاوية منذ تأسيسها مركزا لإطعام الطعام وإغاثة الملهوف ونصرة المظلوم وإصلاح ذات البين. وتقديم الصدقات والهبات ورعاية الأيتام لذا أصبح الإطعام من خصوصياتها وميزة عامة لحياة روّادها وسلوكا صوفيا يحتدى به المريد بعد شيخه حتى يبلغ الأمر درجة اعتبر فيها الإطعام رمزا لكرامة صاحبها تمنحه سلطة رمزية بسبب كثرة المستفيدين منه، تحولت إلى مؤسسة اجتماعية لرعاية المحتاج وعابر السبيل[1] فكان من الضروري أن تكون لزاوية عين الحوت أملاكا خاصة بها أو محبسة عليها تستثمرها للوفاء بهذه الالتزامات وخدمة الصالح العام وللتوسع في الحصول على الصدقات والهبات والزيارات. فاستطاعت زاوية عين الحوت بوظيفتها هذه أن تحوّل استقطاب المحتاجين إلى جاذبية الشيخ ومقره مثلما حدث مع عائلة آل منصور أو ابن منصور وأشهرهم على الإطلاق سيدي عبد الله بن منصور وحفيده سيدي محمد بن علي وصل كل هذا في سياق حركة منظمة محكومة بها حس التبرك والزيارة وما يستلزمانه من طقوس وعطاءات مادية.

علما بأن العهد العثماني ارتبط بظاهرة تقديس المقابر والزوايا والأضرحة، فهذا الاحترام والتقديس لا يمكن أن تطاله السلطة العليا وهذه القداسة والمكانة الروحية هي التي انعكست على شخصية الولي سيدي محمد بن علي (1680م- 1757- أو 1761).

هذا و لم تقتصر زاوية عين الحوت على وظيفة الإطعام بل ثمة وظائف أخرى ساهمت بدورها في تقوية رصيدها الزمني الرمزي، فالزاوية عموما هي في الأصل مركزا للتعليم والوعظ، فقد تمكنت زاوية عين الحوت من مقروئيتها وموادها المدرسية: فقه الفرائض- مختصر خليل والقرآن وعلومه، صحيح البخاري، التوحيد خاصة كتاب أم البراهين للشيخ

[1]- محمد بن الطيب إسلام المتصوفة، دار الطليعة، بيروت، الطبعة الأولى، 2007، ص 160.

محمد بن يوسف السنوسي، كذلك علوم النحو ألفية مالك وشرحها إلى جانب الرياضيات والطب والتاريخ.

فأصبحت زاوية عين الحوت مهدا للعلم والمعرفة وفاض علمها على ضواحيها، حيث كانت تمثل همزة وصل بين عدة مراكز إسلامية خاصة بين مدينة مازونة وجامع القرويين بفاس، وحسب الأستاذ بن منصور عبد الرحيم في كتابه عين الحوت مهد بني سليمان أوّل ملوك تلمسان سميت عين الحوت بالأزهر الصغير* وندرومة بالقرويين الصغير وبني سنوس بالزيتونة الصغيرة.[1]

وقد حرص الشيوخ المقدمين للتربية الصوفية والتعلم على تطوير أدائهم وبلورة هذا الأداء في صورة تلقين مجسد لشخصيتهم الصوفية القائمة على سمات البركة.

* – سميت عين الحوت بالأزهر الصغير دليل على كثافة علمائها وخبرتهم في علوم المعقول والمنقول، نفسه، ص 83.

[1] – عبد الرحيم بن منصور، عين الحوت مهد بني سليمان أول ملوك تلمسان، نشر ابن خلدون تلمسان، طبعة 2011، ص83.

المجال المقدس أو حرم الزاوية:

من الوظائف التي شكلت ركيزة أساسية في تمثل زاوية عين الحوت للسلطة الرمزية وظيفة الحرم[1] أو المكان المقدس. فقد مارست الزاوية على الدوام هذه الوظيفة الحسّاسة حتى صارت في الاعتقاد الشعبي سلطة لا تنازعها في ممارستها أي سلطة أخرى، ذلك الذي تعكسه على الدوام طبيعة وحجم وثقل الضريح والولي.[2]

إنه حسب طبيعة وحجم امتداد الزوايا فإن القداسة والحرمة تفرض ذاتها.

وقد أثبتت الممارسة أن مجال الزاوية وبالخصوص ضريح وليّها ظل مجالا حرما وملاذا آمنا لكل معتصم مهما كانت دواعي التجائه واعتصامه والحرم في عرف زاوية عين الحوت لا يقتصر على ضريح الولي بل شمل كل حدود الزاوية وأحيانا مجالات نفوذها إذ تعتبر مسألة الحرم في نظر الشيوخ من مكونات الزاوية المقدسة والتي لا يجب المساس بها أو تجاوزها.[3]

ومن أشهر الأشخاص الذين لجؤوا إلى حرم الزاوية عين الحوت الشاعر الشعبي المشهور محمد بن مسايب الذي عاش بتلمسان وتوفى 1768 أي في فترة الوجود العثماني،

---

[1]- يقال حرُم الشيء (من باب كرُم) حرْمًا وحُرمة وحراما كما يقال حرم (من باب فرح) والحرم الحرام، وهما نقيضا الحل والحلال وجمعه حُرُم بضمتين والحرم (محرّكة) والمحرّم: حرم مكة، وهو حرم الله وحرم رسوله ويشمل مكة وما أحاط بها إلى قرب والحرمان مثنى الحرم، وهما مكة والمدينة، للمزيد حول الموضوع راجع: الزبيدي أبو الفيض محمد بن محمد بن عبد الرزاق لحسيني (الحنطي)، تاج العروس من جواهر القاموس، دار الهداية، د.ت، دار صادر بيروت، د.ت، مادة " ح ر م"، ص 452.

[2]- شحاتة صيام الولي والمقدس مصر العربية للنشر والتوزيع 2010، ص 89.

[3]- محمد المازوني، وظائف الزاوية الأنترنت، تاريخ الولوج 2017/07/15 في الساعة 14 و05، الرابط: . Onfesse.org

حيث ألف قصيدته المطوّلة حول الأولياء خلال مقامه بحرم عين الحوت فرارا من عقاب الأتراك مطلعها "يا أهل الله غيثوا الملهوف"

نحاول أن نقتبس منها هذه الأبيات التي تشير إلى صلحاء عين الحوت وهي:

وِينْ أَهْلْ اللهْ كُلْهُـــــمْ وَعَسَى تَحْضَرْ بَرَكَتْهُـــــمْ

تَحْضَرْ لَنَا غَايَتْهُـــــمْ نَدْرَكْ الشَّيء اللِّي دَرْكُـــوهْ

وِينْ أَهْلُ اللهِ بِالجُمْلَـــــةْ شَرْقْ وَغَرْبْ وَجَوْفْ وَقَبْلَــةْ

مَنْهُمْ سِيدِي عَبْـــــدَ اللهْ التُّهَامِي الحَسْنِي سَبْطُـــــهْ

وِينْ الحُوتِي بَنْ مَنْصُـــورْ صَاحِبْ البُرْهَانْ المَذْكُـــورْ

المْسَلّكْ مَنْ هُوَ مَيْسُـــورْ فِي يَدْ الأَعْدَاءْ بَعْدَ أَنْ قَبْضُوهْ

قُلْ مَنْ ذَا السَّاعَةْ مَنْ يَقْصُدْ بَنْ عَلِيْ سِيدِي مُحَمَّـــدْ

مَنْ ادْخَلْ حُمَاهْ وَسْنَـــدْ يَتْحَرَّرْ اللهْ ضَمْنَـــــهْ

شهْدَتْ لَهُ النَّاسْ بِالبُرْهَانْ وَاشْتَهَرْ خَيْرَهْ وَاضَـــحْ بَانْ

شَاعَتْ أَخْبَارَهْ فِي البُلْدَانْ قَالُوا لَوْ صُبْنَـــــاهْ نْزُورُوه

كُلْ مَنْ زَارْ يَاسَـــادَاتْ مَا يْرَوَّحْ بْـــلاَشْ هَيْهَـــاتْ

بِهْ عَيْنْ الحُوتْ اتهَنَّـــاتْ أَلْطَفْ اللهْ بِهِـــمْ حَمْـــدُوهْ

كتب ابن مسايب هذه القصيدة عندما كان لاجئا في حرم عين الحوت سنة 1160/ 1753م حيث كان وقتها سيدي محمد بن علي على قيد الحياة.[1]

لقد وظّف الشاعر محمد بن مسايب في هذه القصيدة المطولة "يا أهل الله غيثوا الملهوف" المفردات والعبارات الصوفية التالية:

(الغوث) (أهل الله) (البركة) (بركة أهل الله) (القطب) (الحضور) أي حضور الولي (السر) (التصوف) (أهل التصوف) (أولياء الله) (الزيارة) (الشريف) (صاحب الحكمة والبرهان) (أهل الذوق) (أهل الحال) (العارف).

في هذه القصيدة المطوّلة نستشف مدى تبحر محمد بن سايب في معرفة الأولياء والصالحين من الصوفية حيث يذكرهم بأسمائهم وصفاتهم.[2]

كما يتحدث بن مسايب في هذه القصيدة عن الشرفة وهم المنتسبون إلى آل البيت رضي الله عنهم وهم عثرة النبي صلى الله عليه وسلم منوّها بخصوصياتهم من جهة قرابتهم من النبي الكريم وما خصّهم الله تعالى من الآيات الكريمة الدالة على عظم شأنهم وعلوّ مكانتهم.

منها قوله تعالى ﴿رَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾.[3] وقوله جلّ شأنه ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ أَنْ يُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾.[4]

---

[1]- عبد الرحيم بن منصور، عين الحوت مهد بني سليمان، مرجع سابقن ص ص: 111-113.

[2]- بوزوينة اسماعيل، تمثلات الاغنية الشعبية لشخصيات الأنبياء والرسل والأولياء الصالحين ، دراسة تحليلية ، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في الأغنية الشعبية الجزائرية ، تلمسان 2015-2016، ص94.

[3]- سورة هود، الآية 73.

[4]- سورة الأحزاب، الآية 33.

كما أن لرجال عين الحوت في الذاكرة الشعبية مقاما مقدسا وقيمة لارتباطها بالأصل والتاريخ فقد كانوا في الأصل رؤساء زوايا ومؤسسين لها كما عرفوا بالتقوى والتصوف ومنهم سيدي عبد الله بن منصور وسيدي محمد بن علي أشهر أولياء عين الحوت حيث تحيط بها هالة من التقديس والتبجيل من قبل السكان والزائرين لمقاميهما، فقد كان يتردّد عليهما عامّة النّاس حتى الحكّام الذين كانوا يحترمونهم ويبجلونهم فأسقطوا عنهم حتى الضرائب وذلك بموجب صدور مرسوم نص على احترام الشرفاء من آل منصور لذا كان الكراغلة والمولدين يتسابقون من أجل مصاهرة آل منصور.

وما زال إلى يوم الناس هذا مفاهيم محفوظة سرا وعلانية وأحفادهم محافظين على راس المال الرمزي لإرث الأجداد. فظاهرة رؤساء الزوايا مازالت مستمرة ومازال لها وزن في المجتمع.[1] ويعتبر شيوخ وعلماء عين الحوت أعيان المدينة، يحكمون في أمور الأمة وينظمون حياة المواطنين لا يخرج عن طاعتهم أحد، يحترمهم الكبير والصغير، الرجل والمرأة، ويأخذ برأيهم الجميع ويقبلون نصحهم. فالناس يثقون بهم ويحترمونهم لما لهم من بصيرة وخبرة وكفاءة واطلاع ودراية بشؤون الحياة، حيث يستشيروهم في كل صغيرة وكبيرة في الزواج والطلاق، في المصاهرة في البيع والشراء من خلال توسطهم في حل خلافات الناس والخصومات بين مختلف القبائل والفئات وطبقات المجتمع بفضل رجاحة عقل الشيوخ والعلماء.

[1]– بن علي نصيرة، رسالة شيخ الزاوية، دراسة أنثروبولوجية في التصورات والطقوس، زاوية شيخ البشير نموذجا، مذكرة لنيل شهادة الماجستير ، علم الاجتماع، جامعة وهران، 2007-2008، ص 69.

الإشعاع العلمي والروحي للزاوية:

قامت زاوية عين الحوت بوظائف تعليمية وعلمية هامة. هذا إلى جانب نشاطها الصوفي الذي اشتهرت به، إلا أن مساهماتها الفكرية ظلت حبيسة المخطوطات والوثائق الدفينة. أما عن الدور الإيجابي والمشرق حقا في حياة المرابطين والطرق الصوفية يقول الأستاذ العيد مسعود فهو بلا منازع الدور التعليمي وسيما في الريف الجزائري، فقد قامت بوظيفة التعليم في عهود لم يكن فيها للتعليم من يتولاه ويشرف على ويتولاه ويواصل قائلا: فأنيرت الزوايا وخاصة في العهد العثماني للاضطلاع بهذا الدور، فانتشر التعليم على نطاق واسع في الريف مما أحدث توازنا أو شبه توازن ببين الريف والمدن في مجال التعليم.[1]

وفي هذا الصدد يقول الشيخ المهدي البوعبدلي:"إن العصر العثماني امتاز في الجزائر بانتقال المراكز الثقافية من المدن إلى الجبال و القرى، واشتهرت عدة معاهد وزوايا في كامل القطر كمعاهد الراشدية، ومازونية، والبعقوبي بندرومة، وزاوية عين الحوت ."[2]

أما عن المنهج التربوي داخل مؤسسة الزواية يقول الأستاذ بن لباد الغالي: يلاحظ أنه ينقسم إلى طورين، فالطور الأول أن نخصه باسم المنهج التعليمي، أما الثاني فيتعلم فيه المريد المنهج الصوفي.[3]

[1]- د. العيد مسعود، مقال حركة التعليم في الجزائر خلال العهد العثماني، مجلة سرتا، العدد 03، 1980، ص 60.

[2]- الشيخ المهدي البوعبدلي، الثقافة والتوجيه بالجزائر، محاضرة القيت في مؤتمر الفكر الإسلامي ، الجزائر، 1970، ص07.

[3]- بن لباد الغالي، الزوايا في الغرب الجزائري، اللتيجانية والعلوية والقادرية، دراسة أنثروبولوجية، أطروحة الدكتوراه في الأنثروبولوجيا، جامعة تلمسان، 2008-2009، ص 160.

1)الطور الأول:

يتفق أهل التصوّف على منهج موحد في هذا الطور مثلما ذهب إلى ذلك الدكتور أحمد بوكاري لم يخرج منهج الدراسة شكلا ومضمونا فبي زاوية أبي الجعد عن الإطار العام الذي كان متبعا في أهم المراكز العلمية بالمغرب إلا أنه كان يتقلص أو يتسع حسب ظروف الزاوية، وإمكانيتها البشرية فيما يخص التأطير دون أن نغفل تأثير وسطها القروي الذي فرض عليها إعطاء اهتمام خاص لبعض المواد. دون الأخرى، وهذا كله كان مشبّعا بالروح الدينية".[1]

ويذهب بن لباد الغالي إلى أن هذا النظام التعليمي ومؤسسة الزاوية يمرّ بعدة مراحل، ويكاد يكون هذا النموذج هو السائد في كل الزوايا.[2]

وهو ما أكده المؤلف أحمد بوكاري في كتابه الزاوية الشرقاوية والذي يشير إلى أن النموذج التعليمي نفسه سائد في كل الزوايا يقول: "أوّل ما يلقى اهتمام الطلبة هو دراستهم لكتب الفقه ثم اللغة فتفسير القرآن الكريم ثم شروح الحديث. والطلبة في ظل هذه المصنفات يتبعون مراحل:

فالمرحلة الأولى يتم فيها دراسة العلوم الأولى، وذلك بحفظ الطالب المصنف، وهو مدوّن على اللوح في نفس اللحظة التي يكتب فيها النصوص القرآنية من آية أو سورة.

فإذا أتم حفظه وإتقانه لهذه النصوص بحيث يجيزه الشيخ لأنه أصبح حافظا للقرآن الكريم، عندئذ يتحوّل الطالب إلى دراسة العلوم على يد العلماء.[3]

---

[1]- الدكتور أحمد بوكاري، الزاوية الشرقاوية زاوية أبي جعد إشعاعها الديني والعلمي طبعة 1985، ص 210.

[2]- بن لباد الغالي، أطروحة الدكتوراه، زوايا الغرب الجزائري، ص 167.

[3]- قدور إبراهيم، عمار، زاوية سيدي بن عمر سيرتها وتخصصاتها، ديوان المطبوعات الجامعية، 2001، ص 82.

ويأتي في مقدمة هذه الكتب، كتاب بن عاشر الفقيه الحجة الشيخ عبد الواحد وكتاب المرشد المعين الضروري من علوم الدين على مذهب الإمام مالك بن أنس في الفرائض الخمس فيقرأه الطالب مرّة أو مرتين لينتقل بعد ذلك إلى علوم اللغة، فيقرأ الأجرومية لابن أجروم.[1] لأنها تمثل البدايات الأولى لعلم النحو تمهيدا للانتقال إلى مصنف آخر في اللغة أصعب منها مثل ألفية بن مالك المتوفى سنة 672هـ وشرحها لابن عقيل قاضي القضاة بهاء الدين عبد الله بن عقيل المتوفى سنة 769هـ.

2) الطور الثاني:

يتحوّل فيه الطالب إلى العلوم الفقهية على يد شيخه الذي يكون بيده كتاب ثاني فقهي هو كتاب رسالة أبي زيد القيرواني في مذهب الإمام مالك بشرح أبي الحسن المسمى كفاية الطالب الرباني لرسالة إلى أبي زيد القيرواني.[2]

ويبقى هذا الكتاب في يد الطالب إلى أن يصرّح له الشيخ بالانتقال إلى المرحلة التالية والتي تمثلها المصنفات الفخمة التبي أصبح الطالب مهيئا لاقتحامها ودراسة مادتها لأنه أصبح مزودًا بالوسائل المساعدة بعد اطلاعه ومعرفته ودراسته للمادة الأولية من الكتب السابقة. وفي مقدمة هذه المصنفات شرح منح الجليل على مختصر العلامة خليل بن إسحاق المتوفى سنة 776هـ، وفيه يتقن الطالب جميع التشريعات الفقهية، حينئذ يصبح متمكنا في أي مصنف

[1] هو محمد بن محمد بن داود الصنهاجي، أبو عبد الله المعروف بن جروم ولد بفاس (672- 1273م) وكانت وفاته سنة 723هـ/ 1323)ابن

[2]- قدور إبراهيم عمار، المرجع السابق، ص 83.

آخر من هذه العلوم، وفي هذه المرحلة يحصل الطالب على إجازة شيخه في ممارسة التدريس والتصدر في مجالس الحفظ والتعليم.[1]

ملاحظة: التعليم داخل مؤسسة الزاوية لا يعتمد على سن معيّن، إنما يعتمد فيه على درجة التحصيل، فالطالب سواء كان كبيرًا أو صغيرًا لا ينتقل من مرحلة إلى أخرى إلا إذا استوعب المصنف وتمكن من إدراك معانيه.

لقد أدت زاوية عين الحوت دورا هاما في القرون الماضية خصوصا خلال العهد العثماني حيث بلغت أوج ازدهارها خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر ميلادي. مما زاد من أهميتها وجود مكتبة كانت عامرة بالكتب النفيسة والمخطوطات النادرة في مختلف العلوم والمعارف امتدت مكانتها العلمية في الآفاق. وبذلك أصبحت الزاوية مهدا ومنبعا للعلم والمعرفة حيث توافد عليها الطلبة والفقهاء من كل المناطق حتى سميت عين الحوت لعظم شأنها بالأزهر الصغير.

[1]- قدور إبراهيم عمار، المرجع السابق، ص 84.

ثانيا: زوايا معسكر

1- زاوية سيدي بوسكرين

أ-الموقع:

تقع هذه الزاوية في الجهة الغربية في حي باب علي العتيق، يتم الوصول إليها عبر شارع الغزالي من الجهة الشرقية وكذلك عبر طريق من وسط المدينة وهي معزولة عن مساكن الحي بطريق شقه الاحتلال الفرنسي أثناء تواجده في المنطقة.

ب-نبذة تاريخية عن الزاوية:

يكتنف تاريخ هذه الزاوية الكثير من الغموض، وذلك لقلة وشح المصادر التي تتحدث عنها باستثناء مخطوطة في الزاوية تشير إلى أنها كانت قائمة في أواخر القرن التاسع الهجري وبالتحديد سنة 893هـ، لكن تأسيس الزاوية يبقى مجهولا، توضح لنا هذه الرسالة أن هذه الزاوية كانت عامرة بالطلبة، حتى أنه لا يكاد يمر زائر بمعسكر إلا وسمع ذوي وأصوات الطلبة، فيقول عبد السلام الإدريسي في ذلك "... والذي نوصيكم أيها الطلبة به هو الجدّ والاجتهاد في القراءة وتقوى الله والعمل بطاعته لأن من يدخل معسكر يشاهد ويسمع أصواتكم تتلون كتاب الله والاستعانة به والتوكل عليه.[1]

والجدير بالذكر هو أن هذه الزاوية قد ذاع صيتها في العالم الإسلامي لما تميزت به من مكانة علمية كبيرة، وذلك لتوفر عاملين أساسيين هما: مجموعة العلماء القائمين عليها وهم

[1]- رسالة مخطوطة، نسخة محفوظة بمكتبة زاوية بوسكرين.

ينظر عبد القادر قرمان، عمران وعمارة مدينة معسكر في العهد العثماني، دراسة أثرية عمرانية ومعمارية، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه علوم في الآثار الإسلامية الجزائر، 2014-2015، ص160.

الشيخ أبي زكرياء اليعقوبي واخوته "إبراهيم" "محمد" و"يعقوب"، ولوفرة المال الذي يسر على الطلبة الدراسة والمعيشة، كما أصبح لها علاقات علمية مع زوايا المغرب الإسلامي وعلمائه خاصة علماء المغرب الأقصى الذين أعجبوا بعلم علماء هذه الزاوية وطلبتها، وبانتفاعهم بأقوالهم وأفعالهم، وذلك من خلال المكاتبات التي كانت تتم بينهم. فكانت هذه الزاوية بحق منارة علمية، أضفت على معسكر نورا طمس ظلمات الجهل بها، هذا ما يثبته عبد السلام الإدريسي في رسالته فيقول ".... والله تعالى وبدون شك يتقبل منكم هذا العمل ويعينكم على القيام والإكثار من هذه الأفعال، وأنتم أقرب إليه من حبل الوريد وأنه لا شك يوفي بوعده سبحانه، وأنتم في هذه المنارة العلمية والتي هي محل التعظيم، إنكم في هذه الزاوية أشدّ الناس محافظة على الدراسة، وأخوة أبي زكرياء إبراهيم ومحمد ويعقوب لهم ما يكفيهم من المال ومن التقوى ومن العلم، ونحن مشايخ وزّان نحمد الله الذي أرانا هذا البلد... ونيل البركة وما وجدوه من أثر وسريان الانتفاع من أقوالكم وأفعالكم التي تسلمناها من خلال مكاتبكم.[1]

وككل زاوية علمية فإن مواد التدريس بها، كانت دون شك تنحصر في العلوم الدينية إضافة إلى علم الفلك والرياضيات.

[1]- نفس الرسالة المخطوطة السابقة، ينظر عبد القادر قرمان، المرجع السابق، ص161.

جـ) نبذة تاريخية عن سيدي بوسكرين- مؤسس الزاوية.

تم تأسيس زاوية سيدي بوسكرين على يد عالم جليل هو محمد بن أبي زكريا يحي بن يعقوب، المعروف بـ "سيدي أبو زكري"[1] لقب بسيدي بوسكرين خلال العهد الفرنسي وذلك لتراجع اللغة العربية وعدم النطق الصحيح لها.

عاش ما بين القرن التاسع والعاشر الهجرين أي الموافق للقرن 15م و16م، كان عالما، أخذ العلم عن معاصريه من العلماء في تلمسان.[2]

عند عودته من تلمسان توجه إلى الكرط القريبة من معسكر للرباط وممارسة التعليم، وبدخول الإسبان إلى وهران، دخل مدينة معسكر واتخذ له زاوية مسجد لتعليم القرآن. وإذا قلنا أنه أنجب الصلحاء فمن ذلك: سيدي علي بن يحي، سيدي محمد بن يحي وسيدي أحمد بن يحي.[3]

استطاع بعلمه الغزير وزاويته التي داع صيتها في المغرب الإسلامي أن يكوّن لنفسه علاقات مع علماء الجزائر، منهم سيدي الحسني بوهران، وعلماء المغرب أيضا، كما بلغ عندهم حظوة كبيرة، لما تمتع به من معرفة واسعة حتى قال عنه مشايخ وزان"... نحمد الله

[1]- بن بكار الهاشمي، مجموع النسب والحسب والفضائل التاريخ والأدب في أربعة كتب، مطبعة بن خلدون، تلمسان 1961، ص 370.

[2]- نفسه، ص 370، ينظر كذلك: جلول جيلالي، معسكر رجال وتاريخ، دار الأديب للنشر والتوزيع، د.م، د.ت، ص90.

[3]- بن جلول أحمد البدوي، رسالة النسب، د.ط، الجزائر 1990، ص 12.

الذي أرانا هذا البلد رجلا سخر الله له الريح.[1] أي أنه استطاع بعلمه أن يهون من الصعاب ما فاقت قوتها قوة الريح.

د- وصف المخطط المعماري للزاوية:

تقع زاوية بوسكرين برحبة باب علي وبالضبط في حي سيدي بوسكرين، تتخذ شكلا هندسيا غير منتظم الأضلاع، تشغل مساحة واسعة مقارنة بزوايا المنطقة خلال الفترة العثمانية، وكأي مؤسسة دينية فإنها تضمّ العديد من المرافق، يتم الدخول إليها عن طريق مدخل رئيسي يقع في الجهة الشرقية عليه باب خشبي مقاساته (2.10م × 1.25م).

تجدر الإشارة إلى أن المدخل الرئيسي الأصلي كان في الجهة الجنوبية نصل من خلاله مباشرة إلى الضريح، هذا حسب تصريح القائم عليها[2]. وعبر هذا المدخل نصل إلى الصحن بعد المرور عبر سلم يتكوّن من 13 درجة والصحن عبارة عن فضاء واسع تحيط به مجموعة من المرافق الهامة والتي نذكرها على النحو التالي:

1) قاعة التدريس: تقع في الجهة الغربية وهي تؤدي وظيفتين التدريس والصلاة، وهي ذات شكل شبه مستطيل بمقاسات غير منتظمة، فمن الجهة الشمالية تبلغ 7.27م ومن الجهة الجنوبية 7.55م.

أما الجهة الشرقية تبلغ 5.20م ومن الجهة الغربية 4.76م، وسبب هذا الانتظام هو بناؤها على أرض غير مستوية، ويتم الولوج إليها عبر مدخل بباب خشبي يبدو وأنه أصلي، يقع في الجهة الشرقية، تبلغ مقاساته (2× 1.60م)، وتبدو هذه القاعة بسيطة في شكلها

[1]- الرسالة المخطوطة السابقة الذكر. ينظر عبد القادر قرمان، المرجع السابق، ص 162.

[2]- نفسه، الصفحة نفسها.

العام، أما المحراب فهو يتوسط جدار القبلة يظهر بسيطا في شكله العام، كما فتحت في هذا الجدار نافذتين، واحدة يمين المحراب مقاساتها (1.40م×88سم) والثانية شمال المحراب مقاساتها (1.87× 88سم)، والشيء المستحدث بقاعة التدريس هو مكتبة صغيرة في الجهة الغربية تضم مجموعة من كتب القرآن والفقه ومختلف العلوم الدينية، وهي موقوفة على الطلبة، وعن تسقيفها فهو مسطح خال من أية زخرفة، وهذه القاعة مازالت على حالتها الأصلية[1].

هـ–الهيكل التنظيمي للزاوية:

من خلال دراستنا للموضوع، وجدنا أن معظم الزوايا في الجزائر خلال الفترة المحددة بالدراسة (القرنين 16م- 18م) كانت تخضع لتنظيم وتسيير واحد، مع وجود بعض الاختلافات البسيطة من زاوية إلى أخرى، وغالبا ما يكون شيخ الزاوية هو من وضع هذا التنظيم خصوصا لما يكثر عدد الاتباع والمريدين من الرجال والنساء. ويتمثل الهيكل أو التنظيم الهيكلي للزوايا بما يلي:

1- الشيخ:

يأتي على رأس الهرم وهو المدرس والمصلح والمفتي والمستشار والدليل الروحي لكل من يلجأ إليه يستمدّ نفوذه من مكانته الدينية، باعتباره العارف والقادر على تربية النفوس، يقول في شأنه السهروردي وهو صاحب المكاشفات والكرامات والبركات يملك المعرفة الحقة

[1]- عبد القادر قرمان، المرجع السابق، ص 162.

بالشريعة، وهو الذي يكشف الداء ولديه الدواء الشافي، وعنده كل الأسرار التي منحه إياها الله عزّ وجلّ... والشيخ لا يعترف إلا بقوة الله ورسوله.[1]

وقد أحيط الشيوخ بهالة من التقديس في نظر الأتباع والمريدين كما هو الشأن بالنسبة للشيخ سيدي محمد بن علي ومن قبله سيد عبد الله بن منصور في زاوية عين الحوت. كما أن اعتقاد الناس في المرابطين يقوم على أساس الفكرة القائلة بأن البركة الإلهية تفيض على الولي، ثم تنتقل إلى ذريته فيصبحون جميعا مرابطين يلتمس الناس منهم البركة.[2] فهم مصدر السعادة والخير، فكل من مسّه الأذى أو الضر إلا واعتبره غضبا من الشيخ فيسرع إلى ضريحه لنيل مرضاته، فهو واسطته التي يتوسّل بها عند الله فيقدم له الهدايا والزيارة ويتعهده بالطاعة والولاء ولخلفائه ويداوم على ورده (إن كان صاحب الطريقة) بحكم مكانته وهيبته يكون الشيخ هو المشرف على السير المحكم للدروس في مختلف التخصصات نظرا لمكانة الزاوية داخليا وخارجيا فالكثير من الطلبة كانوا ينتقلون من زاوية عين الحوت إلى مناطق ومراكز علمية أخرى وعلى وجه الخصوص مدرسة مازونة وجامع القرويين بالمغرب.

2- الخليفة:

يأتي في المرتبة الثانية فهو الذي يرث مقاليد الطريقة وعادة ما يسمى بالخليفة الأكبر أو صاحب السجادة، ويتوارث الأنبياء والأحفاد بركة الشيخ. ويسهر الخليفة على تسيير الطريقة والدفاع عن مصالحها. فيحافظ على أوراد الطريقة وأذكارها فلا يزيد فيها ولا ينقص، ولا

[1]- أبو حفص عمر السهروردي، عوارف المعارف، تحقيق محمود غيث، نشر مكتبة القاهرة، 1398هـ، ص 412.

[2]- العيد مسعود المرابطون والطرق الصوفية بالجزائر خلال العهد العثماني، مجلة سيرتا السنة السادسة، العدد 10 أبريل 1988، ص 09.

يفشي الأسرار الموروثة فهو بمثابة المدير العام المسؤول على تسيير مجموعة وحدات تحت امرته عدد من الشيوخ يسمون بالمقدمين.[1] وقد يكون الخليفة هو النقيب بالزاوية الأم.[2]

3- النائب:

نجده في الزوايا الأم يحل محل الخليفة أثناء غيابه لضمان سير الإدارة المركزية للطريقة ولا تعطى له كافة الصلاحيات، وعادة ما يقوم بهذه المهمة الوكيل.

4- الوكيل:

يعوّض المرابط في حالة وفاته، وانقطاع عقبه ويلتزم بذلك حرفيا جميع طلبة الزاوية والأتباع وتحديد الإخوان فيوزعون بينهم حسب قدراتهم ومكانتهم عن شيخ الزاوية الخدمات والمهام المتعددة وقد يلجؤون أحيانا حرصا على مصلحة الزاوية لوضع تعليمات وإجراءات محددة في شكل قانون داخلي.

هذا ويقوم الوكيل بأعمال شؤون الطريقة انطلاقا من الزاوية الأم فهو بمثابة المقتصد في المؤسسة والمحاسب والمسيّر ورجل الأعمال، يشرف على الجوانب الإدارية من مراسلات، تجهيز وضبط الميزانية، كما يعمل على حراسة ضريح سيّده تحت إدارته عدد من الخدم (الشاوش).[3]

---

[1] - Brosseard Charles, « Les inscriptions arabes de Tlemcen » in Revue AFR, n)5, 1860 OPU ; Alger, p 21.

[2] - Depont Oktave et Coppolani Xavier, Les conférées musulmanes, Alger, Jourdon 1897, p 207-208.

[3]- Ibid, p 207-208.

وبقدر ما يكون الوكيل يمارس مهامه من الزاوية الأم بقدر ما تكون أهميته كبيرة كما هو الشأن في الزاوية الطيبة في وزات بالمغرب الأقصى، أو الزاوية القادرية ببغداد.[1]

5- المقدّم:

مندوب الخليفة أو ممثل للشيخ أمام العامّة بالزوايا الفرعية وقد يمنحه الشيخ صلاحيات واسعة بالمناطق البعيدة عن مقر إقامته، لكن وبسبب اتساع الرقعة الجغرافية لبعض الطرق تكونت اللامركزية فظهرت زوايا جديدة تحت رعاية شيخ محلي أو بانتخاب المقدم الذي يمنحه شيخ الطريقة الأم إجازة.[2]

وعلى المقدم أن يسير منطقة محددة دينيا، يراسل الخليفة ليطلعه على الأخبار ويطلب منه نصائح، له خاتم، وتحت امرته نقيب.[3]

ويترشح لمرتبة المقدم كل مريد توفرت فيه مواصفات معينة كالسمعة الجيدة بين المريدين وعند المسؤولية والتجلي بالآداب مع الخاصة والاستيعاب الجيد للأفكار وأوراد الطريقة.

[1] Coppolani et Depont, Op,cit, p 207.

[2] Bel, L'islam mystique, Op,cit, p 22-23 et A Delpech, « Un diplôme de Mokedem de la confrérie religieuse, in Revue AFR, n° 18, 1874, Opu, 1986, p419.

[3]-بعارسية صباح، المرجع السابق، ص 82.

6- النقيب:

بالزاوية الأم هو الخليفة، ينوب عن الشيخ يسمّى كذلك شيخ الحضرة، يقوم عادة بإمامة الصلاة.[1]

أما بالزوايا الفرعية فمهمته نيابة الشيخ في الأوقات اللازمة، تحت امرته عدد من الأعوان الثانويين أهمهم الرسول.

7- المريد:

إذا كان الشيخ يمثل الزاوية الأساسية في الطرق الصوفية فإنه بدون وجود مريدين لهذه الطرق ما قامت ولا كانت طرق صوفية.

والمريد هو سالك الطريق يسير في الطريقة حسب إرشادات شيخه فيسلك طريقه كما يرسمه له شيخه حتى يصل إلى غايته.[2]

ويمكن أن نلخص خطوات المريد نحو الطريق في خطوات ثلاث تبدأ بالتوبة ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[3].

[1] -Coppolani et Depont, Op,cit, p 207-208

[2]- عامر عبد النجار، الطرق الصوفية في مصر، نشأتها ونظمها وتطورها، دار المعارف، د.ت، ص 26.

[3]- سورة النور ، الآية 31.

الخطوة الثانية:

هي أخذ العهد من الشيخ بطاعة الله ورسوله والسير في الطريق.

فالعهد في اللغة: الوصية، يقال: عهد إليه إذا وصّاه والعهد: الأمان ومنه قيل للحربي يدخل بالأمان: ذو عهد ومعاهد ويمارس الأعضاء أعمالهم داخل الجماعة بعد أخذ العهد ويشعرون بالتضامن. فالعهد هو الذي يعطي الفرد شخصيته الاجتماعية ويجعل منه عضوا في الجماعة.[1]

والخطوة الثالثة: هي التلقين وهو "تعليم الشيخ للمريد كيفية الذكر نطقا وبدءا في مرحلته الأولى ويتجدد التلقين كلما قطع المريد مرحلة من مراحل القرب من الله سبحانه وتعالى.[2]

ويتضح مما سبق أن أهم واجبات المريد نحو شيخه طاعة أوامره قال أبو الحسن الشاذلي: "عليك أيها المريد بالوقوف على أعتاب شيخك فإنك لو علمت ما انطوى عليه الشيخ ما برحت عن أبوابهم ولأتيتهم سعيا على الوجه.[3]

ومن واجب المريد ألا يكتم أي سرّ عن شيخه، بل ينبغي عليه أن يذكر له كل ما يدور في خلده من أسرار وخطرات وهموم ومشكلات.

---

[1]- فاروق أحمد مصطفى، البناء الاجتماعي للطريقة الشادلية، دراسة في الأنثروبولوجية الاجتماعية، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة الإسكندرية، 1974، ص 145.

[2]- السيد أحمد البدوي لفضيلة الدكتور عبد الحليم محمود مطبعة دار الشعب 1969، ص 18.

[3]- المفاخر العلية لابن عياد أحمد بن محمد عيسى، طبعة مصطفى البابي الحلبي 1961، ص 77.

آداب المريد مع شيخه:

يمكن تقسيمها إلى نوعين:

أ) الآداب الباطنة:

– الاستسلام لشيخه وطاعته في جميع أوامره ونصائحه، وهذا ليس من باب الطاعة العمياء الذي يهمل فيه الفرد عقله ويتخلى عن شخصيته، لكنه من باب التسليم لذى الاختصاص والخبرة.

– عدم الاعتراض على شيخه في طريقة تربية مريديه لأنه مجتهد في هذا الباب عن علم واختصاص وخبرة.

– أن لا يعتقد في شيخه العصمة لأن الشيخ حتى وإن كان على أكمل الحالات فليس معصوم.

– أن يعتقد كمال شيخه وتمام أهليته للتربية والتوجيه.

– إنصافه بالصدق والإخلاص في صحبته لشيخه.[1]

ب) الآداب الظاهرة:

– امتثال أمر شيخه وإن ظهر خلافه أو اجتناب نهيه وإن كان فيه موته، ذلك لأن الشيخ بمثابة الطبيب والأب الروحي للمريد.

[1]– عبد القادر عيسى، حقائق عن التصوف د.ت، ص 50.

- السكينة والوقار في الجلوس بين يدي شيخه، وهذا الوقار يتطلب خصالا منها: عدم المبادرة بالكلام، عدم الضحك بحضور الشيخ مع عدم الالتفات.

- خدمة شيخه بقدر الإمكان بنفسه وماله ولسانه.

- البقاء مع شيخه ودوام حضور مجلسه، وإن تعذر عليه ذلك فمحاولة الوصول إليه ضرورية لتطوير الصلة بينه وبين شيخه وغرس المحبة بينهما.

وتعد الطريقة الصوفية مدرسة سلوكية تستمد أصولها من القرآن والسنة، وتسلك مسلكا تربويا تعليميا ومنهجا سلوكيا أخلاقيا. وقد تحوّل التصوف ، مع ظهور الزوايا إلى مؤسسة دينية واجتماعية قائمة بذاتها، مبنية على أساس علاقة تعاقدية بين شيخ ومريد.[1] مما أدى إلى خضوع التصوف لهيكلة هرمية منظمة يوضحها الشكل التالي:

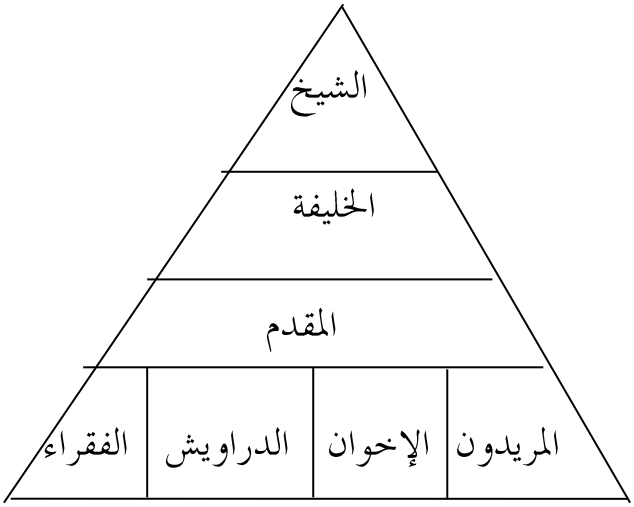

تنبني العلاقة بين الشيخ والمريد على أساس التبعية المطلقة وبما أن الشيخ ضروري في أي علم من العلوم، فإنه من باب أولى تكون أكثر إلحاحا في علم التصوّف.[2]

[1]- عامر النجار، الطرق الصوفية في مصر، دار المعارف 56 القاهرة، د.ت، ص 2.

[2]- إبراهيم القادري بوتشيش، التصوّف السني في تاريخ المغرب، منشورات الزمن 2010، ص 31.

حتى قيل في هذا الشأن أن "من لا شيخ له فالشيطان شيخه" وأن "من لم يمت على بيعة شيخ مات في ترهات الضلال"، والشيخ المقصود ها هنا هو المرشد الكامل الذي سلك الطريق وعرف مداخله ومخارجه وعرف مكائد الشيطان وآفات النفس ووساوسها، لذلك نجد الأدب المناقبي سواء في الجزائر أو في بلاد الإسلام عامة يفيض بذكر مناقب الشيخ أو الولي، ويجب أن يكون هذا الشيخ رجلا محنكا بصيرا بعيوب النفس مطلعا على خفاياها ليتسنى له الرقي بنفس المريد من مقام إلى آخر حسب تدرّج المعراج الصوفي.[1] والمطلوب في الختام أن تتحول علاقة المريد بالشيخ من المحبة والخدمة إلى الصحبة، وهي جلوس المريد بين يدي شيخه وتكلّمه معه في أدب الطريق وأسراره وقد شبه بعض الصوفية الصلة بين المريد والشيخ بالعلاقة بين المريض والطبيب، قال الجنيد: "إن أمراض البدن يعبر عنها المريض بما يجد في نفسه، أما علل القلوب فإن المريض مقصر عن بلوغ نعته لذلك.[2]

الخلاصة :

لقد أدت الزوايا والطرق الصوفية في الجزائر إبان العهد العثماني بمختلف أنواعها أدوارا كبيرة ومهمة في الحياة الدينية والثقافية والتعليمية وحتى السياسية والاجتماعية .

[1] – د. إبراهيم القادري بوتشيش، المرجع السابق، ص 31.

[2] – د. الطريقة الرحمانية الأصول والآثار، دار الخليل للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى 2013، ص 143.

الفصل الرابع
مراحل التربية الروحية عند الصوفية

إذا نحن تحدثنا عن التصوف كمسألة فردية فإنه يرتكز على قواعد ومسلكيات خاصة تكلم عنها علماء التزكية والسلوك (الأحوال و المقامات) تقوم على أساس الذوق والكشف، كما أن مصدر المعرفة الحقيقية من وجهة نظر المتصوفة هو القلب.

المبحث الأول: الطريق عند الصوفية مفهومه ومراحله

يفرق السادة الصوفية بين الطريق والطريقة.

1- الطريق الصوفي:

1-1- مفهوم الطريق:

هو السبيل الذي يسلكه المريد وصولا إلى المراد، وهو ما كان معروفا لدى المتصوفة إبان التصوف في مراحله الأولى. أو ما يعرف بالتصوف الفردي "الطريق". أو هي السيرة المختصة بالصوفية السالكين إلى الله تعالى فهي سفر إلى الله تعالى والسالك إلى الله تعالى، والمريد هو المسافر فعلى المسافر إلى الله أن يسلك طريق القوم وأن يجتازها مرحلة بعد مرحلة، وغاية الطريق هي: "الترقي الخلقي بمجاهدة النفس وإحلال الأخلاق المحمودة محلّ الأخلاق المذمومة.[1] وتبذل الصفات، فكم من الفرق بين أن يعرف الإنسان حال الصحة وحد الشبع وأسبابهما وشروطهما وبين أن يكون صحيحا وشبعانا، وبين أن يعرف حدّ السكر وبين أن يكون سكرانا، فعلمت يقينا أنهم أرباب أحوال لأصحاب أقوال.[2]

[1]- دائرة المعارف الإسلامية (البريطانية) مجموعة من المستشرقين، ترجمة: أحمد الشنتاوي، ج15، دار المعرفة، بيروت، ص172.

[2]- أبو حامد الغزالي، المنقذ من الضلال، دار الأندلس، لبنان، 1973، ص ص 132-133.

يقدم لنا "حسن الراوي" مفهوما واضحا للتجربة الصوفية قائلا: "التجربة الصوفية منزلة روحانية يتصل فيها العبد (المتناهي) بربّه (اللامتناهي) ويسميها الصوفية (الحال) فيها يحصل الإشراف الصوفي فيفيض عليه العلم الذوقي، تنطلق من العقل وأحواله وقوانينه إلى أن تتعداه فتصبح فوق العقل غير ملتزمة بقوانينه" من خلال التعريف يتضح لنا جليا أن التجربة الصوفية حالة من حالات الوجدان بدايتها إرادية بالمعنى الاختياري، ثم نزوعا مطلقا نحو الاتصال بالله إلى درجة الذوبان والفناء في حبّه.[1] غاية التجربة الصوفية ومنتهى مطافها هو اتخاذ المحبّ (الصوفي) بالمحبوب (الله) والعاشق بالمعشوق الأسمى فتذوب (الأنا) وتفنى متجاوزة عالم الحس والعقل إلى العالم الحقيقي ويكون للعاطفة دورها حيث تتجلى رغبة ملحّة تدفع النفس نحو ذلك العالم.

من هنا يعتبر الحب هو أقصى مظاهر العقل الواعي وغير الواهي وأخص مصادر الإرادة والوجدان وأعلاها من خلال الاتصال الروحي والإفصاح عن أعنف النزعات الروحية في الإنسان.

إن التجربة الذاتية المليئة بالرموز والإشارات والرؤى هي الرصيد الأول والنهائي للصوفي، وخلاصة ما يعتقده الصوفي أن هناك عالما روحيا غير محسوس وراء هذا العالم المرئي، لا يمكن الوصول إليه عبر المعرفة الحسية العقلية، وإنما يمكن الاقتراب من رحابها عن طريق (المعرفة القبلية)[2]

إن قراءة واستنطاق التراث الصوفي وما تنطوي عليه حياة الصوفية وما عبروا به عن أحوالهم، شكل لنا اعتقادا بأن النفس البشرية هي المحور الرئيسي التي تدور حوله رياضاتهم

[1]- حسن الراوي، التصوف والباراسيكولوجية، ط1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1994، ص 20.
[2]- المرجع نفسه، ص 21.

ومجاهداتهم وأذواقهم ووجدانهم، فالتجربة الصوفية هي نتاج للأعمال السليمة وثمرة للأحوال الصافية.

ويصنف جلّ المتصوفة الأعمال الصحيحة إلى ثلاثة أقسام، وكل قسم له أسلوبه وهدفه ونتائجه تتعدّد وتختلف بتعدّد مدارس التصوف الإسلامي. وكلها تهدف إلى تصفية وتطهير شخصية المريد في سيرورة روحية ومن المبادئ الأساسية في التصفية والتطهير الروحي، استخدام شيخ الطريقة لأساليب وطرق تناسب كل سالك على حدة حتى يضمن النجاح.

ولما كان الطريق الصوفي هو المعراج إلى الله عزّ وجلّ فطرقه طرق علوية سماوية ليست سهلة هينة، تأتي القلب من وجهين: من عين الجود ومن بدل المجهود وفي هذه الطريق يعرض الصوفي من حال إلى حال مرتقيا من مقام إلى مقام في السلم الروحي كل يسير حسب استعداده للعروج إلى التجربة الصوفية مرتبطة بالأحوال والمقامات.[1]

عرفنا أن التصوف هو طريق أو منهج أو اتجاه يسير فيه المرء الذي يسمي نفسه "سالكا" وهذا السالك ينتقل من مقام إلى مقام ومن حال إلى حال خلال عبور هذا الطريق الصوفي الذي هو أشبه برحلة طويلة أو حجّ يمرّ من درجة إلى درجة، وهو في كل درجة بمنتقل إليها تحدث له حال مخالفة لما سبقها ولما سيتلوها.

1-2 مراحل الطريق الصوفي:

يقوم الطريق على الانتقال الروحي وفقا لشعائر تعبدية من درجات إلى أخرى على التوالي، ليصل المتصوّف إلى الكمال الروحي، على أن هناك المتصوفة من جعلها أقل، ويمكن تلخيصها في درجتين:

[1]-فيصل بدير عون، التصوّف الإسلامي (الطريق والرجال)، مكتبة سعيد رأفت، الإسكندرية، 1983، ص ص 99-100

- الدرجة الأولى: تتمثل في الذكر.

- الدرجة الثانية: يحصل فيها الجذب الذي يمرّ بعدّة مراحل:

* الجذب للمحب وهو الولي[1]

* جذب القلب ، جذب الروح غير المادية.

* جذب السر.[2]

* جذب الامتلاك، هذه المواقف كثيرا ما تجمع في "الحال" أو "الحق"[3] أو المقام.[4] "والفرق بين "الحال " و"المقام" هو أن الحال معنى يرد على القلب من غير تعمّد ولا اجتلابل[5]

ولاكتساب من طرب أو حزن أو فيض أو شوق، والأحوال تأتي من غير الوجود والمقامات تحصل ببذل المجهود[6] أي أن المقام يتصف بالثبوت والحال زائل، لأن المقام يحصل للسالك بنسبه وإرادته ، من حيث أن الحال وارد عليه دون تعمد منه.[7] فالمقامات مكاسب

[1]- الجذب هو حال من الأحوال النفس يغيب فيها القلب غن علم ما يجري من أحوال الخالق وتغشاه غبطة شاملة يتصل فيها بالعالم العلوي للمزيد، انظر: حسن الراوي، المرجع السابق، ص 25.

[2]- يقال سر العلم بإزاء حقيقة العلم به وسر الحال بإزاء معرفة مراد الله فيه، ينظر: محي الدين بن العربي، ابن عربي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د ت، ص 17.

[3]- ما وجب على العبد من جانب الله وما أوجبه الحق على نفسه، انظر: ابن عربي، نفس المرجع السابق، ص 15.

[4] - Louis Rinn, Marabouts et Khouans, étude sur l'islam en Algérie, Adolphe Joudan, Alger, 1884, p 65-66.

[5]- ابن عربي، المصدر السابق، ص 2.

[6]- القشيري، الرسالة القشيرية في علم التصوف، تحقيق: معروف زريق وعلي أبو الخير، دار النجيل والنشر، دمشق، 1995، ص 117-118.

[7]- التفتزاني أبو الوفا الغنيمي، مدخل إلى التصوّف الإسلامي، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، 1986، ص 46.

والأحوال مواهب، ثم إن المريد يرتقي من مقام إلى مقام ويصعد درجات الصوفية، بعد أن كان تلميذا، ثم فقيرا ثم صوفيا سالكا، حتى ينتهي إلى أن يصير مجذوبا.

بذلك يصل إلى مرحلة التوحيد والمعرفة[1] أو إلى الكشف، وهو أعلى مراتب الصوفية.[2] يبلغ فيها الصوفي صفة "العارف" أي العارف بالله، مرتبة أعلى من الحال والمقام والمعرفة.

وكثيرا ما يحدث الكشف لأهل المجاهدة، فيدركون من حقائق الوجود ما لا يدركه سواهم ويدركون كثيرا من الوقائع.[3] قبل وقوعها لأن طريق العارفين غير محسوس ولا مشهور بل سلوك القلوب إلى علاّم الغيوب[4] والمريد وهو يمرّ بهذه الدرجات، ترتقي نفسه باعتبار صفاتها وتمر بسبع مراحل لتصل إلى مرحلة الكمال.[5] وهي:

- النفس الأمارة بالسوء والشهوات.
- النفس اللوامة إذا أذعنت لاتباع الحق.
- النفس الملهمة

النفس الخاضعة والروح المطمئنة.

- النفس الراضية إذا فنيت جميع مراداتها.

---

[1]- ابن خلدون عبد الرحمن، المقدمة، الجزء 2، الدار التونسية للنشر، 1984، ص 585.

[2] - Cyrie Glassé b »soufisme » in dictionnaire encyclopédique de l'islam Berque, Edition, Borda, Paris, 1991, p 377.

[3]- ابن خلدون، المرجع السابق، ص 587.

[4]- محمد بن سالم الشافعي الحفناوي، واجبات المريد تجاه شيخه وواجبات الشيخ تجاه مريده، ج2، مخطوط بالمكتبة الوطنية رقم 944 ورقم 07.

[5]- ابن عربي، المصدر السابق، ص 07.

- النفس المرضية عند الحق والخلق.

- النفس النقية المقدسة والكاملة، ترشد العباد وتكلمهم إذا أمرت.[1]

2- الترقي في الطريق الصوفي (بين الحال والمقام):

اختلف كبار الصوفية في عدم المقامات والأحوال وترتيبها، حيث صنف الطوسي في كتابه "اللمع" المقامات في سبع وهم: التوبة الورع –الزهد الفقر الصبر، التوكل والرضا.

وصنّف أبو طالب المكي في كتابه "قوت القلوب" والغزالي في كتابه "إحياء علوم الدين" المقامات في تسع وهي:

التوبة –الورع –الزهد –الصبر –الفقر –الخوف –الرجاء –التوكل –الرضا

2-1- المقام:

المقام هو رتبة أو درجة يكون فيها العبد بين يدي الله عزّ وجلّ بشأن ما يقوم في داخله هو رياضة ومجاهدة وعبادة وانقطاع إلى الله.

وقد ورد في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدْ﴾[2]، وقوله جلّ شأنه ﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ﴾[3]

[1]- التهانوي، الكشاف، ج2، مؤسسة مختار للنشر والتوزيع، ط2، القاهرة، 1992، ص 271- 276.، هذا ما يسمى عند الصوفية "علم الأنفاس" حيث وضعوا سلّم عرف بسلّم رجال الله، واعتبروا أعلى مرتبة هي مرتبة خواص الخواص التي مباشرة بعد مرتبة الخواص التي تسبقها مرتبة العوام.

[2]- سورة إبراهيم، الآية 14.

[3]- سورة الصافات، الآية 164.

فالمقام عند الصوفية عبارة عن منزلة روحية يقيم بها السالك، أو يقيمه بها الله تعالى قبل انتقاله إلى المنزلة التي تليها. ويعرّف القشيري المقام قائلا" هو ما يتحقق به العبد بمنازلته من الآداب، ممّا يتوصل إليه بنوع تصرّف، فقام كل واحد في موضع إقامته عن ذلك، وما هو مشتغل بالرياضة له، وشرطه أن لا يرتقي من مقام إلى مقام آخر ما لم يستوف أحكام ذلك المقام، فإن من لا قناعة له لا يصلح له التوكل، ومن لا توكل له لا يصلح له التسليم، ومن لا توبة له لا تصلح له الإنابة، ومن لا ورع له لا يصلح له الزهد.[1]

من خلال هذا التعريف يمكن القول أن المقام هو منزلة يصل إليها العبد ويقيم فيها ويشغل وقته فيها بأنواع المعاملات، وصنوف المجاهدات. لقد اختلف الصوفية في عدد المقامات وتحديدها وتسميتها يذكر السهرودي عشر مقامات بينما القشيري يذكر تسعة وأربعين مقاما، لكن أغلب المتصوفة يقفون عند المقامات السبعة التي أوردها السراج الطوسي.[2] في كتابه "اللمع" وهي: التوبة، الورع، الزهد، الفقر، الصبر، التوكل، الرضا.[3]

أ) مقام التوبة:

يتفق كل الصوفية على أن التوبة هي أوّل المقامات، أي أوّل مترل من منازل السالكين وحقيقة التوبة في اللغة: الرجوع، يقال: "تاب أي رجع، فتوبة الرجوع كما كان مذموها في الشرع إلى ما هو محمود فيه".

---

[1]- أبو القاسم القشيري، الرسالة القيشرية في علم التصوّف، ط2، مكتبة مطبعة الحلي، مصر، 1959، ص 56.

[2]- أبو نصر عبد الله السراج الطوسي (توفي 318هـ/ 988م) هو زاهد، كان شيخ الصوفية على طريقة السنة، تنقل بين بلاد كثيرة، ألف كتاب "اللمع في التصوف"، وهو بمثابة موسوعة في تاريخ التصوف الإسلامي وطبقات الصوفية وعلومهم ومصطلحاتهم وأقوالهم وأحوالهم.

[3]- السراج الطوسي، اللمع في التصوف، حققه وقدم له عبد الحليم محمود وطه عبد الباقي سرور، دار الكتاب الحديثة، القاهرة، 1960، ص 79.

ويعرف "السهروردي" التوبة قائلا: "إنها أصل كل مقام، وقوام كل مقام ومفتاح كل حال وهي بمثابة الأرض للبناء، فمن لا أرض له لا بناء له، ومن لا توبة له لا حال له ولا مقام له".

ويورد لنا القشيري شروط التوبة كما يراها أرباب الأصول قائلا: "حتى تصحّ التوبة لابد لها من ثلاثة شروط: الندم على ما عمل من المخالفات، ترك الزلّة في الحال والتصميم أن لا يعود إلى مثل ما عمل من المعاصي.[1]

فالتوبة الحقيقية حسب "الجنيد"[2] هي أن ينسى التائب كل شيء ما عدا الله، لأن تذكر المعصية إنما هو تذكر وجود الشخص، وتذكر الشخص لنفسه من أكبر الحجب للسالك فهو تعبير عن الأنانية والعجب، وهما كفر في الطريقة"[3] من خلال كلام الجنيد نستنج أن التوبة هي نسيان السالك لذاته نسيانا تاما، ويشغل كله لله وحده.

ب) مقام الورع:

هو المقام الثاني بعد التوبة ولا يرتقي إله ما لم يستوف أحكام التوبة. والانتقال من مقام إلى مقام يتم بطريقة آلية بدون إدراك الحدّ الفاصل بين المقامين ومفهوم الورع حسب ما ورد من أقوال الصوفية "الورع هو ترك الشبهات، أو الورع هو أن تتورّع عن كل ما سوى الله"

[1]- السهروردي، عوارف المعارف، مكتبة القاهرة، ميدان الأزهر، 1973، ص 231.

[2]- هو الجنيد بن محمد بن الجنيد أبو القاسم القواريري، كان أبوه يبيع الزجاج وكان هو جزار، أصله من نهاوند، أما مولده ومنشأه ببغداد، لقي خلقا من العلماء، صحب خاله السري السقطي والحارث بن أسد المحاسبي، توفي سنة 298هـ وقيل 297هـ ،للمزيد ينظر: التعرّف لمذهب أهل التصوف لـ الكلاباذي أبي بكر محمد بن إسحاق، دار كتب العلمية، بيروت، ط1، 1993/1413 هامش، ص 19.

[3]- الهجويري، كشف المحجوب، دراسة وتعليق عبد الهادي قنديل، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، 1980، ص538.

أما أبو سليمان الداراني فيرى: "أن الورع أوّل الزهد، كما أن القناعة طرف من الرضا" أما السهرودي يقول "إن الورع دليل الخوف والخوف دليل المعرفة، والمعرفة دليل القربة"[1]

ويقسم سراج الدين السهروردي في كتابه "اللمع" الورع إلى ثلاث طبقات:

- منهم من تورع عن الشبهات التي اشتبهت عليه، وهي ما بين الحلال البين والحرام البين، ولا يقع اسم حلال مطلق ولا اسم حرام مطلق. فيكون بين ذلك، فيتورع عنهما.

- ومنهم من يتورّع عما يقف عنه قلبه ويحيك في صدره عند تناول الشبهات، ولا يعرفه إلا أرباب القلوب والمتحققون.

- أما الطبقة الثالثة من أهل الورع فهم العارفون.[2]

جـــ) مقام الزهد:

هو ترك الدنيا بما فيها، وعدم المبالاة بمن أخذ بها. والزهد في الحلال والحرام واجب حسب أهل التصوّف. يعرف السراج الطوسي أن الزهد مقام شريف وهو أساس الأحوال الرضية والمراتب السنية، وهو أول قدم القاصدين إلى الله عزّ وجل، والمنقطعين إلى الله والراضين عن الله والمتوكلين على الله تعالى ... فمن لم يحكم أساسه في الزهد لم يصح له شيء مما بعده، لأن حب الدنيا رأس كل خطيئة، والزهد في الدنيا رأس كل خير وطاعة"[3].

[1]- السهروردي، المصدر السابق، ص 110.

[2]- السراج الطوسي، المصدر السابق، ص ص 70-71.

[3]- المصدر نفسه، ص 72.

ويورد لنا القشيري قول "أحمد بن حنبل" في الزهد قائلا: "الزهد على ثلاثة أوجه: ترك الحرام وهو زهد العوام، والثاني هو ترك الفضول من الحلال وهو زهد الخواص والثالث ترك ما يشغل العبد عن الله تعالى وهو زهد العارفين"[1]

د) مقام الفقر:

هو الاكتفاء من حاجات الحياة الضروري والبتعاد عن الكمالي وهو: "الافتقار إلى الله وغنى بالله تعالى" وهم على ثلاث طبقات من الفقراء :

- منهم من لا يملك شيئا، ولا يطلب بظاهره ولا بباطنه من أحد شيئا، ولا ينتظر من أحد شيئا وإن أعطى شيئا لم يأخذ، وهذا مقامه مقام المقربين.

- ومنهم من لا يملك شيئا، ولا يسأل أحدًا ولا يطلب فإن أعطى شيئا من غير مسألة أخذ.

- ومنهم من لا يملك شيئا وإذا احتاج انبسط إلى بعض إخوانه ممن يعلم أنه يفرح بالبساطة إليه فكفارة مسألته صدقة.[2]

هـ) مقام الصبر:

هو احتمال المكروه حتى ينقضي بلا شكوى والصبر نوعان: صبر على ما أمر به الله وصبر عما نهى عنه، عرّف "ذو النون المصري" الصبر بأنه التباعد عن المخالفات والسكون عند تجرّع غصص البلية وإظهار الغنى عند حلول الفقر بساحات المعيشة".

[1]- القشيري، المصدر السابق، ص 119.

[2]- السراج الطوسي، المصدر السابق، ص 74.

و) مقام التوكل:

ترك تدبير النفس والاسترسال مع الله على ما يريده، إنه "الانخلاع من الحول والقوة" على حدّ تعبير "ذو النون المصري". ويميز السراج الطوسي في "اللمع" بين توكّل المؤمنين وتوكل أهل الخصوص، وتوكّل خصوص الخصوص كما يلي:

- توكّل المؤمنين: هو طرح البدن في العبودية، وتعلّق القلب بالربوبية والطمأنينة إلى الكفاية فإن أعطوا شكروا وإن منعوا صبروا راضين موافقين للقدر.

- توكل أهل الخصوص كما في قول أبي العباس بن عطاء من توكّل على الله لغير الله لم يتوكّل على الله في توكله حتى يتوكل على الله بالله لله ويكون متوكلا على الله في توكله لا لسبب آخر.

ز) مقام الرضا:

هو سكون القلب إلى أحكام الله، وموافقته لما رضي به واختاره له، ويعرّفه السراج الطوسي "بأنه باب الله الأعظم، وجنّة الدنيا وهو أن يكون القلب ساكنا تحت حكم الله عزّ وجلّ"[1].

2-2 الحال:

الحال هو ما يحلّ في القلب من صفاء الأذكار بدون مجاهدة أو تفكير، ولذلك قيل: "أن الحال هو الذكر الخفي" والحال كما يقول الطوسي: "ليس من طريق المجاهدات والعبادات

[1]- السراج الطوسي، المصدر والسابق، ص 79.

والرياضيات، بل هي تهجم على القلب كما أنها تزول عنه فجأة.[1] بمعنى آخر هو مجموعة أحاسيس روحية تلازم السالك.[2] في مراحل سفره، والأحوال كاسمه، يعني كما تحل بالقلب تزول، ويعرفها القشيري: "الحال عند القوم معنى يرد على القلب من غير تعمّد ولا اجتلاب ولا اكتساب، من طرب أو حزن، أو بسط أو قبض أو شوق أو انزعاج، أو هيبة أو اهتياج، فالأحوال مذاهب والمقامات مكاسب والأحوال تأتي من الوجود نفسه والمقامات تحصل ببدل المجهود وصاحب المقام ممكّن في مكانه، وصاحب الحال مترق عن حاله".[3] وقد أورد الإمام الطوسي في كتابه "اللمع" عشرة أحوال اتفق جلّ الصوفية عليها، وجاءت حسب الترتيب الآتي: المراقبة، القرب، المحبّة، الخوف، الرجاء، الشوق، الأنس، الاطمئنان، المشاهدة، اليقين.[4]

أ)حال المراقبة:

في اللغة هو دوام ملاحظة المقصود، والمراقبة من المنظور الصوفي هي دوام النظر بالقلب إلى الله تعالى فيراقب الإنسان أفعاله وأحكامه ويعبّر عنه باستشعاره وهي نظر الله تعالى إلى العبد في حركاته وسكناته.

قال القشيري شارحا "الحال": هذا الذي قصده الرسول صلى الله عليه وسلم عندما سئل عن الإحسان فقال جبريل عليه السلام "أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك"، إشارة إلى حال المراقبة لأن المراقبة علم العبد باطلاع المولى عزّ وجلّ عليه واستدامته لهذا العلم مراقبة ربه وهذا أصل كل خير ولا يكاد الإنسان يصل إلى هذه الرتبة إلا بعد فراغه من المحاسبة. ويميز السراج في كتابه "اللمع" ثلاثة أحوال عند أهل المراقبة.

[1]- القشيري، المصدر السابق، ص 57.

[2]- السالك هو الذي مشى على المقامات بحالة لا يعمله، ينظر: ابن عربي، المصدر السابق، ص 2.

[3]- الطوسي، المصدر السابق، ص 08.

[4]- المصدر نفسه، ص 8-9.

- حال الابتداء في المراقبة كحفظ السرائر لأن الله مطلع على الضمائر.

- الحال الثاني في اقتفاء أثر النبي صلى الله عليه وسلم في أفعاله وأخلاقه وآدابه.

- الحال الثالث حال الكبراء من أهل المراقبة، فإنهم يراقبون الله تعالى ويسألونه أن يرعاهم فيها.[1]

ب) حال القرب:

هو تقرّب السالك إلى ربّه بالطاعة ودوام الذكر بالسر والعلن، أي ملازمة العبادة والإتصاف بالطاعة ويقابل حال القرب حال العبد وهو التدنس بمخالفته والتجافي عن طاعته. ويعرّف السرّاج الحال الثاني بعد المراقبة قائلا: "يكون هذا الحال لعبد شاهد بقلبه قرب الله منه فتقرّب إلى الله تعالى بطاعته، وجمع همّه بين يدي الله تعالى بدوام ذكره في علانيته وسرّه.[2]

ج)حال المحبّة:

حال يكون فيه السالك، يغلب على قلبه صفات المحبوب الذي هو الله، إن محبة الله للعبد من صفات فعله، وهو إحساس مخصوص يلقي الله العبد به، وحالة مخصوصة يرقّيه إليها.

ومن الأشعار التي تغنت بها "رابعة العدوية" في الحب الإلهي ما يلي:

أحبّك حبّين حبّ الهوى وحب لأنك أهل لذلك.

فأما الذي هو حب الهوى فشغلي بذكرك عما سواك

[1]- السراج الطوسي، المصدر السابق، ص ص 82-83.

[2]- نفسه، ص 84.

وأما الذي أنت أهـــــــل له فكشفك إلى الحجب حتى أراك

فلك الحمد في ذا ولا ذاك لي ولكن لك الحمد في ذا وذاك.[1]

قال القشيري: "المحبّة حالة شريفة، شهد الحق بها للعبد، وأخبر عن محبته للعبد، فالحق سبحانه يوصف بأنه يحبّ العبد، والعبد يوصف بأنه يحب الحق سبحانه"[2].

لقوله جلّ شأنه ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾[3].

د) حال الخوف والرجاء:

الخوف هو الشعور بالرهبة من العقاب في الدنيا والآخرة، فصاحب الرهبة يلتجأ إلى الهرب إذا خاف وصاحب الخشية يتجه إلى الرب"

ويرى السراج الطوسي في أهل الخوف ثلاثة أحوال:

- خوف العامة، اضطراب قلوبهم مما عملوا.

- خوف الأوساط، من القطيعة واعتراض الكدورة في صفاء المعرفة.

- خوف الخصوص، وهم الذين قصدهم سهل بن عبد الله بقوله :"لو قسم ذرة خوف الخائفين على أهل الأرض لسعدوا بذلك أجمعين".[4]

[1]- غريب مأمون، المهاجرون إلى الله، القاهرة، مركز الكتاب للنشر، ط1، 1988، ص 55.

[2]- القشيري، المصدر السابق، ص 318.

[3]- سورة المائدة، الآية 54.

[4]- السراج، المصدر السابق، ص 90.

- الرجاء: هو تعلّق بمحبوب ينال في المستقبل. ثقة بسعة رحمة الله، إما بحصول نفع، أو دفع ضرر. يقول السراج الطوسي: إن الرجاء على ثلاثة أقسام: "رجاء في الله، رجاء في سعة رحمة الله، ورجاء في ثواب الله. فالرجاء في تواب الله وفي سعة رحمته لعبد مريد قد سمع من الله ذكر المنن"[1].

2) شعائر الطريق:

يدفع شيخ الطريقة بمريديه إلى شعائر روحية تحصر الجهد العقلي في القيام بأفعال مكرّرة تبعدهم عن العالم الحقيقي،ـــ وتجردهم من الحكم على الأمور بحرية.[2]

أما المريد فإنه يجاهد ليصل إلى مرحلة النفس الزكية والنقية والكمال لهذا يعمل على أن:

- ينقي نفسه من ميله للشهوات

- يستبدل هذه الشهوات بالحبّ.

- يتحوّل الحب عشقا، فيقع في لهيب العاطفة حتى يرتقي إلى حالة الوصل، فتتحوّل النفس من النقاء إلى البقاء.[3]

ويمكن الوصول إلى درجات الطريق بالزهد الصارم والصيام والتأمل وقيام الليل.[4]

[1]- السراج، المصدر السابق، ص 91.

[2] - Charles Brosselard, Les khouans de la constitution des ordres religieux musulmans en Algérie, imprimerie de A Bourget, Alger, 1952, p 20.

[3]- البقاء هو رؤية العبد قيام الله على كل شيء للمزيد ينظر: ابن عربي، المصدر السابق، ص 06.

[4] -Louis Rinn, Op,cit, p 65-66.

وتتلخص هذه الشعائر عند الإخوان في:

*** لبس الخرقة:**

من أهم خصائص الطريق الصوفي ومميزاته لبس "الخرقة" أو المرقعة وهي عندهم رباط بين الشيخ والمريد، اعتراف تام بالتصوّف والتحكم من الشيخ في المريد، وعلاقة تميّز الصوفي عن غيره من الناس وأمر مشايخ الصوفية مريديهم التزموا هم أيضا بها.

وليس المقصود من لبس الخرقة، أن يلبس المُجيز المُجاز جبّة وإنما المقصود من أن يجيزه في علم من العلوم الصوفية، وشرط المجيز أن يكون مجازا من أستاذه في ذلك العلم، وهكذا إلى أن يصل السند إلى الرسول صلى الله عليه وسلم، وشرط المجاز أن يكون قد أصبح في قابلية تامّة، بحيث يعتمد على مكانته في ذلك العلم.[1] وصفة الخرقة تختلف من طريقة إلى أخرى ولكن هدفها واحد ألا وهو أخذ العهد، أو أخذ البيعة أو المبايعة على شيخ الطريقة المرشد المربي الوارث المحمّدي على طاعة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ويأخذ لون الخرقة من طريقة إلى أخرى، فيميزهم الطريقة القادرية باللون الأخضر، والشاذلية باللون الأصفر الرفاعية اللون الأسود، المهم في الموضوع هو صفاء القلب وطهارته من العلائق والكدورات والحجب وليس بالصور والرسوم والمظاهر لقوله صلى الله عليه وسلم "أن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أجسداكم ولكن ينظر إلى أعمالكم وقلوبكم".

[1] – كمال بوغذيري، الطرق الصوفية في الجزائر، الطريقة التيجاني نموذجا، أطروحة دكتوراه مقدمة لنيل شهادة دكتوراه علوم في علوم التاريخ، جامعة الدكتور محمد لمين دباغين، سطيف، 2014-2015، ص 204.

*** الذكر:**

وهو من أجل أسباب السلوك والقرب وأعلى مناصب أولى الألباب، ومفتاح باب النفحات، وهو عندهم ركن الطريق الأقوى، ولا يصل أحد إلى الله إلا بدوام ذكره. والذكر في اللغة هو: "ما ذكرته بلسانك وأظهرته" وجاء في محيط اللغة ما يلي: "هو من جري الشيء على لسانك" هو استحضار عظمة الله في القلب، وقد يكون مع اللسان، وبه اطمئنان القلوب وحسن التعامل، وتسمى الصلاة ذكرا لأنه لبّها، والقرآن ذكر لأنه يتذكر به مطلوب في الحج"[1]

أما الذكر في الاصطلاح فهو: "التلفظ بالشيء ويجمع على أذكار، وهي الألفاظ التي ورد الترغيب فيها" واستدلوا عليه بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللهَ ذِكْرًا كَثِيرًا وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾[2] وقال تعالى: ﴿الذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ﴾[3]. وفوائد الذكر كثيرة ومتعددة منها: أنه يوقد نور البصيرة ويحقق الأنس بالحق، ويطرد الغفلة، ويعمّر الباطن ويقطع حظوظ النفس، وينوّر القلب والسريرة ويورث المعرفة بالله.

[1]- الموسوعة العربية الميسرة، مادة ذكر، مؤسسة فران كليب للطباعة والنشر، القاهرة، 1965، ص 846.

[2]- سورة الأحزاب، الآية 41-42.

[3]- سورة آل عمران، الآية 191.

*** السماع:**

يعتبر الصوفية أن السماع الصوفي من أجمل ما أنتجته الأمة من فن ونشيد كله، ينشد معناه في كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم كتعبير عن صفاء القلوب وذوقها لحلاوة التوحيد الذي يربطها بعالم الروحانيات. وقد تفطّن الصوفية إلى أهمية الألحان الطيبة في تثقيف الأرواح والقلوب، وإلى دورها في تحريك مشاعر الخير والفضائل في النفس الإنسانية التواقة إلى السمو الروحي، فأدرجوا السماع الصوفي في حلقات الذكر[1].

*** الكرامة:**

هي أمر خارق للعادة يظهره الله تعالى على يد الصالحين من أتباع الرسل عليهم السلام الملتزمين بأحكام الشريعة الربانية من غير شذوذ ولا مخالفة فضلا من الله وإكراما لهم، وهي مقرونة بدعوى نبوّة، وهي في حقيقتها تأييد وتأكيد لرسالة الرسول صلى الله عليه وسلم باعتبار أن الله أظهرها على يد صلحاء أمّته.[2]

يقول الإمام النووي: "أعلم أن من أجل الكرامات التي تكون للأولياء دوام التوفيق للطاعة والعصمة عن المعاصي والمخالفات".[3]

[1]- الدكتور قيداري قويدر، أولاد نهار والولي الصالح الشيخ الناصح سيدي يحي بن صفية، دار الأفق، طبعة 2019، ص145.

[2]- الحريري راشد محمد فتحي، كرامات الأولياء بين الوهم والحقيقة، مجلة الفيصل، العدد 211، دار الفيصل الثقافية، المملكة العربية السعودية، 1994، ص 34.

[3]- كمال بوغديري، المرجع السابق، ص 206.

جاء في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ، الذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ، لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ ذَلِكَ هُوَ الفَوْزُ العَظِيمُ﴾[1].

[1]- سورة يونس، الآيات 62-63-64.

المبحث الثاني: الولاية والكرامة الصوفية:

1)مفهوم الولي:

جاء في القاموس المحيط الولي: القرب، الدنو والولي، الاسم منه، المحب والصديق والنصير.[1] وجاء مصطلح الولي الفعل العربي "ولي" بكسر اللام وفتح الباء بمعنى قرب، وولي بمعنى حكم وأيضا حماية شخص ما.[2] والولي على وزن فعيل بمعنى الفاعل وهو من توالت طاعته من غير أن يتخللها عصيان أو بمعنى المفعول فهو يتوالى عليه إحسان الله وأفضاله، وهو العارف بالله وصفاته بحسب ما يمكن المواظب على الطاعات المتجنب للمعاصي المعرض عن الشهوات، فيسمى وليّا لموالاته للطاعات أي متابعته لها.[3] ومصدر اسم الولاء أي قريب منه[4] والولي هو الصديق والنصير، التابع المحب ومنه ولاية ضدّ عداوة.[5]

وفي المعتقد الشعبي "الولي" هو الرجل المتصوّف أو الشريف الذي ينسب إلى آل البيت أو الصحابة وإن كان البعض يرى أن مصطلح الولي يجب أن يطلق على الصحابة عليهم الرضوان.

ومن التعريفات التي وردت في الرسالة القشيرية للولي "الولي" له معنيان:

---

[1]- د. عبد الحكيم خليل سيد أحمد، مرجع سابق، ص 21.

[2]- القيروز أبادي، القاموس المحيط مادة (و.ل.ي)

[3]- كمال بوغديري، المرجع السابق، ص 189.

[4] - B. Carra Devaux « wali » Encyclopédie de l'islam, T 4 Layd Librairie Paris, 1934, p 1168.

[5]- كمال بوغديري، المرجع السابق، ص 189.

الأوّل: وهو من يتولى الله تعالى أمره. قال سبحاته وتعالى: ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾[1] فلا يكله على نفسه لحظة، بل يتولى الحق سبحانه رعايته.

الثاني: فعيل مبالغة من الفاعل، وهو الذي يتولى عبادة الله وطاعته، فعبادته تجري على التوالي من غير أن يتخلّلها عصيان، وكلا الوصفين واجب حتى يكون الولي وليّا.[2]

ومن هذه المفاهيم لأولئك الصوفية نشأ منذ أيام "الترميذي" نظام طبقي كامل في الولاية حتى أن الإمام الشعراني حدّد نظاما للحكم في الجماعة الباطنية (عند الصوفية) يقوم على أساس تسلسل المقامات والتي سبق وأن أشرنا إليها سلفا.

فحينما يقطع المريد الصادق الطريق إلى الله تعالى يحضى بالولاية كهبة إلهية أو منّة ربانيّة.[3] وللأولياء رئيس يسمى "القطب" أو "الغوث" ويساعده "الأوتاد" و"الأبدال" و"النجباء" و"الرقباء" و"النقباء" و"الرفقاء" و"أهل الغيب" وأهل "النجدة" وغيرهم من الأولياء.[4]

وقد صنف الأولياء في ترتيب تصاعدي طبقي لا يخلو الكون منهم وإن كانوا غير ظاهرين ولابدّ أن يكون عددهم أربعة آلاف، وهم مرتبون تصاعديا كالتالي:

---

[1]- سورة الأعراف، الآية 196.

[2]- القشيري، المصدر السابق، ص 128.

[3]- عبد الوهاب الشعراني، اليواقيت والجواهر، ج2، ص 78.

[4]- كمال بوغديري، المرجع السابق، ص 191.

منهم أربعة آلاف وهم "المكتومون" ولا يعرف أحدهم الآخر، ولا يعرفون أيضا جمال حالهم وهم في كل الأحوال مستورون عن أنفسهم وعن الخلق، أما أهل الحلّ والعقد وقادة حضرة الحق جل شأنه: فثلاثمائة يدعون "الأخيار".

وأربعون آخرون يسمون (الأبدال)

وسبعة أخرون يقال لهم (الأبرار)

وأربعة هم (الأوتاد) وثلاثة آخرون يقال لهم (النقباء) وواحد (القطب والغوث) .

فالغوث هو واحد لا ثاني له. وكان الجنيد على سبيل المثال "قطب" زمانه، وسيدي بومدين "الغوث" بينما كان "ابن مرزوق" واحد من الأوتاد.

2)الكرامة الصوفية:

التصوف في جوهره يقوم على عبادات وسلوكات يمارسها المتصوف مع نفسه ومع غيره، ومن ثمّ تتجلى الحياة الروحية التي قوامها الإيمان والعمل، غير أن نطاق المعرفة الصوفية ليس العقل أو الحس الظاهر، بل هو نور يقذفه الله في قلب عبده الذي طهر قلبه وزكاه. فيتم له الكشف والشهود والإلهام الصادق محكوما بالكتاب والسنة.

وقد اعتبر أبو حامد الغزالي الرؤية الصادقة دليلا قاطعا على أن هناك معرفة ليس مرجعها العقل أو الحس وبها ينكشف الغيب. وقد ورد ذلك في قوله تعالى ﴿لَهُمُ الْبُشْرَى فِي

الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةُ لاَ تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ ذَلِكَ هُوَ الفَوْزُ العَظِيمُ﴾[1] وقيل البشرى هي"الرؤيا الحسنة" يراها المرء أو ترى له.

وقد اهتم الصوفية بمسألة الكرامات ليرفعوا بها شأن الشيوخ والأولياء في نفوس الأتباع. وأدرج السراج الطوسي في "اللمع" فصلا في إثبات الآيات والكرامات ضمنه سبعة أبواب كلها في هذا الموضوع، وقص فيه روايات تخدم هذا الغرض[2].

أدرج أبو بكر الكلاباذي في كتابه التعرف على مذهب أهل التصوف في الباب السادس والعشرون في كرامات الأولياء، أكد فيه أهمية الكرامات، وحتى بطريق مباشر أو غير مباشر على طلبها[3].

كما أدرج أبو القاسم القشيري في رسالته القشيرية فصلا طويلا خصصه لروايات خوارق الشيوخ الصوفية وذكر غرائب أحوالهم[4].

[1]- سورة يونس، الآية 64.

[2]- الطوسي، المصدر السابق، ص 390.

[3]- الكلاباذي أبو بكر، التعرف بمذهب أهل التصوف ، المصدر السابق، ص ص 86-87

[4]- ينظر الرسالة القشرية، ص 351.

المبحث الثالث: الجوانب الجمالية والفنية للتصوف

سنحاول في هذا العنصر من بحثنا تسليط الضوء على الدلالات والأبعاد الروحية والاجتماعية والثقافية والفنية للتصوف خلال العهد العثماني في الجزائر. فبقدر ما سيطرت روح التصوف على الحياة العلمية والاجتماعية في الجزائر بقدر ما كثر إنتاج العلماء في هذا الميدان. فنجد الكثير من الكتب والرسائل والتقاييد كالأذكار والأوارد، والمناقب والمواعظ والحكم والشروح الخاصة بقصائد صوفية.[1]

وإذا نحن حاولنا الحصول على مادة علمية غريزة تتصل بالتصوف والمتصوفة في الجزائر خلال العهد العثماني لابد من الرجوع إلى المصادر المخطوطة والمحققة لإماطة اللثام عن هذه الفترة التاريخية. ومن أهم هذه المخطوطات التي أشارت إلى التصوف والمتصوفة مخطوط كعبة الطائفين لمؤلفه محمد بن سليمان الصائم التلمساني الملقب بالجزولي الذي عكف على تحقيق الجزء الأول منه الأستاذ قيداري قويدر والذي قدّم من خلاله معلومات قيمة كانت مجهولة عن تاريخ منطقة هامة من الجزائر وعلى وجه الخصوص تلمسان، إحدى أهم الحواضر الإسلامية في العصر الوسيط والتق فقدت وهجها وتراجعت مكانتها العلمية والثقافية خلال العهد العثماني وهذا بشهادة الأستاذ الدكتور أبو القاسم سعد الله حيث يقول: و لم تستعد تلمسان مكانتها العلمية التي كانت تتمتع بها خلال القرنين (14-15م) فقد ظلت خلال العهد العثماني مدينة مهزومة تعاني من التذمر والفقر.[2]

سنسعى من خلال هذه الدراسة الحديث عن ظاهرة الحضرة (حلقات السماع الصوفي) التي تعتبر أبرز الطقوس والممارسات الصوفية، وهي تمتد على حيز كبير من تراثنا الصوفي

[1]- د. أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، ص 111.

[2]- نفس المرجع، ص 177.

الإسلامي عامة وتراثنا الصوفي الجزائري خاصة. وحتى نشفي غليل الدارسين والقراء للتراث الصوفي ونلفت أنظارهم لمثل هذه الموضوعات سنتحدث عن أصول هذه الظاهرة الصوفية وعمق امتداداتها في تراثنا الشعبي الجزائري الذي مازال في حاجة إلى دراسات أكاديمية جادة، لا ندعي أننا استوفينا الموضوع حقه لكن نحاول جهد المستطاع تقريب الصورة من القارئ والباحث لعلنا نكون لبنة من لبنات تضاف إلى الحقل المعرفي الصوفي.

1- التجربة الصوفية (التخلية والتحلية):

التصوف تجربة إنسانية تهدف إلى تحرير الذات البشرية من أسر المادة والشهوات والانطلاق نحو عالم الغيب والطهارة والسموّ.[1]

فإذا كان مرجع الشريعة إلى امتثال أمر أو اجتناب نهي، فإن مرجع التصوف ومرجع الطريقة إلى تخلية وتحلية.

فالتخلية: التطهير من الرذائل والتحلية الإتصاف بالفضائل.

وتعد الممارسات الصوفية من أهم العوامل التي تساعد على بقاء التصوف وديمومته.

ولابد لهذا السير في طريق الله من شروط.

- من شروط الطريق اتخاذ شيخ، فالمشايخ هم الطريق إلى الله تعالى والأدلاء عليه والباب الذي يدخلون منه عليه, وعلى حد قول بعض العارفين "من لا شيخ له الشيطان شيخه" فهو القدوة والمثل الأعلى للمريد يأخذ عنه السّر وخبايا التصوّف الحقيقي.

[1]- قيداري قويدر، المرجع السابق، ص 134.

1-1 العهد الصوفي: يعد العهد البداية الرسمية للمريد في رحلة السير إلى الله تعالى وترسيم العلاقة بين المريد والسالك وشيخه المربي.

1-2 الذكر فرد وجماعة: الذكر هو أصل كل مقام وقاعدته التي يبنى عليها، كما يثمر الذكر المعارف التي شمّر إليها السالكون.

1-3 الحضرة (السماع الصوفي): أشار إليها مؤلف "كعبة الطائفين" باعتبارها أكثر الممارسات انتشارا في تلمسان خلال القرن 11هـ/ 17م[1] فالنفوس ترقى وتلين وتهذب بالحضرة.

وهدف الشيخ وغايته إعانة النفوس بما يقتضيه حالها، لأن الطباع مختلفة وأحوال السالكين طريق الله متباينة.

ويمكن الإشارة إلى أن الصوفية قد تفردوا بين رجال الدين بالاهتمام بالسماع الصوفي و لم يشترطوا إلا حسن النية وشرف القصد.

ونفس المعنى أشار إليه أسعد أحمد علي: "أما التصوّف والفنّ أسلوبان في التعبير عن حبّ الجمال... وإن الفنون على تنوعها من موسيقى وغناء وشعر وتصوير تعبّر بالنغمة والحركة والصوت والتفعيلة وبذلك يلتقي الفنان الكبير الملهم مع الصوفي العارف الفاني.[2]

[1]- قيداري قويدر، المرجع السابق، ص 137.

[2]- علي أسعد أحمد، فن المنتخب العالي وعرفانه، دار الرائد العربي، بيروت، ط2، 1980، ص ص 484-485.

ويعتبر ري هويمان أن الفنّ والتصوّف يتفقان اتفاقا تاما باعتبار أن الفنّ ينتصر للخير، وبالتالي يكون في خدمة التصوف الذي يعتبر أيضا علما للأخلاق حيث يقول: "يبدو لنا أن الدين هو ألف الجمالية وياؤها، فالفنّ يبدأ أو ينتهي بالمقدّس"[1].

ومن هنا يتضح كيف أن الصوفية يتخذون من الفنّ طريقا إلى الحياة الروحية الخالصة، أي يخاطبون القيم الروحية بلغة الجمال الفنية.

الخلاصة:

يسلك المتصوفون طريقا خاصا يتمثل في تلك التجربة الروحية التي يحياها عبر مراحل متعاقبة تتميز بمعانات النفس واكتسابها صفات وخصائص متنوعة وأحوال مختلفة فالطريق الصوفي هو السبيل الذي يسلكه المريد وصولا إلى المراد .

[1]- ري هويمان، علم الجمال، ترجمة: ظافر الحسن، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط2، 1975، ص 185.

الفصل الخامس

أعلام التصوف في الجزائر خلال العهد العثماني

لقد شكل القرن العاشر هـ(16م) والحادي عشر هـ (17م) و12هـ/ 18م نقطة تحوّل بارزة في تاريخ التصوف بالجزائر وعلى مستوى التأليف والتنظير والممارسة. ثم تكاملت عناصر هذا التحول وترسخت قواعده من خلال الحضور الفعلي لرجال التصوّف في قلب الأحداث الاجتماعية والثقافية التي عرفتها البلاد طوال النصف الأول من القرن 11هـ/ 17م وبعده. ويتوفر اليوم الباحث الجزائري على مادة مصدرية هامة تهمّ مجالات التصوّف بمختلف تجلياته مما وفّر أرضية خصبة لأعمال وأبحاث قيمة تعتبر بحق بداية لتراكم تجربة علمية رائدة. ومن أشهر متصوفة الجزائر خلال العهد اللعثماني عبد الرحمن الأخضري وسيدي محمد بن علي أبهلول وعبد الكريم الفكون والحسين الورتلاني وأبو راس الناصري. ولا شك أن هذه الشخصيات الخمس من أبرز رجال التصوف الذين ميزوا القرون التي عاشوا فيها بفضل مؤلفاتهم المتنوعة ومواقفهم من السلطة العثمانية.

المبحث الأول: عبد الرحمن الأخضري:

هو الشيخ العلامة الإمام الصوفي، الزاهد، الورع، التقي، المستقيم، الأستاذ، المعلم، المصلح، المجتهد، المحقق، المثقف، الباحث في شتى الفنون والعلوم، سيدي أبو زيد عبد الرحمن ابن محمد الصغير بن محمد بن عامر الأخضري. هذا ما ثبت حتى الآن بخصوص نسبه، ذلك أن آراء الناس اختلفت بعد ذلك في تسلسل أسماء أسلافه.

وإذا كان عبد الرحمن الأخضري ينسب نفسه إلى الصحابي الجليل العباس بن مرداس أبي عامر السلمي، فقد شكك البعض في هذا النسب ، وبالمقابل ينسبونه إلى خضر بن عامر بن رياح، زاعمين في الوقت ذاته بأنه ينسب إلى بطن من بطون الدواودة وبذلك يخلطون بين سلسلة خضر بن عامر بن رياح والسلسلة التي تشمل الدواودة أبناء داود بن مرداس بن رياح، من جهته يضع الأخضري نفسه ضمن سلسلة أخرى لا علاقة لها بما سبق ذكره، وتلك السلسة تمتد في قبيلة بني سليم العربية المختلفة تسلسليا مع بني هلال[1].

وعلى هذا الأساس لا يوجد ما يوجب نكران انتساب الأخضري للصحابي العباس بن مرداسن خاصة وأن الذين أنكروا هذا النسب لم يقدموا تعليلا مقنعا وشافيا، لذا فاحتمال صحة نسب الأخضري للعباس بن مرداس ليس بعيدا، علما بأن هذا الصحابي ينتمي لقبيلة بني سليم. هذا ما يمكن قوله بخصوص نسب الأخضري من جهة أبيه، أما نسبه من جهة أمه، فلا توجد معلومات تستدعي التوسع والشرح ، سوى أن أمه اسمها حدّة وهي من تفلفال بغسيرة، تلك القرية المحفوفة بالنخيل والأشجار، والممتدة بامتداد الوادي الأبيض بمياهه العذبة الرقراقة والمتكئة إلى سفوح جبل الأوراس الأشم.

[1]- بوزياني الدراجي ، عبد الرحمن الأخضري العالم الصوفي الذي تفوق في عصره، ط02، الجزائر، 2009، ص ص 11-12.

مولد الأخضري:

وكما اختلف الناس في نسب الأخضري، تضاربت أقوالهم حول تاريخ ميلاده ووفاته، فبينما يرى بعضهم أنه ولد في سنة 910هـ/ 1504م وتوفي في 953هـ/ 1546، يقول آخرون أنه ولد في 918هـ/ 1512م وتوفي عام 953هـ/ 1546م.

ومن جهة أخرى يرى بعض الباحثين أنه ولد في عام 920هـ/ 1514م وتوفي إما في عام 982هـ/ 1574م أو في 983هـ/ 1575م ويبدو أن دافعهم لذلك هو ما ورد في بيت الأخضري حيث نظم "الدار البهية" الشبيهة بالأجرومية حيث قال فيها.

"تمّ بحمد الله ما قصدنا من نظم هذه الـــــتي أردنا

سميتها بالدرة البهيـــــة ففي لما لها في أصلها محويــة

وكان في محرّم الحـــرام بدءًا وختمنا لذا النظـــام

في إحدى وثمانين سنـــة من بعد تسعمائة مستحسنة

بناء على هذه البيات فاعتقد العالمون أنه كان حيا في هذه السنة على الأقل.[1]

لكن الدكتور أبو القاسم سعد الله يرى في ذلك البيت تصحيفا حيث يحتمل أن تكون كلمة ثمانين قد استبدلت بثلاثين.[2]

[1]- المهدي بوعبدلي، عبد الرحمن الأخضري وأطوار السلفية في الجزائر، مجلة الأصالة، جانفي 1978، العدد 53، جانفي 1978، ص25.

[2]- سعد الله أبو القاسم، تاريخ الجزائر الثقافي، ج01، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، 1998، ص 500.

ومجمل القول، يمكننا مجاراة الرأي الأكثر شيوعا وهو الذي يفيد بأن مولد عبد الرحمن الأخضري. في أوائل العهد العثماني في بنطيوس من قرى نواحي بسكرة، يقول عنها البكري: "وبسكرة مدينة كبيرة، كثيرة النخيل، والزيتون وأصناف الثمار ومن مدنها مدينة طولقة ومدينة مليلي ومدينة بنطيوس وهي بنيانها للأول"[1] وفي بسكرة نما وشبّ الأخضري وأخذ العلم عن والده وشقيقه الأكبر، كان والده من علماء عصره، وتذكر بعض الروايات أن الأخضري قد طلب العلم بقسنطينة واخذ على الشيخ عمر الوزان.[2] كما طلب العلم بتونس وأخذ على مشايخ جامع الزيتونة. وتشير دراسات معظم المترجمين لحياة الأخضري أنه عاش بين سنتي 920هـ/ 1514م و953هـ/ 1540م وبذلك يكون هذا العلامة قد توفى في مقتبل العمر إذا لم تتجاوز أيام حياته الثلاث والثلاثين سنة.

ومن هنا يمكن إدراك مدى عبقرية هذا الرجل الذي قدم لعصره خلال سنوات محدودة ما عجز عنه الآخرون ممن عمروا طويلا في ذلك العصر المتردي في أحواله ، الجدب في تراثه الفكري.[3]

مكانته العلمية:

على الرغم من قصر عمر الأخضري كما سبق ذكره فقد كانت أيامه مليئة بالثمار والإنتاج العلمي إذ يقال عنه أنه أنجز قرابة الثلاثين من المتون وشروحها في مختلف العلوم وشتى الفنون.

[1]- اسماعيل العربي، المدن المغربية، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1984، ص ص182-183.
[2]- حنيفي هلالي، أوراق في تاريخ الجزائر الثقافي، دار الهدى، ط1، 2008، ص230.
[3]- بوزياني الدراجي، المرجع السابق، ص 14.

ومما يلاحظ على حركة التأليف أن الجزائر في العهد العثماني تميزت بظاهرة إنتاج العلماء للشروح والحواشي والتقاييد والرسائل. ومن أشهر المؤلفين في هذه المرحلة عبد الرحمن الأخضري.[1]

فقد ظهرت على الأخضري علامات النبوغ والتفوق في سن مبكرة، حيث شرع في التأليف ونظم متون العلوم وهو فتى لا يتجاوز سنه سبعة عشر سنة، إذ أنجز وهو في هذا العمر منظومة "السراج" في الفلك، كما أنجز منظومة "أزهار المطالب في هيئة الأفلاك والكواكب" وقد خصها للاسطرلاب وهي آلة فلكية قديمة ترصد من خلالها مواقع الكواكب والنجوم والأجرام السماوية ومعرفة الوقت"[2]، كان عمره عشرون، أما منظومة "السلم المرونق" في المنطق والحكمة فقد أكملها وهو في سن الحادية والعشرين سنة"[3].

وقد سجّل ذلك خلال نظمه لها حين قال:

ولبني إحدى وعشرون سنة معذرة مقبولة مستحسنـــــة

لا سيما في عاشر القـــرون ذي الجهل و الفساد والفتون

وكان في أوائل محـــــــرم تأليف هذا الرجز المنظـــــم

من سنة إحدى وأربعيـــن من بعد تسعة من المئيـــــن

[1]- حنيفي هلايلي، أوراق في تاريخ الجزائر، العهد العثماني، دار الهدى، الطبعة الأولى، 2008، ص 233.

[2]- فوزي مصمودي، العلامة الموسوعي عبد الرحمن الأخضري شخصية ومواقفه وآثاره، موفم للنشر ، الجزائر، 2008، ص146.

[3]- بوزياني الدراجي، المرجع السابق، ص 15.

كما أنه أنجز المنظومة القدسية وهو في سن الأربعة وعشرين أي في سنة 944هـ حين قال في ختامها:

في أربع وأربعين قد نجز من عاشر القرون قل هذا الرّجز

أما منظومة الجواهر المكنون فقد أنجزها في منتصف القرن العاشر للهجرة أي في حدود 950هـ، وقد أشار إلى ذلك في آخر المنظومة حين قال:

ثم بشهر الحجة الميمون تتم نصف عاشر القرون

وبذلك يكون عمر الأخضري وقتئذ لا يتجاوز الثلاثين سنة.[1]

الأخضري والتصوّف:

يعد التصوف ظاهرة دينية ومفهوم معين للإسلام. عرفه التاريخ الإسلامي قوامة فلسفة روحية مرهفة ترتكز على الذكر، والاعتكاف وفق أساليب مرهفة للنفس لحملها على الطاعة حتى تزكوا وترتقي إلى مراتب عليا من الإيمان، ومع هذا يجب الاعتراف بأن عبد الرحمن الأخضري لم يأت من العدم وبالمطلق، و لم يكبر في تربة غير صالحة للحرث والإنبات، بل هو سليل أسرة علمية صوفية، أنجبت العديد من العلماء، منهم جده محمد بن عامر الذي ألف كتابا في الفتاوى، ثم أبوه محمد الصغير الذي ألف حاشية لكتاب سيدي خليل.[2]

[1]- بوزياني الدراجي، المرجع السابق، ص ص 15-16.

[2]- هو من علماء المالكية في مصر، عرف بلقب ضياء الدين لأنه كان يلبس لباس الجند، ألف المختصر في الفقه المالكي، وهو أهم كتبه، ثم "التوضيح"، وهو شرح لمختصر ابن الحاجب، وكتاب المناسك، ومخدرات الفهوم فيما يتعلق بالتراجم والعلوم، لا يعرف تاريخ ميلاده كما اختلف الناس في سنة وفاته فمن قال: أنها 776هـ/ 1374م أو قائل أنها تكون في عام 767هـ/ 1365م، أو سنة 769هـ/ 1367م أو 835هـ/ 1431م، أو كما قال صاحب الديباج المذهب، من انه توفي بالطاعون سنة 749هـ/ 1348م.

كما ألف كتابا عالج موضوع التصوف، حيث انبرى لنقد المنحرفين والخارجين عن المنهج السليم من أصحاب البدع ممن سماهم بـــ "الدجاجلة" ويبدو أنه تأثر بأستاذه أحمد الزروق الفاسي.[1]

إذن عبد الرحمن الأخضري نشأ في وسط علمي متمسك بالشرع، حريص على نبذ البدع والأوهام التي تتعارض مع الكتاب والسنة، ويبدو أن عقله كان عقلا رياضيا أكثر منه فقط عقلا صوفيا يميل إلى الغموض والروحانية. وإن القراءة المتأنية لأبيات القدسية تجعلنا نجزم بأن الأخضري كان من المحاربين للبدع وأصناف الشرك ومما جاء في المنظومة ما يلي:

وقال بعض السادة الصوفية مقالة صادقة جليـــــــــــة

إذا رأيت رجلا يطيـــــــــر أو فوق ماء البحر قد يسيـــر

و لم يقف عند حدود الشرع فإنه مستدرج وبدعـــــــي

والشرع ميزان الأمور كلها وشاهد لأصلها وفرعـــــها

والشرع نور الحق منه قد بدا وانفجرت منه ينابيع الهـــدى

وقال بعض أوليـــــــاء الله السالكين بصـــــــراط الله

من ادّعى مراتب الجمـــال و لم يقم بأدب الجـــــــلال

فارفضه إنما الفتى دجـــال ليس له التحقيق والكمـــال

[1]– وردت ترجمة أحمد بن أحمد بن محمد بن حسين البرنسي الفاسي، الشهير بزروق في كتب عديدة أهمها كتاب البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، ص ص 45-50، وجاء فيه أنه ولد سنة 846هـ وتوفي سنة 899، (1442م-1493م)

ففر منه إنه شيطان مخادع ملبّس خوان [1]

وفي موضع آخر يشير الأخضري إلى الضلال والزيغ الذي أبداه بعض المتصوفة المخادعين الذين اتبعوا مسلك الشيطان وهدموا قواعد الشرع الحنيف، ومما جاء في المنظومة.

فهذه طريقة الرجـــــال وآل أمرهـــا إلى الزوال

وكثر الملبسون فيـــــها وصار ذو البدعة يدعيها

فأعرضوا عن سبل الرحمن واتبعوا مسالك الشيطان

وهدموا قواعد الإســـلام واعتبروا خرائف الأوهام

وعكسوا حقائق الأمـــور ونصبوا حبائـــل الفجور

آه على طريقة قد ذهبت وهدمت أصولها وقلبت

آه على طريق أهـــل الله آه على طريق حزب الله

طريقة أفسدها أهل البدع فتركت مهجورة لا تتبع

طريقة أفسدها الفجـــار فكثروا وانتشروا وثاروا[2]

يعالج الناظم في هذه الفقرة (من 295-328) موضوع الدجالين المبدعين زورا للتصوف، حيث يتأسف على الطريقة الصحيحة التي أفسدها الدجاجلة الذين أحدثوا طريقة مبتدعة ورفضوا الطريقة الشرعية. وبعد هذا يتحسّر على الصراط المستقيم الذي يدعيه

[1]- بوزياني الدراجي، المرجع السابق، ص ص192-193.

[2]- المرجع نفسه، ص ص 213-215

الأفاكون والآثمون باجتيازه. ثم يقول متأوها: آه على طريقة الصوفية التي أفسدها أهل الضلال والفجور فتعرضت أصولها للتهديم. وهكذا ظهرت في أرجاء البلاد طائفة لا يهمها سوى البلع والازدراد.[1]

وفي ختام القدسية بين أن الأخضري أنه متمسك بقواعد الدين وأنه يتبع طريقة شيخه الزروق.

ولا أزال هكذا مستمســـكا عسى دليل القوم يسمع البكا

وأسفا على الرجال الكاملين قد ذهبوا بين العباد خاملين

فستروا بظلمات البـــــدع فلم يبين صادق من مـــدع

ومن لم يرد معرفة بالبـــدع وما يبنى عليه أصل المـــدع

ففي كتاب شيخنا الـــزروق عجائب فائقة الرتـــــوق[2*]

وهكذا ارتبط الفقه والعلم وبزهد وتصوف عبد الرحمن الأخضري الذي كان عالما وعاملا في نفس الوقت، وكما قال أبو مدين شعيب "ليس التصوف بالرهبانية وأكل الشعير والنخيل وارتداء اللباس الخشن، وإنما بالعلم واليقين والصبر والهداية.[3]

[1]- بوزياني الدراجي، عبد الرحمن الأخضري، العالم الصوفي الذي تفوق في عصره، المرجع السابق، ص 218.

[*] الرتوق: المتعة والعز والشرف.

[2] المرجع نفسه، ص ص 219-220

[3]- محمد بن محمد الأندلسي، السراج الحلل السندسية في أخبار التونسية، تحقيق محمد الحبيب الهبلة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ج01، 1985، ص 835.

مؤلفاته:

لقد اعتنى عبد الرحمن الأخضري بمختلف العلوم شرعية وعقلية، جلها مفقودة أو بحوزة بعض العائلات الخاصة القريبة من الشيخ.

مجمل القول أن مؤلفات الأخضري قد يصل عددها حوالي عشرين تأليفا، بل هناك من يرى أنها قد تصل إلى الثلاثين منها ما هو معروف ومنها ما هو مفقود. وينوّه المؤرخ الجزائري أبو القاسم سعد الله بالقيمة العلمية للعلامة الأخضري خلال القرن 16م، حيث يقول: فإذا عدنا إلى دراسة الإنتاج العلمي وجدنا كمية ضئيلة خلال العهد العثماني، ولولا بعض الأعمال التي كتبها عبد الرحمن الأخضري وسحنون بن عثمان الونشريسي.[1] وبن حمادوش.[2] لخلا هذا العهد أو كاد من التأليف في العلوم الحسابية والفكرية ونحوها. وقد نظم الأخضري الجوهر المكنون في حد ثلاثة فنون أي حول المعاني والبيان والبديع عام 950هـ وقد جاء في أوّله.

اَلْحَمْدُ لِلهِ الْبَدِيعِ الْهَادِي إِلَى بَيَانِ مَهْيَعِ الرَّشَـــــــادِ

أَمَدَّ أَرْبَابَ النُّهَى وَرَسَمَا شَمْسَ الْبَيَانِ فِي صُدُورِ الْعُلَمَاء

[1]- أبو العباس أحمد بن يحي بن محمد بن عبد الواحد بن علي الونشريسي ولد حوالي (834هـ/ 1430م) وتوفي 914هـ/ 1508م) ترك عديد من التصانيف جلها في أمور الفقه ومسائل الشريعة أشهرها المعيار المعرب والجامع المعرب عن فتاوي علماء إفريقية والأندلس والمغرب، للمزيد: ينظر ناصر الدين سعيدوني، من التراث التاريخي والجغرافي للغرب الإسلامي، ط1، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1999، ص ص 277-285.

[2]- عبد الرزاق حمادوش الجزائري، ولد بالجزائر حوالي 1110هـ/ 1695م قام بعدة أسفار وترك مصنفات في علم النبات والتداوي بالأعشاب عرف بكشف الرموز، وكتاب في الرحلة عرف بـ "لسان المقال في الباء عن النسب والحساب والحال" للمزيد راجع سعد الله أبو القاسم تاريخ الجزائر الثقافي، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، 1998، الجزء الثاني، ص ص: 425-429)

فَأَبْصَـــرُوا مُعْجِزَةَ الْقُرْآنِ وَاضِحَةً بِسَاطِعِ الْبُرْهَـــانِ

وَشَاهَدُوا مَطَالِعَ الْأَنْـــوَارِ وَمَا احْتَوَتْ عَلَيْهِ مِنْ أَسْرَارِ[1]

والجوهر المكنون أرجوزة نظمها الأخضري لخص فيها كتاب "التلخيص في علوم البلاغة" لجلال الدين محمد بن عبد الرحمن الفزويني.[2]

وقد ألفه الشيخ الأخضري نزولا عند رغبة بعض طلبته ورجاء منهم يسهل عليهم إدراك علوم المعاني والبيان والبديع وفي ذلك قال:

وَقَدْ دَعَا بَعْضٌ مِنَ الطُّـــلاَّبِ لِرَجَزٍ يَهْدِي إِلَى الصَّـــوَابِ

فَجِئْتُهُ بَرَجَزٍ مُفِيـــــــــــدِ مُهَذَّبٍ مُنَقَّحٍ سَدِيـــــــــــدِ

سَلَكْتُ مَا أَبْدَى مِنَ التَّرْتِيبِ وَمَا أَلَوْتُ الْجُهْدَ فِي التَّهْذِيبِ

سَمَّيْتُهُ بِالْجَوْهَرِ الْمَكْنُـــونِ فِي صَدَفِ الثَّلاثَةِ الْفُنُـــونِ

المهم أن هذه المنظومة وجدت عناية كبيرة من قبل العلماء والطلاب، فنقلت واستظهرت وشرحت وقد تولى الأخضري بنفسه شرح "الجوهر المكنون" فأنجز له شرحا واقيا فاق التلخيص للقزويني، وهو موجود بالمكتبة الوطنية الجزائرية، عموما فقد اهتم بهذا الشرح عدد من العلماء في المغرب والمشرق، من هؤلاء الشيخ أحمد بن المبارك القسنطيني في كتابه (نزهة العيون في بيان شرح الجوهر المكنون) الذي أكد أن الشيخ الأخضري كان قد توفي قبل أن

[1]- أحمد الدمهوري، حلية اللب المصوت بشرح الجوهر المكنون الطبعة الأولى المطبعة العلمية، مصر، 1315هـ، ص ص: 9-10.

[2]- هو أبو المعالي جلال الدين محمد بن عبد الرحمن بن عمر ولد بالموصل سنة 666هـ- 739م وتوفي بدمشق سنة 1268هـ/ 1338م فقيه شافعي وأديب.

يتم شرحه لأن الوفاة عاجلته في ريعان شبابه. كذلك العلامة عبد الكريم الفكون القسنطيني الذي حاول تبييض المخطوط الخام "للجوهر المكنون" ومحمد بن محمد علي بن موسى الثغري الذي كتب "موضح السر المكنون على الجوهر المكنون)، ويوجد كما يقول الشيخ عبد الرحمن الجيلالي هذا الشرح مع شرح الأخضري زوايا مدينة معسكر، حي بابا علي العتيق.[1]

حيث عمل الثغري على إيضاح المبهم وجلاء الغامض في الجوهر مع إبرازه جمال اللغة العربية وبلاغتها المتميزة.[2]

ثانيا: منظومة القدسية:

هي منظومة طويلة نظمها الأخضري سنة 944هـ/ 1537م كان عمره حينها أربعة وعشرون عاما تحتوي على 357 وقيل 346 و345.

وتتضمن القدسية في عمومها آداب السلوك والطريق وكذا جوهر الإنسان وحقيقته بعيدا عن البدع والخرافات، كما تدعو إلى التمسك بالعلم الصحيح المستنبط من الكتاب والسنة. وقد شاعت هذه المنظومة القدسية وذاع صيتها بين طلاب العلم والمتصوفة، حتى أضحت تدرس في معظم المعاهد والزوايا وقتئذ، فقد وصل الحد بالبعض إلى حفظها واستظهارها عن ظهر القلب.[3] ومن المواضع الهامة التي تعالجها المنظومة التصوّف والوعد والإرشاد الديني والأخلاقي، جاء في مطلع هذه القصيدة الرائعة:

[1]- عبد الرحمن الجيلالي، تاريخ الجزائر، ج3، ص ص: 80-81.
[2]- فوزي مصمودي، المرجع السابق، ص 132.
[3]- بوزياني الدراجي، المرجع السابق، ص 148.

يقول راجي رحمة المقتدر المذنب العبد الذليل الأخضري

بحمد رب العالمين أبتدي ثم صلاته على محمـــــــــد

ياطالبا على كمال قدسه وقاصدا إلى علاج نفســـــــه

أعلم بأن الجوهر الإنساني هو الذي يدعونه الروحـــاني

منشؤه في العالم العلوي وموذع في القالب الجسمـــي

قد عمل الشيخ الأخضري على الكثير من الآيات والأحاديث النبوية والنصوص الشرعية في تبيان حقيقة التصوف الذي انتشر في ربوع المغرب الإسلامي في عهده. كما استفاد كثيرا من أفكار من سبقه وكتب شيوخه وشيوخ والده، كالشيخ أحمد زروق الفاسي المتوفى عام 899هـــ وفي ذلك يقول: ومن يرد معرفة بالبدع وما يبنى عليه أصل المدعي

ففي كتاب شيخنا الزروق عجائب فائقة الرتوق.[1]

ثم يصلي على النبي محمد صلى الله عليه وسلم فهو الذي أنزل عليه القرآن فبدد به الضلال وقد اختتمها بالسنة التي قيلت فيها وهي 944هـــ.

ثم صلاة الله كل حـــــين على أجل من أتـــــــى بالديـــن

محمد سلطان أهل الحضرة وآله أجل كـــــل زمـــــــــرة

في أربع وأربعين قد نجـــز من عاشر القرون قل هذا الرجز.[2]

[1]- الرتوق، المتعة والعز والشرف، ينظر بوزياني الدراجي، المرجع السابق، ص152.

[2]- عبد الرحمن الأخضري، القدسية مخطوطة.

ثالثا: القصيدة اللامية في التصوف والإرشاد الديني

من شدة حبه للنبي صلى الله عليه وسلم وتعلقه الشديد به فقد خصه بقصيدة تضم 254 بيتا عرفت باللامية وقد استهلها ببيت حمد فيه الله وأثنى عليه وصلى على نبيه مع مديح يليق بمقامه صلى الله عليه وسلم وكيف تباشرت الكائنات بميلاده والفضائل التي خصّه الله بها وتفضيله إياه عن سائر المخلوقات، كيف لا وهو الشفيع المشفع.[1] يوم القيامة مطلعها:

الله المـــقتدر الأول سبحانه جلّ عن المثل

سبحانه هـــــو الصمد الفرد الجبـــــّار الأول

لله الحمد على نعـــــم منها الإرشاد إلى السبل

فهدى برســـول الله إلى أذكى ما كان من الملل

صلوات الله عليـــه مدى مرّ الإصباح مع الأصل

زكاة الله وفضـــــــله وحباه مقام القاب عل

ثم يسترسل في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم إلى طلب المغفرة والصفح الجميل بعدما كثرت ذنوبه وعظمت خطوبه فيرفع نداءه إلى ربّه.

يا رب لطفك يا محمد إني في لطفك ذو أمل

فاغفر للعبد جنايته أنت الغفّار لذي الزلل

[1]- فوزي مصمودي، المرجع السابق، ص 166.

يا نفسي توبي ولا تهني في تقوى الله والعمـــل

فعسى تنجيني من المحن وعذاب الناس المشتغل.[1]

ولم يدع عبد الرحمن الأخضري أثناء حياته كرامة وكشف سرّ ولا إدراك علم الظاهر والباطن، وإنما كان عالما عاملا يؤلف المتون ويشرحها ويجمع الكتب ويفهمها، ويجلس للدرس ويخرج للتلاميذ، شأن العلماء الصالحين. غير أن المتأخرين في عصر أصبح العقل فيه يتقبل كل ناعقة، نسبت إليه كرامات كثيرة منها أنه صاحب دعوى قد ظهر وادعى أنه يعلم الناس الثمر الرطب في غير وقته، فذهب إليه عبد الرحمن الأخضري، فوضع يده على ثمرة المزعوم فأصبح روثا.[2]

وإلى عهد قريب ظلّ المهتمون من الباحثين في تاريخ التصوّف بالجزائر لا يعيرون لكرامات الصوفية أدنى اهتمام من وجهة نظرهم الجازمة بأنها مجرّد ظاهرة سلوكية مرتبطة بقوى غيبية، ومشاهدات سحرية وخرافية، يعتنقها السذج من الناس. بينما هي في واقع الأمر إفراز لظروف تاريخية صعبة سقطت بظلالها على النواحي الاجتماعية والاقتصادية والسياسية للمجتمع الجزائري.

أما حيث مدلولها الفكري والمعنوي فهي: بنية أساسية في الفكر البشري كالبنية العقلانية بنمط مجتمعي وبأسلوب معيشي في الوجود، وممارسة معتقد ديني وتأكيد لها المعتقد.[3]

[1]- فوزي مصمودي، المرجع السابق، ص 166.

[2]- سعد الله أبو القاسم، المرجع السابق، ج1، ص501.

[3]- إبراهيم القادري، بوتشيش، الإسلام السري في المغرب العربي، ط1، القاهرة، دار ابن سينا للنشر، 1995، ص 132.

وعندما توفي الشيخ الأخضري سنة 983هـ/ 1575م، حسب رأي العديد من المؤلفين والمؤرخين أبرزهم المهدي بوعبدلي والعلامة عبد المجيد حبة في كجال نواحي سطيف وأراد الناس نقله إلى بنطويس مسقط رأسه لدفنه ذكروا أن كل من شارك في عملية النقل قد طويت بهم الأرض مع النعش.

ومن الواضح أن هذه الروايات الأسطورية لا تمت بصلة لعبد الرحمن الأخضري الذي تلقى ورد الطريقة الشاذلية والزروقية.[1] على يد الشيخ محمد بن علي الخروبي، ولعله تأثر بتعاليم عمر الوزان الذي يجمع بين العلم والعمل به وبين التصوف والفقه.

خلاصة القول أن الأخضري قد أثر بعلمه أكثر مما أثر بتصوفه أو حسبه أن معظم كتبه تدرس في أهم المعاهد بالمغرب والمشرق كالأزهر والزيتونة والقرويين بالإضافة إلى المدارس والزوايا بتلمسان والجزائر وبجاية، قسنطينة، وبسكرة وغيرها من البلدان الإسلامية في آسيا.[2]

[1]- أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص 501.

[2]- بوزياني الدراجي، المرجع السابق، ص 51.

المبحث الثاني: عبد الكريم الفكون

1-أسرته:

ينتمي عبد الكريم الفكون إلى أسرة عريقة توارث'ت العلم والوظائف المخزنة كما اشتهرت بوفائها للحكم العقماني منذ أن استقرّ الأتراك والعثمانيون بالمنطقة في القرن 16م وهذه العائلة كما يشير إلى ذلك الدكتور سعد الله قديمة في مدينة قسنطينة تنتسب إلى بني تميم وبالتالي فهي عربية، كما أن جد هذا الإمام من جهة أمه كان من الأشراف الحسنيين اشتغل مزوار الشرفاء. إلا أن هناك رأي آخر في الموضوع، مثلما ذهب إلى ذلك عبد القادر الراشدي العالم الذي عاش في نهاية القرن 12هـ الموافق لـ 18م يقول بأن عائلة الفكون ليست شريفة ولا تميمية كما تزعم، لكنها من قرية فكونة الواقعة في الأوراس، وعرفت هذه العائلة فيما بعد بأسرة ابن الفكون وأحيانا بعائلة سيدي الشيخ أو المقصود به الإمام الذي نحن بصدد ترجمته، ولا ريب حسب سعد الله أن هذه العائلة قديمة في التاريخ.[1]

وبقيت هذه العائلة لمدة أكثر من ثمانمائة سنة على مشيخة الإسلام في قسنطينة أي إلى غاية بداية الاحتلال الفرنسي، وصاحب ذلك العديد من الصلاحيات المختلفة والثروات المختلفة من عقارات وغيرها، على الرغم من غيرة العائلات المنافسة كعائلة عبد مؤمن وبمجرّد ضمان الإشراف على أمور الدين بالمدينة، لم تحاول هذه العائلة أي ابن الفكون

[1] – سعد الله أبو القاسم، شيخ الإسلام عبد الكريم الفكون داعية السلفية، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، 1986، ص39.

التدخل مباشرة أو بطريقة غير مباشرة في الأمور السياسية وإنما اكتفت بالإشراف على السلطة الروحية.[1]

وذكر لنا الفكون مجموعة من أجداده، ومنهم جدّه البعيد عبد الرحمن الفكون الذي قال عنه: "الجدّ العبد الفقير إلى الله" أي أنه ينسب إليه صفة الصلاح وهو مدفون بزاوية أصبحت فيما بعد ملكا لآل نعموت ويشير إلى أن جد جده الذي حمل هو اسمه هو محمد شقرون بن حليمة دفين قسنطينة، أيضا ينسب إليه صفة الصلاح أيضا، كما يعد يحيى الفكون من أجداده الأقربين الذي استشهد بتونس مجاهدا ضدّ الإسبان. أثناء حملة شارل الخامس في 1535م.[2]

ويعتبر يحيى الفكون هذا رأس عائلة الفكون في مطلع القرن 10هـ/ 16م، وتبعه ابنه قاسم الفكون الذي اشتغل إماما بتونس، كما تولى أيضا وظيفة القضاء، وألف بعض التقاييد على كتاب التوضيح لابن هشام ضمنه الكثير من التعاليق الشائعة جمعها من عدة علوم وتصانيف شتى.[3]

للإشارة فإن أقرب الجدود إلى مترجمنا الشيخ عبد الكريم الفكون هو عبد الكريم فكون الذي سمي تمينا به والملقب بـ أبي محمد عبد الكريم. وعلى خلاف يحيى وقاسم الفكون، فإن أبا محمد الفكون كما يسميه الشيخ عاش في فترة استتب في الأمن بقسنطينة وقد رافقه عبد

[1] -Vayssetes Eugène : Histoires de Constantine sous la domination Turque de 1517 à 1837, Paris, Bouchene, 2002, p 64.

[2] - Ibid, pp 68-69.

[3] - سعد الله أبو القاسم ، شيخ الإسلام عبد الكريم الفكون داعية السلفية، المرجع السابق، ص 40.

اللطيف المسبّح العالم المعروف إلى دار السلطان، للتفاوض بشأن العصيان الذي شهدته قسنطينة ضد العثمانيين سنة 975هـ/ 1567م.[1]

أما والد الشيخ عبد الكريم الفكون الذي تولى إمامة الجامع الأعظم كذلك، وهو فقيه وصوفي متمرس في الأوراد والأذكار وتوفي في المكان المسمى المويلح الواقع بين مكة والمدينة وذلك سنة 1045هـ/ 1635م.[2]

وخلفه ابنه عبد الكريم الفكون سنة 1048هـ أي 1638م. والظاهر أنه ألف منشور الهداية ما بين 1045هـ و1048هـ/ 1635 و1638م. ذلك أنه لم يذكر شيئا على مهمته الجديدة كقائد لركب الحج.[3]

ويرى الدكتور أبو القاسم أن محمد بن قاسم بن محمد الشريف الحسني وهو جد الفكون من جهة أمه فد تولى الفتوى ونقابة الشرفاء بعد أن تجاوزت المحن التي أحاطت به، وتصاهر آل الفكون أيضا مع عائلتي ابن باديس وبن نعمون، فمحمد نعمون هو بن أخت عبد الكريم الفكون الجد وكان أحمد بن باديس متزوجا من أخت والده الفكون كما تزوّج صاحبنا نفسه مع بنت أحمد بن حسن الغربي، الذي تقلد عدّة مناصب شرعية ومخزنية وقتئذ.[4]

[1]- سعد الله أبو القاسم ، شيخ الإسلام عبد الكريم الفكون داعية السلفية، المرجع السابق، ص 41.

[2]- نفسه، ص 43.

[3]- نفسه، ص 44.

[4]- نفسه، ص 45.

وكان لعائلة الفكون زاوية ومدرسة كما اعتبرت من العائلات الغنية التي يرجع غناها إلى ما قبل الوجود العثماني. وقد تنازل آل الفكون لأصهارهم آل بن نعمون بعد أن بنوا مدرسة خاصة بهم.[1]

وفي هذه الزاوية دفن أبو محمد عبد الكريم الفكون، كما أن الفكون يذكر في عدة مناسبات الزاوية والمدرسة، أحيانا بدون تمييز، فكلما ذكر العلماء والطلبة الذين يأتون إليه في قسنطينة للقراءة أو الزيارة إلا وذكر أنهم نزلوا عنده في مدرسة العائلة ومرات بزاويتها. وقد سبق وأن عرفنا أن الزاوية تنسب عادة إلى ولي، أو رجل صالح أسسها أو دفن فيها، أما المدرسة فقد تأسست لنشر العلم في الأساس.[2]

2- نشأته:

ولد عبد الكريم بن محمد بن عبد الكريم بن قاسم بن يحيى الفكون بقسنطينة في سنة 988هـ/ 1580 وفي السنة التي توفي فيها جده عبد الكريم الفكون فسمي عليه. وجدّه هو الذي دعا لوالدة الحفيد بعمارة الدار، ولعل الإمام عبد الكريم الحفيد هو أوّل مولود لعائلته وظلّ يعتقد أنه عمارة دار آل الفكون بدعاء جدّه.[3] وعاش الفكون مع عائلته طويلا، ذلك أن والده عمّر إلى غاية 1045هـ/ 1635م. وتعود أصول والدته إلى عائلة حسنية شريفة. وبالتالي هو نتاج أسرتين مجيدتين تنتمي الأولى إلى بني تميم. أما الثانية فإلى الحسنيين.

[1]- سعد الله أبو القاسم ، شيخ الإسلام عبد الكريم الفكون داعية السلفية، المرجع السابق، ص 46.

[2]- المرجع نفسه، ص 46.

[3]- المهدي البوعبدلي، عبد الكريم الفكون (988- 1077هـ) والتعرف بتأليه منشور الهداية في كشف حال مداد عن العلم والولاية، مجلة الأصالة، العدد 51، نوفمبر 1977، ص 24.

وعاشت مدينة قسنطينة على تراث علماء كبار مثل عمر الوزان وعبد الكريم الفكون الجد، وعبد الرحمن الأخضري. وترأس تلاميذ هؤلاء العلماء الدروس التي جاءها الطلبة من مختلف أقاليم الجزائر كما اتبع الكثير من العلماء في هذه الفترة الطريقة الزروقية. وعلى الرغم من انعدام الاستقرار بقسنطينة إلا أن عائلة الفكون ظلت تساهم في استتباب أمن المدينة واستقرارها، والتحق بالجامع لحفظ القرآن الكريم على يد أبي القاسم بن عيسى الزواوي المعروف بثلجون. و لم يشر الفكون إلى دراسته طويلا بعد حفظ القرآن الكريم. اللهم إلار إذا استثنينا حادثتين تتمثل الأولى في تحدّيه للشيخ إبراهيم الفلاري التونسي عند زيارته لقسنطينة، والثانية تعيين والده له نائبا عنه في الجامع الأعظم، رغم غيرة البعض منه ووصفه بصغير السن الذي لا تجوز الصلاة وراءه.[1]

وتجدر الإشارة إلى أن محمد الفكون قد أحاط ابنه عبد الكريم بعناية خاصة ولقنه مبادئ العلم الأولى، فقد كان محمد الفكون في مقتبل العمر عندما رزق بولده حيث اعتنى به ورعاه بعلمه وطريقته ومكتبته، حتى أن الشيخ عبد الكريم (صاحب الترجمة) وصف والده بالورع والتصوّف وكثرة العبادة والفقه وبفضل شيوخه الآخرين، اكتسب الفكون ثقافة متينة واطلاعا واسعا على علوم عصره الفقهية واللغوية.[2]

وعلى الرغم من كل ذلك لابد أن نذكر شيوخ الفكون وهم:

1- يحي الأوراسي: قال عنه الفكون أنه سمع به ورأى ذاته، ولكنه لم يقل إنه أخذ عنه العلم، وإنما الذي أشار إلى ذلك هو تلميذه عيسى الثعالبي.

[1]- سعد الله أبو القاسم، شيخ الإسلام عبد الكريم الفكون داعية السلفية، المرجع السابق، ص ص: 59-60.
[2]- نفسه، ص:60..

2- سليمان القشي: قرأ عليه الرسالة وحضر باقيها، وشرح الصغرى في العقائد للشيخ السنوسي، والقطر والاجرومية بشرحها لجبريل وبعض أوائل الألفية.

3- عبد العزيز النفاتي: أخذ عنه الحساب وبعض الفرائض، وكان النفاتي قد مرّ بتونس على الشيخ الشهير الشريف النجّار.[1]

4- محمد الفاسي المغربي: قرأ غليه بعض مسائل الإسطرلاب وبعض الفرائض، لكن الفكون وجد عنده قصورا في العلم فقال عنه ليس له معرفة في معاني الألفاظ ويردف قائلا "وطالعته وحدى ففتح الله وعمل الله في عمل الفريضة بالطريقة الكسرية.[2]

5- محمد بن راشد الزواوي، قرأ عليه النحو وتأثر به كثيرا لأن ابن راشد قدم عليهم ونزل عندهم، وكان الفكون عندئذ مازال صغير السن، فحبّب ابن راشد علم النحو إلى قلب الفكون.

6- محمد التواتي المغربي: أشاد به الفكون الذي ذكره ووصفه بأنه "سبويه زمانه"، ذلك أنه قرأ عليه عقائد السنوسي وتذكرة القرطبي، وصحيح مسلم، وحضر عليه التفسير في نحو عشرة أحزاب، وقد كان التواتي معجبا بتلميذه الفكون مسرورًا لمباحثه معه.[3]

ومما سبق نستنتج ما يلي:

- أن شيوخ الفكون قد يكونون أكثر من هؤلاء.

[1]- سعد الله أبو القاسم، شيخ الإسلام عبد الكريم الفكون داعية السلفية، المرجع السابق، ص 61.
[2]- نفسه، ص 61.
[3]- نقسه ص 62.

– أن ثقافة الفكون ثقافة محلية، فلم يغترب من أجلها و لم يرحل لا داخل الجزائر ولا خارجها طلبا للعلم، وإنما سفره بعد ذلك بمدّة طويلة، خاصّة عند قيادته ركب الحج.

هذا وكان الفكون ناقما في صغره على الوضع في قسنطينة حتى أنه فكّر في الهجرة وترك البلاد لولا نصيحة والده له بالبقاء والعدول عن السفر وفي هذا يقول الفكون "وكنت مشغوفا بالنقلة لأرض الحجاز طالبا على الوالد ذلك، فاستشاره، ويقصد الشيخ الموهوب الزواوي، أو خاطبته أنا في ذلك، فسمعته ذكر حديثا عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن المؤمن آخر الزمان يموت بين الطرق أو كما قال.... قال ذلك أنه يفرّ من وطنه لما يناله من المناكر والظلم ونحوهما يسمع عنه أشد وأصبلح فينتقل إليه فيجده أفسد من وطنه الذي ارتحل عنه وأكثر ظلما ومنكرا، فيندم على ارتحاله منه ويظن أنه فاق على الحالة التي تركه، فيترتحل إليه فيجده أسوأ حالا من المكان الذي جاء منه. ولا يزال كذلك بين الطرقات حتى يأتيه الموت وهو على ذلك الحال.[1]

ويظهر لنا هذا النص الحالة العامّة للجزائر، وسعي الفكون الفرار من هذا الوضع السياسي المزري، لكن يبدو أنه ترك هذا الأمر باعتبار أن أوطان المسلمين متشابهة في أوضاعها ولعلّ الوضع السيء الذي عاشه قد حزّ في نفسه، لذلك كان يلجأ إلى الكتابة وتعليم الوافدين ودعم الفقراء والمحتاجين. ويظهر أن الفكون قضى الأربعين سنة الأولى من القرن 11هـ (17م) في كنف والده، حيث كان يوسّع معارفه بالقراءة تارة وبالتعليم

[1]– سعد الله أبو القاسم، شيخ الإسلام عبد الكريم الفكون داعية السلفية، المرجع السابق، ص 64.

والمذاكرة والمجالسة تارة أخرى. كما يؤلف الكتب والرسائل ويدرس أحوال العصر ويراقب تنافس العلماء على أصحاب السلطة وانتشار التصوّف على يد دراويش* ومجاذيب**.[1]

3- مؤلفاته وتصوفه:

أ) مؤلفاته:

خلّف عبد الكريم الفكون عدّة مؤلفات في اللغة والفقه ومنها كتابه في "الصرف بعنوان "فتح اللطيف، ظهر في سنة 1048هـ/ 1638، وشرحا على أرجوزة المكودي في التصريف" إلى جانب شرح على مختصر عبد الرحمن الأخضري سماه.

"نظم الدرر في شرح المختصر" و"فتح الهادي في شرح جمل المجرادي" في النحوه وإلى جانب ذلك ألف كتابا في القراءات عنوانه "سربال الردة في جعل السبعين لرواية الإقرء عدة" ثم "محدّد السنان في بخور إخوان الدخان" وكما يدل العنوان، هو بيان الحكم الشرعي في تناول الدخان، أو التدخين بتعبيرنا اليوم. وبسبب تعلقه بالرسول "ص" ألف مجموعة من القصائد في مدحه رتبها ترتيبا أبجديا، كما كتب عدّة تقاييد في مسائل متفرقة، منها تقييد حول مسألة الوقف بعنوان: "حوادث فقراء الوقف". إلا أن أهم ما كتب عبد الكريم الفكون

---

* – دراويش: جمع درويش كلمة فارسية كانت تطلق في بادئ الأمر على الفقراء المحتاجين الذين يسألون الناس إحسانا، ثم أطلقت بعد ذلك على الزاهد من المسلمين، وقد اطلق على الدرويش أيضا اسم الإخوان، استعملت هذه الكلمة في المغرب والجزائر.

** – المجاذيب: جمع مجذوب نزع من أبطال التصرف يسهل تحديد مظاهر صفاتهم الخارجية، وتطلق عليهم كتب التراجم والمناقب الصوفية عبارات، البهلول، و لم يخل عصر من العصور من وجود مجاذيب للمزيد: ينظر : عبد الحكيم خليل سيد أحمد، المعتقدات الشعبية في الطقوس والشعائر الصوفية، الهيئة المصرية العامة للكتاب 2012، ص 22.

[1] –أبو القاسم سعد الله، شيخ الإسلام عبد الكريم الفكون داعية السلفية، المرجع السابق، ص 65.

هو كتابه "منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية"، والذي انتهى من وضعه سنة 1046هـ/ 1636م.[1]

وإضافة إلى ما ذكرناه من مؤلفات، نشير إلى تأليف آخر في مثل التقيد الذي فيه مرضه الذي دام من 1025هـ-1028هـ/ 1614م- 1617م وفي هذا السياق جاء في منشور الهداية قوله عن المرض: "وتلوّنه وعدم مجيئه على صفة واحدة، هو الذي أوجب تقييده في غير هذا" ثم ألف كتابه: "شافية الأمراض لمن التجأ إلى الله بلا اعتراض" ويسمّى كذلك: "العدّة في عقب الفرج بعد الشدة"[2] موضحا أنه يختلف عن ديوانه في مدح الرسول (ص) وأشار في منشوره أيضا إلى مجموعة خطب منها خطبة كتبها لأحمد بن باديس وتقييد في كرامات الشيخ عمر الوزان، وآخر في مسألة حبس أي وقف كان محل نزاع بين الشيخ يحيى بن محجوبة ووالد الفكون والشيخ التواتي ومما كتبه في الشعر أيضا: "سلاح الذليل في دفع الباغي المستطيل" في قصيدة أولها:

بأسمائك اللهم أبدي توسلا فحقق رجائي يا إلهي تفضلا

وكذلك شرح مخارج الحروف من الشاطبية في القراءات وشرح على إضاءة اللجنة في عقائد أهل السنة، وفي هذا الصدد يقول الأستاذ أبو القاسم سعد الله لا نؤكد أنه ألفه ولكن وعد به صاحبه أحمد المقري مؤلف نفح الطيب. وعسى أن تكشف الأيام والأبحاث الأكاديمية عن بقية كتب الفكون، وبعضها يعرف منها شخصيته وآراءه واهتماماته بطريقة أوضح وأوفى.[3]

[1]- أبو القاسم سعد الله، شيخ الإسلام عبد الكريم الفكون داعية السلفية، المرجع السابق، ص 145 وما بعدها.

[2]- نفسه، ص ص 146-147.

[3]- نفسه، ص 152.

– ونظرًا لأهمية منشور الهداية نحاول تسليط المزيد من الضوء عليه، وقد أشرنا سابقًا إلى أنه فرغ من تأليفه في سنة 1046هـ/ 1636م، وضمن المنشور تراجم لعلماء قسنطينة ونواحيها خلال القرنين العاشر والحادي عشر للهجرة أي السادس عشر والسابع عشر ميلادي، بلغ العدد حسب أبو القاسم سعد الله حوالي ثمانين ترجمة، وكتبها في شكل مذكرات وتقاييد على فترات تاريخية قصيرة وطويلة، ومن ثم لا يخلو المنشور من التكرار والتداخل بين التواريخ، نادرا ما يذكر تاريخ الولادة، ويمكن أن يترك تاريخ الوفاة بياضا إذا لم يتوفر له، وكان صريحا صراحة كبيرة في بعض مراحل الكتاب كما ذكر الصالح والطالح على حد سواء من الناس الذين عرفهم، وقد وضع منشور الهداية من أجل تحقيق هدف إصلاحي، فهو يتحسر على ما حدث في المجتمع القسنطيني، وربما الجزائري من جهل وفساد وزندقة ونصب واحتيال، كما يشير إلى انهيار القيم والمبادئ الدينية للإسلام الحنيف. كما هاجم بشدّة المشعوذين والدجاجلة ونعتهم بالطائفة المبتدعة[1].

وقد اشتمل كتاب مستور الهداية على مقدمة وثلاثة فصول وخاتمة، أما الفصل الأول جعل عنوانه (في من لقيناه من العلماء والصلحاء المقتدى بهم ومن قبل زمنهم ممن نقلت إلينا أحوالهم وصفاتهم تواترا) وهذا الفصل رغم طول عنوانه قصير نسبيا.

وقد ذكر بعض العلماء والصالحين أمثال عمر، الوزان يحيى الأوراسي، محمد العطّار، أحمد الغربي، محمد الكمّاد، علي بن يحيى الياوراري، أحمد بن تكفة، ومحمد التواتي. بالإضافة إلى عائلة آل الفكون مثل يحيى وقاسم وجدّه عبد الكريم ووالده محمد. أما الفصل الثاني فقد جعل عنوانه (في المتشبهين بالعلماء وهم الذين قصدنا بهذا التقييد إيضاح أحوالهم). كما تحدث فيه عن مجموعة من الناس لا يتسع المجال لذكرهم جميعا. كما خصّ بالذكر العلماء الذين تقلدوا

[1]– عبد القادر صحراوي، المرجع السابق، ص161.

وظيفة الفتوى والقضاء رغم أنهم لم يكونوا أهلا لها، ومنهم محمد بن القاسم الشريف وأحمد الجزيري، محمد السنوسي المغربي، محمد بن نعمون وعبد اللطيف بن سعيد.[1]

ويأتي بعد ذلك الفصل الثالث الذي جعل عنوانه (في المبتدعة الدجاجلة الكذابين على الطريق الصوفية المرضية) وقد ابتدأ بأحدهم وهو قاسم بن أم هانئ وأخبر أنه افتتح به الفصل لعظم مفسدته بين الخلق وشهرة بدعته قوتها"، وذكر منهم أحمد بوعكاز ، ومحمد الحاج الصحراوي، وسيدي الجليس، وعبد المالك السناني وعلي العابد الشابي...إلخ. ويضاف إلى هذه الفصول خاتمته التي يسير فيها إلى الذين عاصروه وعايشوه من أصحابه وأحبابه مثل أبي العباس حميدة بن باديس، وأحمد المقرّي والتلمساني، ومحمد بن الموهوب، وعلي بن عثمان الزواوي.[2]

ونخلص إلى القول أن كتاب منشور الهداية في كشف من ادعى العلم والولاية مثلما أشار إلى ذلك الأستاذ أبو القاسم سعد الله يعتبر وثيقة لا غنى عنها لدارس الحياة السياسية والاجتماعية والدينية في القرنين العاشر والحادي عشر (16-17م) بل أن أهميته تمتد إلى وقتنا الحاضر لأن معظم العائلات والأفكار والاتجاهات والزوايا التي ذكرها ما تزال موجودة بيننا..[3] فالمؤلف أراد بكتابه هذا إصلاح حال الأمة الإسلامية وحالة مجتمعه الذي انتشرت فيه الضلالات. وهو يعتبر ذلك جهادا في سبيل الله.[4]

[1]- أبو القاسم سعد الله، شيخ الإسلام عبد الكريم الفكون داعية السلفية، المرجع السابق، ص ص 177-178.

[2]- نفسه ص 179.

[3]- نفسه، ص 171.

[4]- نفسه، ص ص 180-181.

ب)تصوفه:

على الرغم من النقد اللاذع الذي وجهه عبد الكريم الفكون لمتصوفة زمانه إلا أنه كان متصوفا يتبع الطريقة الشادلية الزروقية. وقد أعلن ذلك صراحة في منشور الهداية ومؤلفاته الأخرى. وبالتالي كانت تعاليم الطريقة الشاذلية والزروقية بادية في آرائه وسلوكه، ولعله استلهم ذلك عن والده الذي أخذ ذلك عن أبيه عن عمر الوزان الذي قال عنه الفكون أنه دعوة من دعوات الشيخ أحمد زروق سبقت ترجمته. وإذا رجعنا إلى منشور الهداية نجد أن الفكون يشير إلى تحول عمر الوزان من كتب الصوفية والوعظ إلى الحديث الشريف. وقد تأثر الفكون في تصوفه أيضا بشيخه يحيى الأوراسي الذي أخذ الطريقة الزروقية عن شيخه طاهر بن زيان الزواوي عن أحمد زروق عن عبد الرحمن الثعالبي.[1]

وكان الشيخ زروق قد أقام مدة في بجاية وقسنطينة وترك تلاميذ كثر لنشر الطريقة الشاذلية، ويذكر أن الشيخ الفكون لبس خرقة.[2] الصوفية على يد شيخه يحيى الأوراسي وفقا للطريقة الزروقية الشاذلية.

ومما تأثر به الفكون دراسته لقصيدة القدسية التي ألّفها عبد الرحمن الأخضري سبق وأن أشرنا إليها في ترجمة بعض أبيات هذه القصيدة الرائعة مثل قول الأخضري في البيتين 176-177 :

[1]- أبو القاسم سعد الله، شيخ الإسلام عبد الكريم الفكون داعية السلفية، المرجع السابق، ص 110.

[2]- الخرقة أو المرقعة لباس يرمز خلعه على صاحبه عند أهل الصوفية إلى تلقي أسرار العرفان والانقطاع إلى المياه الروحية وعند لبس الخرفة يلحق السالك الصوفي بسلسلة أسانيد من أقطاب الصوفية العارفين وصولا إلى الجنيد المسمى عندهم "شيخ الطائفة" فالإمام الحسن البصري فعلي بن أبي طالب كرّم الله وجهه فالرسول محمد صلى الله عليه وسلم. للمزيد، ينظر كتاب محمد الكحلاوي الفكر الصوفي في إفريقية والغرب الإسلامي دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، 2009، ص 80.

والشرع ميزان الأمور كلهـــا وشاهد لأصلها وفرعهـــــا

والشرع نور الحق منه قد بدا وانفجرت منه ينابيع الهدى[1].

وتعرضت قصيدة الأخضري هذه لحال متصوفة القرن العاشر الهجري الموافق للسادس عشر الميلادي والتي يحذرهم فيها من الخرافات ويدعوهم إلى التمسك بعرى الإسلام والابتعاد عن الابتداع، إضافة إلى الجمع بين علمي الظاهر والباطن جمعا صحيحا واضحا. وقد أعجب الفكون بالقدسية أيما إعجاب حتى كاد أن يذكرها كاملة في كتابه منشور الهداية مستشهدا بها للرد على المحتالين من مدّعي الولاية والتصوّف، وهذا رغم البعد الزمني بين الأخضري والفكون الذي يقارب القرن، ومن إعجابه بالأخضري أنه شرح له أيضا عملا في آداب الدين والمعاملات سماه "الدرر على المختصر"، كما أورد رسالة مطولة لأحمد زروق محتجا بها في الرد على أدعياء التصوف في وقته.[2]

وربما تكون هناك مصادر أخرى جعلت الفكون يأخذ بالطريقة الزروقية الشاذلية و لم تشر المصادر إلى أخذه إجازات علمية من المشرق، ذلك أنه كان رافضا لتساهل علماء المشرق في العديد من المسائل الدينية المتعلقة بالحلال والحرام ومن ذلك تعاطي الدخان.

كما وجدناه متشددا في منح الإجازات لغيره فلما طلب منه أبو سالم العياشي صاحب الرحلة أثناء حجّه معه سنة 1064هـ/ 1653م، الإذن في الانخراط في الطريقة الزروقية الشاذلية، أجابه بقوله: "إني أقول لك كما قال الإمام الشاذلي رضي الله عنه: "لك ما لنا من الخدمة وعليك ما علينا من الرحمة"، وتحرّج العياشي من هذا الجواب ويقول في ذلك "قنعت

[1]- بوزياني الدراجي، المرجع السابق، ص 192.

[2]- أبو القاسم سعد اللهّ، شيخ الإسلام عبد الكريم الفكون داعية السلفية، المرجع السابق، ص 111.

منه بالكلمة التي قالها لي لما علمت حاله، وخشيت أن أثقل عليه وإن كلّفه ما لا يطيق به نفسه فإنه... من أهل القلوب.[1] ووقف الفكون نفس الموقف مع تلميذه عيسى الثعالبي، هذا الأخير يذكر أنه تلقى إجازة في الحديث عن شيخه الفكون، وعرض عليه الوظيفة الزروقية وحزب البحر لأبي الحسن الشاذلي، وتضم الأولى المبادئ الأصلية للشاذلية والفرعية للزروقية. وقد لقن الفكون الذكر للثعالبي على عادة الصوفية، ثم ألبسه الخرقة الصوفية قائلا له: "خالدة تالدة لا تباع ولا توهب"، لكن ثمة سؤالا لابد من طرحه، فإن كنا لا نشك في نسبة الفكون للطريقة الزروقية نكاد نشك في تلقين الفكون له الذكر وإلباسه الخرقة علما بأن هذا الأخير يرفض هذا الأسلوب كما يوضح ذلك في منشور الهداية"[2].

ومن هنا ندرك أن تصوف الفكون كان تصوفا متشددا، ووصفه معاصروه وتلاميذه بالمحافظ، والمتمسك بمبادئ التصوف الإسلامي على طريقة السلف وذلك على شاكلة عبد الرحمن الأخضري، وزروق والغزالي وغيرهم. ولهذا كان الفكون يرى أن التصوف قد تدهور تدريجيا من قرن إلى آخر، فجيل القرن العاشر (16م) كان أفضل في تصوفه من جيل القرن الحادي عشر (17م) وهكذا يذكر أبو القاسم سعد الله في كتابه تاريخ الجزائر الثقافي.[3]

و لم ينقطع الفكون عن أرض الحرمين رغم كبر سنه، ويوصف بأنه جمع بين العلم والعمل اللذين أوصلاه كما قال تلميذه الثعالبي إلى الزهد والورع والعفة، وعدم الاكتراث بالمدح أو الذّم، وإنما اعتزل الناس وعكف على العبادة وتهذيب النفس، وفي إحدى رحلاته إلى الحج لم

[1]- أبو القاسم سعد اللهّ، شيخ الإسلام عبد الكريم الفكون داعية السلفية، المرجع السابق، ص 112.

[2]- نفسه، ص 112.

[3]- أبو القاسم سعد اللهّ، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، المرجع السابق، ص 524.

يعط الفكون أية أهمية لوالي وعلماء مصر الذين استقبلوه أيمّ استقبال وتبركوا به، بل على حسب تلميذه الثعالبي لم يقبل أية مساعدة مالية من هذا الوالي.[1]

وحتى هجومه وانتقاده لأدعياء التصوف والولاية ورفضه للحضرة.[2] واستغلال العامة قد تسبب في ضعف المسلمين، ولذلك تراه يذكر في مؤلفاته المختلفة بكبار المتصوفة كأبي يزيد البسطامي، ولكن يذكر لنا القريبون من عهده كالأخضري، وأحمد زروق والشيخ الوزان.

إن هجوم الفكون لم يكن على المتصوفة عامّة، وإنما كان ضد الأدعياء منهم الذين انتهكوا الحرمات وانسلخوا عن الدين، وارتكبوا الفواحش، والمنكرات.[3]

[1]- أبو القاسم سعد الله، شيخ الإسلام عبد الكريم الفكون، المرجع السابق، ص ص: 113-114.

[2]- الحضرة: مصطلح يعني الحضور أو الاقتراب والدنو، وهي تعني عند الصوفية اقتراب الإنسان من الذات الإلهية، ويكاد الصوفية يجمعون على أهمية الذكر للوصول إلى حضرة الله من ذلك قولهم:

كقولنا لعالم ذي عفلة الذكر مفتاح لبلب الحضرة وأؤكد منال عبد المنعم أن أهمية الحضرة عند الجماعات الصوفية في المغرب ومصر ناتجة عن ارتباطها بالذكر.

ويفهم من كلام ـــأبي القاسم سعد الله في معرض حديثه عن بعض مظاهر الحضرة التصوف في المجتمع الجزائري أن الدافع الأساسي لإقامة حلقات الحضرة هو ذكر الله. للمزيد يرجى الاطلاع على: قيداري قويدر، أولاد نهار والولي الصالح والشيخ الناصح سيدي يحي بن صفية سيرة وتراجم وتراث مقاربات تاريخية وأنثروبولوجية وفنية، دار الأفق للطباعة والنشر، الجزائر، طبعة الأولى، 2019، ص 139.

[3]- عبد القادر صحراوي، المرجع السابق، ص 171. ينظر كذلك: أبو القاسم سعد الله، شيخ الإسلام عبد الكريم الفكون، المرجع السابق، ص ص: 114

المبحث الثالث: الحسين الورثيلاني

1) التعريف بالورثيلاني:

ينتمي الحسين الورتلاني إلى أسرة وعلم وصلاح تعود أصولها حسب الكثير من المصادر التاريخية إلى شرفاء تانيلالت بالمغرب الأقصى، وانتقلت إلى مدينة بجاية، ثم استقرت في عهد جده علي البجائي بني ورثلان وظهر في هذه العائلة العديد من العلماء والفقهاء والمتصوفة. فوالده محمد السعيد عالم في التوحيد، مدرك للتصوف وفقيه محقق، يصفه بقوله: "الوالد رحمه الله لأنه أفقه زمانه وما رأيت مثله في الفقه".[1]

وكان يدرس بزاويته بني ورثلان مختلف العلوم الشرعية التي أخذها عنه عدد كبير من الطلاب الذين أصبحوا فيما بعد قضاة ورجال فتوى بجاية وغيرها من مدن الجزائر في العهد العثمانيّ واقتدى بأخلاقه ومثله، إلا أنه لم يكن ليرض بالأوضاع التي آلت إليها الجزائر خاصة بعد أن أصبحت المناصب الدينية كالافتاء والقضاء تشترى بالمال، ووصل به الأمر إلى الامتناع عن أداء الصلاة ومنها الجمعة خلف هذا النوع من العلماء والأئمة".[2]

وكان جدّه الحسين مدرسا ومطلعا وباحثا وحافظا لمختلف الكتب التي تتناول علوم الظاهر والباطن، كما اشتغل مفتيا... ويذكر الحسن الورتلاني أن جدّه قد درّس في جامع الأزهر بمصر، وأن محمد بن عبد الباقي الزرقاني شارح الموطأ وشارح المواهب اللدنية[3]. قد درس عليه ومن أجداد الورثلاني أيضا يحي الورثلاني الذي كان يملك خزانة من الكتب وكان هذا الرجل فقيها ومتصوفا وعالما بالتوحيد، ومشرفا على زاوية ببجاية، ثم انتقل إلى بني يعلى

[1]- عبد القادر صحراوي، المرجع السابق، ص 175.

[2]- مختار بن طاهر فيلالي، رحلة الورثلاني، عرض ودراسة دار الشهاب، باتنة، د.ت، ص10.

[3]- عبد القادر صحراوي، المرجع السابق، ص 175.

قد تصاهر مع محمد مع محمد بن يعلى حاكم الإقليم، وقد بنى له بعد وفاته ضريح تحوّل إلى مزار للناس كافة.[1]

وقد نسب له الورثلاني الحفيد كرامات وخوارق لا يصدقها العقل، ويتصل أحمد الشريف جد الورثلاني بنسب ينتهي عند الحسين بن علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه، واختار إثر هجرته إلى مدينة بجاية المشعة بالعلم والثقافة والحضارة. وفي هذا السياق يقول الورثلاني "... ومنهم الولي الصالح جدنا سيدي أحمد الشريف نسبا، إذ ثبت ذلك وهو الشريف الحسني، والذي سمعناه من أعالي أسلافنا أنه من شرفاء تفيلالت وأما مقره مقرّ أوائله فمن بجاية وجدنا نجل الشيخ سيدي علي البكاي، ويضيف في مكان آخر قائلا: "هكذا ثبت بخط جدّي وهو ثقة، وأصله والله أعلم من تفيلالت".[2]

2)مولد العلامة الحسين الورثيلاني:

ولد الحسين بن محمد السعيد بن الحسين بن محمد بن عبد القادر بن أحمد الشريف سنة 1125هـ/ 1713م بيني ورثيلان وتلقى مبادئ تعلمه على يد أبيه وشيوخ بني ورثلان، وهكذا حفظ القرآن الكريم، ودرس الفقه واللغة وبقية علوم الظاهر والباطن، وانتقل بعد ذلك إلى زوايا جرجرة ودلس والجزائر.[3] ولا يزال قبر الشيخ الورثيلاني يزار إلى اليوم ببني ورثلان التي كانت تضم روايته ومدرسته ومسجده، وكان الطلاب يأتونه من مختلف أنحاء الجزائر، ولقد نشأ الشيخ الورثلاني في قريته ذات التضاريس الصعبة، غير أنه لم يتعرض لهذه

[1] -Hadj sadouk, A travers la berberie orientale du XXIII siècle avec le voyageur Warthilani, R, AF Y 1951 n=°95, P317.

[2]- الحسين الورثيلاني، المصدر السابق، ص 603.

[3]- سعيدوني ناصر الدين، إنسان وأبحاث في تاريخ الجزائر العهد العثماني، المؤسسة الوطنية للكتاب 1984، ص 418.

الفترة من حياته، في مؤلفاته المختلفة، ونفس الشيء تغاضى عنه معاصروه. وركز هؤلاء على حياة الورثيلاني عند ما بلغ مبلغا كبيرا من العلم والفقه المالكي، وعلى الرغم من ذلك ظلت تراجم هؤلاء المعاصرين ناقصة وبعيدة عن المجالات العلمية التي اخترقها.[1]

وامتدت حياة الورثلاني من 1125هـ إلى 1193هـ/ 1713م-1779م، و لم تهتم المصادر التاريخية والذين ترجموا له بوفاته كثيرا، اللهم إلا الإشارة التي بينت وفاته كانت في شهر رمضان.

في حين يقول صاحب كتاب تعريف الخلف برجال السلف أبو القاسم الحفناوي، "وأما وفاته رحمه الله فقد رأى النبي (ص) فأخبره أنه يعيش إلى السنة العاشرة من القرن الثالث عشر هجري فتكون وفاته كما اخبر به الصادق المصدوق، لأنه لا ينطق عن الهوى.[2] ويتضح لنا من خلال هذا النص عدم الاهتمام بتواريخ الوفاة، والأمر نفسه نلاحظه في رحلة الورثلاني كما سنبين لاحقا. لقد أدى هذا العلامة فريضة الحج ثلاث مرات، الأولى برفقة أبيه وهو ابن ثمانية عشر وكان ذلك في 1153هـ/ 1740م والثانية عند بلوغه سن الثامنة والعشرون أي في سنة 1166هـ/ 1752م، والثالثة دامت ثلاث سنوات أي أنها كانت ما بين 1179 و1181هـ/ 1765-1768م. وقد أتمها في الرابعة والخمسين من عمره.[3] وبين هذه الرحلات بجلاء الفترات الطويلة من عمره، والتي قضاها في السفر والترحال ساعيا وراء طلب العلم، ومدرسا لمجالاته المختلفة، ومؤلفا في مختلف علوم عصره.[4]

[1]- مختار بن الطاهر، فيلالي، المرجع السابق، ص 15.

[2]- الحفناوي أبي القاسم محمد، تعريف الخلف برجال السلف، مطبعة بيير فونتانة الشرقية، الجزائر، 1906، ص 141.

[3]- سعيدوني ناصر الدين، المرجع السابق، 418

[4]- مختار بن طاهر فيلالي، المرجع السابق، ص 15.

وقد حرص الحسين الورثلاني على توسيع معارفه، وتنمية معلوماته وثقافته سواء كان ذلك في قريته بني ورثيلان أو خلال تنقله بين بعض مدن الجزائر، أو حتى خلال رحلاته إلى الحج والديار المقدسة.

وهكذا درس على يد مجموعة من الشيوخ، ففي قريته أخذ العلم على يد والده خاصة ما تعلق بالفقه، وكذلك على يد بن أحمد بن عبد الله والشيخ اليعلاوي وهو تلميذ جده الحسين.

إضافة إلى الشيخ أحمد زروق أحمد بن الشيخ العنابي، وقد نال نتيجة لذلك حظا كبيرا من العلم والمعرفة إلا أن تلهفه إلى المزيد جعله يتوجه نحو مراكز علمية أخرى خارج وطنه الجزائر، وهكذا استفاد من حجاته المتعددة إلى أرض الحجاز للاتصال بعلماء في تونس وليبيا وطرابلس كما كانت تسمى إلى جانب مصر البقاع المقدسة.[1]

ففي تونس درس على يد محمد بن عبد العزيز، وعبد الله السوسي ويحيى بن حمزة. وذكر العلماء الذين التقى بهم في مصر من أمثال الشيخ محمد الحفناوي مقدّم الطريقة الخلوتية الأستاذ محمد بن عبد الرحمن الأزهري مؤسس الطريقة الرحمانية بالجزائر، والشيخ البليدي محمد، والعمروسي وخليل المغربي الأزهري، إلى جانب بعض الطلبة الجزائريين كأحمد بن عمار مفتي الجزائر.[2]

ونذكر من شيوخه أيضا الجوهري والنفزاوي الملوي وخليل الأزهري وحتى نبرز تأثره الشديد بأذكار الطريقة الشاذلية، نشير إلى تتلمذه على يد الشيخ عبد الوهاب العفيفي مربي

[1]- مختار بن طاهر، فيلالي، المرجع السابق، ص 19.

[2]- الحسين الورثلاني، المصدر السابق، ص ص: 653-660-665

اللمريدين على الطريقة الشاذلية الذي أخذ عنه الأذكار. وهناك شيوخ أخرين أجازوه في مختلف العلوم الشرعية مثل الشيخ أبي القاسم الربيعي القسنطيني، وعلي الصعيدي وعمر الطحلاوي والزياتي وأحمد الإشبيلي وهو تلميذ الحفناوي والصباغ الإسكندري والهاشمي المغربي وإبراهيم بن علي شعيب التونسي، ومحمد الكردي تلميذ الحفناوي، الذي أصبح مقدم الطريقة الخلوتية أيضا، ويؤمن الورثلاني بكراماته، والشيخ المنور التلمساني.[1]

ويقول الحفناوي صاحب كتاب تعريف الخلف برجال السلف بعد عرضه لأسماء شيوخ الورثلاني ما يلي: "ثم رجع من المشرق بعد أن امتلأ وطابه وفاض عبابه، فعلم وأفاد، وألف وأجاد ودعا إلى الله العباد، وقهر الجهلة أهل التعصب والعناد، وعندما يعرفه يقول: "هو الإمام العامل العلامة الكامل الأستاذ الصمام شيخ مشايخ الإسلام الورع الزاهد الصالح العايد، المتبع لأثر الرسول، الجامع بين المعقول والمنقول، بعد الحقائق وكتر الدقائق إلى أن يقول: "وقدوة العلماء العاملين، وبقية السلف الصالحين مفتي السنة، الجامع بين العملين والكامل في النسبتين، حامل لواء الشريعة والحقيقة.[2]

وقد تدخل الورثلاني في الكثير من الأحيان لحلّ الخلافات التي نشبت بين مشايخه، عن طريق ترجيح الصواب على الخطأ، مثل ما حدث بين شيخه التلمساني وخليل المغربي حول مسائل في كبرى السنوسي، وفي هذا السياق يقول الورثلاني "فلما طال نزاعهما وقد ظهر لنا ما ظهر للشيخ خليل، قلت الحق مع الشيخ خليل، فلما خرجنا قال لي والله لقد أساء في قوله للشيخ المذكور فأجبته لما هو حاصل أن الحق أحق أن يتبع وما ذكره هو الحق والله تعالى

[1]- الحسين الورثلاني، المصدر السابق، ص ص 286-302.

[2]- الحفناوي، أبي القاسم محمد، المصدر السابق، ص ص 139-141.

أعلم.[1] وحدث أن أفحم الورثلاني شيخه التلمساني بأسئلة في البلاغة والنحو، والفقه وحتى في الكيمياء، ويظهر لنا ذلك حبه للبحث والجدل العلمي. وممّا يبين أن الورثيلاني علم من أعلام عصره، هو سعة ثقافته التي شملت مختلف ميادين المعرفة، وتمكنه من علوم متعددة مثل الفقه، والتصوف والحديث وتفسير القرآن الكريم، التاريخ، والدراسات النحوية والبلاغية وما يسمّى حاليا بالعلوم التجريبية كالكيمياء مثلا.[2]

ويذكر الورثيلاني حادثة وقعت لجدّه الحسين عندما كان مدرسا بالأزهر، أثرت فيه كثيرا وقوت من طموحه مفادها أن جدّه المدرس بالأزهر قد عجز عن إعراب جملة لتلميذه محمد بن عبد الباقي الزرقاني، ويعلق الورثيلانيي على هذه الحادثة بقوله "... وإنما دأبهم الفقه وأصول الكلام، ويقصد بذلك أبناء وطنه، وأما مسائل الإعراب والمنطق، والتصوف والبيان الأصول فعلى طرفي اللثام. هذا وآثر الورثيلاني الاستقرار بقريته بني ورثلان، والاعتكاف بمسجد الأسرة للتدريس والوعظ والعبادة، وبسبب شهرته، قصده الطلاب والزوار من داخل الجزائر وخارجها طلبا للعلم والبركة، ومن الذين درسوا عليه محمد بن الفقيه، ومحمد السكلاوي الجزائري، ويحي بن حمزة، ومحمد بن عبد الله من مدينة زمورة. ومحمد الجوادي، وأبو القاسم مدور من بني عباس الذي اشتغل قاضيا ببجاية، وابن عمه الشيخ محمد الصالح.[3] وكان الشيخ الورثلاني كثير التردد على بجاية خاصة في شهر رمضان، وذلك من أجل الرباط، والتدريس والقيام بالوعظ والإرشاد وقد لقي فيها كل الحب والكرم، وفي هذا السياق يقول: غير أنهم، أكدوا علي فذهبت معهم إلى زيارتها لأني محب غاية، وذلك قبل

[1]- الحسن الورثلاني، المصدر السابق، ص 304.

[2]- مختار بن الطاهر، المرجع السابق، ص ص 21-22

[3]- نفسه، ص23.

بلوغي، وكنت على عام أصوم رمضان ناويا الرباط مع تعليمي الطلبة، راجيا أن يكون لي حظ وافر منهم، ونصيب كامل من عندهم...."[1] .

ولا شك أنه زار تونس عدّة مرات للتدريس والتعلم والتوجه إلى الحجّ، وحدث أنه أقام بها خمسة أشهر وخلالها تعرض بالدرس لكتاب الرازي المسمى "المعالم" والفتوحات المكية "لابن العربي" وغيرها كثير، وتانقل بين مختلف مدن تونس بما في ذلك صفاقس وقابس، كما قوّى أواصر العلم مع مجموعة من العلماء مثل الهادي السوسي والمفتي ابن محجوبة، وعدد من شيوخ جامع الزيتونة إلا أن غيرة وحسد الكثير ممن لقيهم قد دفعه إلى ترك تونس غاضبا وناقما على أهلها، وربما يعود ذلك إلى النزاعات المتكررة بين أيالتي الجزائر وتونس، ذلك أن الورثيلاني يشير إلى هدم القوات الجزائرية لأسوار مدينة الكاف التونسية، ولم تضعفه هذه الأحداث عن التفكير في العودة إلى تونس ومواصلة رسالته المعرفية، ثم عقد الحلقات العلمية في عدة مدن جزائرية وحتى خارجية.[2]

3) آثاره ومؤلفاته:

ويتضح لنا مما سبق ذكره من العلامة الورثيلاني نشاطه وجده وعمله الدؤوب بفعل سفرياته المتعددة داخل الجزائر وخارجها، رغم التطورات السياسية الخطيرة التي شهدها القرن 18م، خاصة مسألة انتشار الثورات في شرق وغرب البلاد.

وقد تمكن نتيجة لنشاطه من تأليف العديد من الكتب والتعليق عليها وذلك في الفقه والتوحيد والتصوّف والنحو، البلاغة وما إلى ذلك. وتعتبر رحلته التي سمّاها: "نزهة الأنظار في

[1]- عبد القادر صحراوي، المرجع السابق، ص 179.

[2]- نفسه، ص 180.

فضل علم التاريخ والأخبار" أعظم وأشهر ما ألف وهناك مؤلفات أخرى لا بأس من ذكرها ثم نحاول شرحها أو تقديم بعض المعلومات عنها، على أن نركز على الرحلة الورثيلانية. ويعتبر شرحه لقصيدة القدسية لعبد الرحمن الأخضري من أهم أعماله التي خصصها للتصوف، وله شرح على خطبة الصغرى للسنوسي، وشرح على وظيفة الشيخ بحي العيدلي الذي ذكر له بعض الكراسات. كما أن له وصفا لمدينة برقة ضاع منه خلال رحلات حجّه وفسر لغزا صوفيا لأحمد بن يوسف المليانى عجز عن تفسيره علماء فاس كما شرح كتابا عن الصلاة، وقد أوصاه مؤلفه الشيخ السمان القرشي المدني بشرحه. وإن ما ذكرناه من مؤلفات الورثلاني هو ما تضمنته رحلته، لكن هناك مؤلفات ذكرها مترجموه مثل عبد القادر بن محمد الصغير الذي نسخ الرحلة، ومن ذلك شرحه على وسطى الإمام السنوسي، وشرحه على محصل المقاصد لأبي العباس أحمد بن زكري التلمساني، وأشار إلى ذلك إلى أنه مات فيه قبل إتمامه، وذكر عبد القادر بن محمد الصغير أيضا شرح الورثلاني لصغير الخرشي.[1]

وبحكم ولعه أي الورثيلاني بعلم التوحيد الذي يعتبره ضروريا للتقرب إلى الله، باعتبار ذلك سمة من سمات الصوفية، قام بشرح وتحشية عمل السنوسي، كما وضع حاشية على شرح السكتاني المراكشي على صغرى السنوسي أيضا، وفي هذا الصدد يقول الورثيلاني "...وأعارني الشيخ الحطاب شارح المناسك الخليل وهو شرح جليل قد سافرت به إلى مكة أحياه الله على السنة النبوية وأعلمته بشرحي على خطية شرح الصغرى، فلما رآه ورأى حاشيتي على المحقق المراكشي السكتاني استحسن جميع ذلك... كما وضع[2] الورثيلاني قصيدة القدسية في التصوّف لعبد الرحمن الأخضري بالشرح، وهي عبارة عن قصيدة في آداب

[1] – عبد القادر صحراوي، المرجع السابق، ص 181.

[2] – نفسه، ص 182.

السلوك وتهذيب النفس، ورفض المحدثات والبدع، وسمّى شرحه "الكواكب العرفانية والشوارق الإنسية في شرح ألفاظ القدسية"، وقد استجاب الورثيلاني في شرحه لمنظومة الأخضري إلى إلحاح الكثيرين ممن كانوا يترددون عليه بالزيارة، إلى جانب عدد من تلاميذه. واعتمد في شرحه هذا على الرسالة القشيرية وما كتبه أحمد زروق صاحب الطريقة المعروفة، ولا غرابة في ذلك باعتبار أن الورثيلاني قطب من أقطاب التصوّف في عهده.[1]

وقبل التعرض بالتحليل لرحلة الورثلاني، لابدّ أن نذكر برحلاته داخل الجزائر وخارجها، خاصة وأنه تعود إلى الإكثار منها، وفي هذا يقول: "فإني جبلت على حبها منذ صغري، وقد كثرت مني شرقا وغربا، لاسيما عمالة الجزائر، فإني قد خضتها، وبحثت عن أهلها، بحثا شديدا تاريخا وسيرة وطريقة"[2]

وقد قصد من رحلاته الجهاد والحج والعلم، ومن هنا زار مدن الجزائر، تلمسان، مليانة، البليدة، دلس، قسنطينة، عنابة. إلا أنه خلّد في رحلته بالتفصيل مدينتي بجاية وقسنطينة فقط.[3] كما أنه لم يغفل الإشارة إلى زيارته إلى الجنوب القسنطيني، حيث مرّ بطولقه، وأولاد جلال غير أنه لم يسجّل عنها الشيء الكثير، كما زار قبر الشيخ عبد الرحمن الأخضري، ومرّ أثناء عودته بالمسيلة.

كما زار الغرب الجزائري وبلغ مدينة تلمسان أين زار بها ضريح الولي العالم أبي مدين شعيب وغالبا ما كانت هذه الزيارة إلى الغرب قبل بدايته حركة التأليف والتاريخ.[4]

---

[1]–سعد الله أبو القاسم، تاريخ الجزائر الثقافي، الجزء 02، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، 1998، ص ص 130-131.

[2]– عبد القادر صحراوي، المرجع السابق، ص 183.

[3]– مختار بن الطاهر فيلالي، المرجع السابق، ص 37.

[4]– عبد القادر صحراوي، المرجع السابق، ص 183.

كما زار بلاد القبائل والتقى بأوليائها وعلمائها، وبعض تلامذته، وهناك أصلح بين القبائل المتحاربة وأتم دراسة بعض الكتب.

وفي بجاية وقف على قبور الأولياء واجتمع بالقاضي أبي القاسم بن إبراهيم قبل عودته إلى قريته محمّلا بالهدايا باعتباره صاحب زاوية وولي يتبرك به.[1]

أما فيما يخص رحلاته إلى الخارج، فقد كانت أولاها نحو تونس للاغتراف من العلم، ومن ثم اتجه نحو الأراضي المقدسة للحج برفقة أحمد زروق بن الحاج صديق والده، ثم قام بثلاث رحلات نحو البقاع المقدسة، مرّ خلالها بالكثير من الأقطار العربية مثل تونس- ليبيا، مصر أين اتصل بعلمائها واقتنى منها الكتب.

4)رحلة الورثلاني:

يمكننا تقسيم الرحلات خلال العهد العثماني إلى علمية وحجازية وضمن النوع الثاني ندخل رحلة الورثلاني المسماة: "نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار"، ويبرز هذا العمل شعوره بالتاريخ، خلافا للعلماء الذين عاصرهم. وقد تضمنت مقدمة رحلته ذكر الأهداف من تأليفها، فهي عبارة عن تراجم لحياة عدد من العلماء والأولياء الذين ذكر أوصافهم، ودعا إلى الاقتداء بهم، وتتبع آثارهم، باعتبار أن هذا النوع من الأثار منعدم في الوطن، وفي هذا الصدد يقول، "لما رأيت من وقوع الإهمال في تلك التراجم في وطننا، فرسمنا كل ذلك رسما جيدًا. فحفظت من كل خلف وصف أسلافه، ونقلت من كل نوع أخبار

[1]- مختار بن الطاهر فيلالي، المرجع السابق، ص ص 39-40.

أصله، علما مني لا يمجه السمع السليم، والطبع المستقيم ريحانة لما يجده المتأخر بعدنا، ورحمة لما يحصل من اقتباس الأنوار في وطننا.[1]

كما تعرّض بالتفسير لمعالم طريق الحج الوعرة والسهلة، مما يجعله يعرف من خلالها مدى استطاعته أو عدمها على الحج.

واشتهرت الرحلة منذ أن انتهى من كتابتها، وقد نسخها سعيد بن أحمد بن يدير العباسي القلعي مرّة أخرى. وتوجد منها حاليا بالمكتبة الوطنية في الجزائر عدّة نسخ منها ثلاثة تحت رقم 2171 و2743 و2968. وكانت قد صدرت أوّل طبعة حجرية لها في تونس في سنة 1903، ثم طبعت بمطبعة بيير فونتانا بمدينة الجزائر سنة 1908، بعد أن صححها محمد بن أبي شنب الذي عثر على ثلاث مخطوطات، والنسخة المطبوعة بتونس، ونشرها بطلب من الحاكم العام الفرنسي جونار. وتحتوي النسخة على 713 صفحة، بالإضافة إلى خمس صفحات تشمل مقدمة الناشر والمصحح، مع ذكر ترجمة المؤلف، وهناك 105 صفحات من الفهارس الخاصة بالأعلام، وأسماء الأماكن والقبائل والأعراش، وأخيرا أسماء المصادر التي تزيد عن 330 مصدرا في مختلف العلوم.[2]

وعلى الرغم من الحشو الذي ميز الرحلة، والتكرار ونقص الترتيب إلا أنها عبارة عن مؤلف عام جمع العديد من العلوم مثل: التوحيد، والفقه، والتفسير، والنحو، والبلاغة، والصرف. والتصوف، ومادة تاريخية وجغرافية غزيرة. وإضافة إلى ذلك تعدّ الرحلة شهادة عن الأحوال السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية في الجزائر والوطن العربي، أو على الأقل البلدان التي مرّ بها أثناء رحلة الحج إلى الحجاز. وقد اعتمد الورثيلاني على مجموعة من

[1]- عبد القادر صحراوي، المرجع السابق، ص 184.

[2]- نفسه، ص 185.

المصادر في كتابه رحلته منها رحلة الشيخ أحمد بن محمد بن ناصر الدرعي الجعفري، والمعروفة بالمرحلة الناصرية، وكتاب "النبذة المحتاجة في ذكر ملوك صنهاجة" لأبي عبد الله محمد بن علي بن حمادة بن عيسى بن أبي بكر الصنهاجي"[1]

و"حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة" لجلال الدين عبد الرحمن السيوطي، وكتاب "عقود الجمان في مختصر أخبار الزمان" لمحمد الشاطبي، وكتاب "الأدلة السنية في مفاخر الدولة الحفصية" للشيخ ابن الشماع الحفصي، كما اقتبس الورثيلاني من "عنوان الدراية في من عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية" لأبي العبّاس أحمد بن أحمد الغبريني، و"رياض الصالحين" لعبد الرحمن الثعالبي. كما اعتمد على مصادر أخرى في الفقه والتصوف والتوحيد، تجاوزت الثلاثمائة مصدر، منها الوغليسية لمحمد الوغليسي وصحيح البخاري وكتاب خليل لابن إسحاق وغير ذلك.[2]

و لم يهتم المؤرخون والدارسون برحلة الورثلاني إلا مع بداية الاحتلال الفرنسي للجزائر مثل شارل فيرو "Féroud" في سنة 1869 في بحث عن مدينة بجاية، وكانت دراسة خاصة بسكان المدينة وجبال المنطقة الوعرة. ونفس الشيء قام به فايست "Vayssettes" أيضا إذ تناول جوانب من حياة الورثيلاني وعلاقاته بالبايات.

كما اهتم مارسي "Mercier" برحلة الورثيلاني في سنة 1931 وطلب بترجمتها إلى الفرنسية، الأمر الذي دفع الحاج صدوق إلى نشر دراسة عن الرحلة في المجلة الإفريقية سنة 1951. ويظهر هذا الاهتمام برحلة الورثيلاني أهميتها وقيمها التاريخية الكبيرة بفضل ما اشتملت عليه من معلومات مهمة لها علاقة بالحياة السياسية والاقتصادية وأسلوب العيش

[1]- عبد القادر صحراوي، المرجع السابق، ص 185

[2]- نفسه، ن ص.

ومستوى الثقافة، والعادات التقاليد والاهتمامات الشعبية للمدن والبلدان التي زارها خلال رحلته إلى الحجّ.[1]

انطلاقا من مجانة، زمورة، ريغة، أولاد دراج، بريكة، بسكرة، سيدي عقبة، الخنقة، طرابلس، ثم إقليم برقة مرورا بالإسكندرية والقاهرة. فالمدينة ومكة. أما في طريق عودته فقد مرّ بالقاهرة والإسكندرية، طرابلس، تونس وقسنطينة وزمورة قبل أن يصل إلى قريته ورثلان.[2]

ومما لا شك فيه أن رحلة الورثلاني رغم نقصها في بعض الجوانب، تعدّ بحق موسوعة حقيقية عن الجزائر وأقطار العالم الإسلامي خلال القرن الثامن عشر 18م. وساهمت رحلاته المتعددة إلى الحجّ، وإتقانه للغة العربية ومعرفة عادات الدول التيي مرّ بها إلى إصدار أحكام منصفة على العصر الذي عاش فيه وأهله.[3]

كما تعد الرحلة مصدرا أساسيا من أجل التعرف على أوضاع الجزائر، وبعض الدول العربية أثناء القرن 18م. فقد سجّل الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية، ووصف طريق الحج المحفوف بالمخاطر وترجم للعديد من العلماء والصلحاء والمشايخ سواء الذين درس عليهم، أو الذين تقرب منهم. فهو عندما يتحدث عن النخبة في رحلته، يقصد العلماء الذين يقرنهم برجال السلطة المنتمين إلى عائلات دينية ذات تقاليد علمية معروفة.

[1]- عبد القادر صحراوي، المرجع السابق، ص 186.

[2]- نفسه، ن ص.

[3]- أبو القاسم سعد الله ، تاريخ الجزائر الثقافي، ج02، المرجع السابق، ص 398.

5)تصوفه:

تميز العهد العثماني في الجزائر بسيطرة روح التصوّف والزهد على كل مظاهر الحياة، وهكذا نجد الكثير من الكتب التي ألفت في التصوّف، وتناولت الأفكار والأوراد والردود والمناقب، والمواعظ، وشروح تخص القصائد الصوفية. والمدائح النبوية التي تنظر إلى الرسول صلى الله عليه وسلم وسيرته نظرة صوفية وروحانية.[1]

وفي هذه الظروف نشأ الورثيلاني الذي كان جدّه أحمد الشريف صاحب زاوية، ولا يزال ضريحه مزارا في بني يعلى، ونفس الأمر يمكن قوله بالنسبة لجده الحسين الفقيه المتصوّف. ومما يؤكد تصوّف الورثيلاني الاهتمام الكبير الذي أعطاه لكتب التصوّف قراءة وتأليفا وتدريسا في الجزائر وغيرها. كما يبرز في رحلته حبّه للأولياء، والتعلق بهم وزيارتهم والتبرك بهم وفي هذا المجال يقول: ".... فإني قد جبلت على حبّها أي زيارة الأولياء منذ صغري، وقد كثرت مني شرقا وغربا وجنوبا، فمهما ذكر ولي أو صالح أو عالم حيّا أو ميّتا، إلا ذهبت إليه، اقتبست من نوره، لاسيما عمالة الجزائر فإني قد خضتها، وبحثت عن أهلها بحثا شديدا تاريخا وسيرة، وطريقة وحالا وكرامة.[2]

ويضيف قائلا : ".... فما تركت من جهدي شيئا ولا في استطاعتي أمرا إلا حاولته في التفتيش عنهم والاستقصاء بالطلب والفعل في آثارهم، لا سيما أهل بجاية فإنها مدينة عظيمة يكاد زيتها يضيئ من علم أهلها وأحوالهم. ويظهر لنا من خلال هذا حرص الورثيلاني على كل أمر له علاقة بالتصوّف، سواء تعلق الأمر بالصوفية أو بالمدن التي تأوي هؤلاء الأولياء، وتصرفهم في العوالم والأكوان، ونفوذهم الباهر وقوتهم وتأثيرهم على العام والخاص على حدّ

[1]- سعد الله أبو القاسم، تاريخ الجزائر الثقافي، ج02، المرجع السابق، ص ص 111-112.

[2]- عبد القادر صحراوي، المرجع السابق، ص 189.

سواء ووصل الأمر بالورثيلاني إلى اعتبارهم أبواب الله في الأرض، ولا سبيل للوصول إلى الله إلا عن طريقهم وفي هذا يقول: "إياك أن تتعرض لأحد من أهل الله ممن تثبت له الخصوصية من الأولياء في زمانك قيما فيه الوسع شرعا، فتزل قدمك بعد ثبوتها حاصلة هم أبواب الله مصداقا لقوله جلّ شأنه ﴿وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾[1].

فالدارس لرحلة الورثيلاني ليكتشف ارتباطا وثيقا بالتصوف، فهو يتكلم عنه من الناحية الشرعية، وينبه ويحذّر المخالفين للأولياء، ويتضح بالتسليم لهم، والخضوع لأمرهم واحترام أهاليهم وأفراد أسرهم ولو كانوا مخطئين. وممّا يدل على تصوّف الورثيلاني أيضا غوصه في دراسة النظريات الصوفية، للقدامى كالجنيد والذين عاصروه أو سبقوه بقليل.

كما افتخر الورثلاني بأنه زار عددا كبيرا من الأولياء والصلحاء من تلمسان إلى عنابة ومن بجاية إلى سيدي خالد كما خصص قسما كبيرا من رحلته للحديث عن المرابطين والصلحاء والشرفاء، فعدد حوالي خمسين منهم في جبل زواوة وحوالي عشرين في بجاية وضواحيها وغير ذلك. كما أورد عددا من الأقطاب التصوّف في المشرق الذين لقيهم أثناء حجاته وأجازره.[2] من أشهرهم شيخ عبد الوهاب العفيفي الذي أخذ عليه الورثلاني الطريقة الشاذلية ولقنه الذكر وجدّد عليه العهد.[3] وكذلاك الشيخ محمد بن سالم الحفناوي الذي سماه "سلطان العارفين" والذي يقول فيه "... شيخنا وعمدتنا العالم على الإطلاق، وشمس الأنوار

[1]- سورة البقرة، الآية 188.

[2]- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص479.

[3]- يعتبر أخذ "العهد" الذي يبدأ عادة بالمصافحة أو القبضة أو التقليد أو لباس الخرقة أو المشابكة البداية الرسمية للمريد في رحلة السير إلى الله وترسيم العلاقة بين المريد السالك وشيخه المربي. ويعاهد المريد شيخه على السير معه في طريق التخلي عن العيوب والتحلي بالصفات الحسنة، والتحقق بركن الإحسان، والترقي في مقاماته. للمزيد ينظر: قويدر قيداري أولاد نهار والولي الصالح والشيخ الناصح سيدي يحي بن صفية، دار الأفق للطباعة والنشر والتوزيع، 2019، ص 137.

بالاتفاق، الشيخ الحفناوي وكتب الإجازة بخط يده في المعقول والمنقول. وكذا لقيني الذكر على طريق أشياخه وأذن لي في الإعطاء... وعند زيارته لبجاية وقت على قبر نُسب إلى عبد القادر الجيلاني، كما أشار إلى حياة أبي مدين شعيب الغوث في بجاية وتلمسان، وقال إن الأولياء أحياء في قبورهم. إلا أنه أخلط من المشعوذين والحمقى والمتصوفة الحقيقين والذين اعتبرهم أولياء صالحون ونسب إليهم الكرامات.[1]

[1]- سعد الله أبو القاسم، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، المرجع السابق، ص 480.

المبحث الرابع: أبو راس الناصري الراشدي المعسكري:

1) مولده:

هو محمد بن أحمد بن عبد القادر بن أحمد بن ناصر[1] الجليلي الراشدي المعسكري. ويبدو أن ثمة اختلاف في تحديد تاريخ ميلاد هذه الشخصية، فهناك من يحدّد ذلك في 1165هـ ومنهم من يقول سنة 1150هـ الموافق 1737م.[2] أما أقبو راس نفسه فيقول عن مولده: "لقد ولدت بعد المغرب ليلة الأحد، مستهل رجب الفرد وذلك سنة تسع. وأربعين ومائة ألف بقلعة بني راشد.[3] قرب مدينة معسكر بالغرب الجزائري بين جبل كرسوط[4] وهونت[5] في منتصف القرن الثاني عشر للهجرة، من عائلة فقيرة. وأنه كما قال عنها. "الصالحة

[1]- نسبته إلى جدّهم الناصر بن عبد الحق بن عبد الرزاق الذي ينتهي نسبه إلى إدريس بن عبد الله الكامل بن الحسن المثنى بن حسن السبط بن علي بن أبي طالب وفاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم للاطلاع أكثر: انظر مخطوط الأنساب من المغرب والمشرق العربيين، مكتبة المتحف البلدي، أحمد زبانة، وهران.

[2]- لقد أجمعت المصادر العربية والأجنبية أن 1437 هو التاريخ الصحيح والمتفق عليه حول مولد أبي راس الناصري باستثناء ما جاء في كتاب تاريخ الجزائر العام، الجزء الرابع، لعبد الرحمن الجيلالي، ص 57، الذي ذكر أنه ولد يوم 8 صفر 1165 الموافق لـ 1751/12/27م، مجلة الراشدية عدد ماي 1995، ص 13.

[3]- تنسب إلى أولاد راشد بن محمد من بطون مغراوة وهذا راشد أخ بدين أعطاه الله إثنا عشر ولدا وكثر نسلهم وامتدت نجابتهم في الحروب وخاف الناس بأسهم شرقا وغربا هذا وفقا لما ورد في مخطوط قلعة بني راشد لابن عثمان القلعي.

[4]- كرسوط هو جبل يقع غرب وادي التاغية بالغرب الجزائري جنوب معسكر يحتوي على آثار بربرية ومطامير ، للمزيد: ينظر محمد الراشدي المزيلي ، عقد الجمان النفيس في ذكر الأعيان من أشراف غريس ، ناسخه بشير محمودي سنة 1964، ص 365.

[5]- هونت جبل يقابل كرسوط السالف الذكر وقد حكم هذه المنطقة المرينيين ويرجع نسبهم إلى ذرية أولاد سيدي عمر يقع غرب كرسوط.

الكاملة... أطول النساء يدا.... يضرب بها المثل في السخاء والصلاح كرابعة العدوية.... وهي أمة الله زولة[1] بنت السيد الفرح ابن الشيخ القطب السيد أعمر بن عبد القادر التوجاني.

وعن مولده يقول أبو راس "ولما ولدت بالموضع المسمى حملتني أمي ووالدي إلى الشيخ الصالح الولي الذي كاد أن يكون كالشيخ الجيلي* شيخ بعض شيوخي، الشيخ بن موسى اللبوخي.[2] أحد صلحاء اليعقوبية، فبارك علي وأخيرا يغيب خوارق وعادات تكون لي مفردات من علم وعمل وصلاح، وعز وحفظ، ... وخطابه وقضاء، وتصنيف.[3]

2- كنيته:

قيل في وصفه أنه كان متوسط القامة نحيف الجسم، أبيض البشرة، خفيف اللحية، صغيرا العينين طويل الأنف نحيفة، كبير الرأس، ولعل كنيته أبو راس قد ألصقت به لذلك.

3- لقبه:

إن أبرز لقب رافق الشيخ أباراس الناصر هو لقب الحافظ[4] وقد اشتهر به لغزارة علمه وفي هذا الصدد قال عنه الحفناوي في تعريف الخلف برجال السلف "وكان يدعى في زمانه

---

[1]- محمد أبو راس الناصري، فتح الإله في التحدث بفضل ربي ونعمته، حققه محمد بن عبد الكريم ، المؤسسة الوطنية للكتاب، د.ت، ص 18

*- يقصد به المتصوّف الكبير وشيخ شيوخ الطرق الصوفية عبد القادر المعروف بالجيلاني أو الكيلاني أو الجيلي توفي في سنة 561هـ/ 1166م، وإليه تنسب الطريقة القادرية.

[2]- هو أحد صلحاء اليعقوبية من بني يعقوب، اليعقوبية قبيلة كبيرة تقع جنوب معسكر تمتد جنوبا إلى فرندة وسعيدة، ينظر عبد القادر المشرفي، بهجة الناظر، تحقيق محمد بن عبد الكريم، دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، د.ت، ص14.

[3]- بوشيبة ذهبية، الحياة الثقافية في الجزائر خلال العهد العثماني "أبي راس الناصري نموذجا" مذكرة لنيل درجة الماجستير، التاريخ والحديث والمعاصر، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة سيدي بلعباس 2008-2009، ص 319.

[4]- نفسه، ص 321.

الحافظ لقوة حفظه وتمكنه متى شاء من استحضار مسائله، حتى كأن العلوم كتبت بين عينيه". وهناك من لقبه يحافظ المغرب الأوساط.[1]

وإلى نفس الفكرة يذهب تلميذه محمد بن علي السنوسي دفين ليبيا، "كان حافظا متقنا لجميع العلوم عارف بالمذاهب الأربعة لا يسأل عن نازلة إلا يجيب عنها بداهة كأنها حاضرة بين شفتيه، محققا لمذهب مالك غاية لاسيما مختصر خليل فله فيه الملكة التامة..." وكان شيخا المذكور حافظ عصره[2] وإمام قطره، الشائع عنه أنه لا يزيد على مرّة في مطالعة الدرس لما منحه الله من سيلان الذهن وقوة الحافظة، ولسرعة حفظه كانت تقع له بعض المواجهات مع تلامذته وفي ذلك يقول صاحب فهرس الفهارس عبد الحي بن عبد الكبير الكتاني" وقد حدثني مفتي وهران، الشيخ الحبيب بن عبد الملك المغربي الأصل عن شيخه عالم وهران السيد الحبيب بن البخاري الوهراني عن أبيه وقد عاصر الشيخ أباراس الناصري أن جماعة من تلامذته تذاكروا في قوة حافظته وكأنهم اتهموه بالاختلاق، فركبّوا اسما نطق على واحد منهم بحرف منه وجعلوه اسما لملك، وسألوا الشيخ عنه، فاملي لهم ترجمته وسيرته وأعماله، فاتفقوا على أن الشيخ كاذب، ولما طالت المدّة وقف أحدهم على الاسم والسيرة في كتاب تاريخي على نحو ما كان أملاه الشيخ أبي راس عليهم فعلموا أن الشيخ الصادق وهم مقصرون...[3] وهذه حالة كبار الحفاظ مع القاصرين والجاهلين". وبذلك فإنه مولد أباراس يعدّ مرحلة انتقالية في الثقافة لبايلك الغرب عموما ومنطقة معسكر خصوصا، هذا إنهم إذا لم نقل سائر بلاد المغرب العربي، كون هذه الشخصية كان لها بالغ الأثر في الحياة الاجتماعية والسياسية

[1]- عبد الحي بن عبد الكبير الكتاني، فهرس الفهارس والأثبات ومعجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات، اعتناء إحسان عباس، ج1، ط2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1982، ص 150.

[2]- نفسه، ص 151.

[3]- نفسه، ص151.

والثقافية، ولا سيما إذا علمنا أن شيخنا قد عاصر فترة الباي محمد الكبير رائد التجديد الفكري، وحامل لواء النهضة الثقافية في بايلك الغرب[1].

4- نسبه:

أما عن نسبه فيقول أبوراس: "فأنا عبد ربي محمد أبوراس بن أحمد بن عبد القادر بن محمد بن أحمد بن الناصر.[2]عبد الله بن عبد العظيم بن معروف بن عبد الله بن عبد الجليل، وأن هذا النسب متصل إلى عمرو ابن إدريس بن عبد الله الكامل بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن علي بن أبي طالب.[3] وفاطمة بنت الرسول صلى الله عليه وسلم.

والده الشيخ أحمد فقد ذكره "... فكان من القراء الماهرين والأساتذة المشهورين ومن أهل الحزم في القرآن والجدّ. وساعي في مساعي الأدب والجدّ. وأمي مثله في الصلاح وأكثر وأما جدّي الشيخ عبد القادر الذي انقادت إليه أئمة ذوي الأقدار والمقادير، فكان أعجوبة الزمان في الولاية والصلاح.[4] وزوجة جدّه اسمها السيدة زينب كما قال عنها: الصالحة الولية القانتة الزكية، ذات الأحوال النفيسة كادت أن تكون كالسيدة نفيسة المسماة أم قاسم بنت

[1]- بوشيبة ذهبية، المرجع السابق، ص322.

[2]- لقد وقع بعض الباحثين في خلط بين شخصة أبي راس الناصر المعسكري، وأبي راس الجربي، حيث نسب الزركلي في كتابه الأعلام إلى هذا الأخير خطأ، كما نسبت العديد من مصنفات أبي راس الناصر المعسكري إلى أبي راس الجربي ونقلا عن بوداود عبيد، تقديم كتاب الحلل السندسية في شأن وهران الجزيرة الأندلسية، محاضرة ألقيت بالمركز الجامعي مصطفى أسطمبولي، معسكر 2008/4/16، ص 02.

[3]- علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه، واسمه زيد بن كلاب بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن نصر بن كنانة تولى الخلافة بعد مقتل عثمان بن عفان رضي الله عنه توفى في 40هـ تاريخ الخلفاء لجلال الدين السيوطي، ص 177.

[4]- بوشيبة ذهبية، المرجع السابق، ص 323.

الحسن بنت الأمير زيد بن الحسن وهي السيدة زينب بنت الشيخ عبد الجليل ذات المنصب الأفخم الجليل.[1]

وبخصوص جدّ والده اسمه الشيخ محمّد، يضرب به المثل في معرفة الفقه والفتوى وعلم الفرائض.[2]

وقد بينت عديد المسائل التي صعبت على غيره من الفقهاء في القول والعمل، فيسرد قائلا: أنه كان جالسا مع ولده العالم ويقصد به الشيخ عبد القادر المشهور الذي ذاع صيته في أقطار المعمورة. وذكر أبو جدّه قائلا: "... القانت المحسن الشيخ أحمد... الذي سمي على والد أبي راس، ونلاحظ أن أبا راس قد تفنن في مدح جد جدّه وذكر مناقبه وكراماته ومزاياه العظيمة، وأبوراس ذكر في معرض حديثه عن مزارات أجداده أنهم أصحاب الفضل في تأسيس مدرسة لقراءة العلم هناك التي كان شيخها جده[3].

وقد ختم أبوراس حديثه عن نسبه وهذا ما بلغنا عن بعض أسلافنا ولله الحمد وما بقي أكثر. وأنّ البذر دائم الإنارة والإضاءة أو يكمل في سياق ذلك مفتخر بأصوله حكى عن العارف بالله ابي الحسن الشاذلي رحمه الله وأرضاه عنا وعن ذريتنا، أنّه قال إذا كان أجليلي يعترف من بحر واحد فأنا بفضل الله أغترف من سبعة أبحر بالجملة، فإنهم رضي الله عنهم لا تنقضي مناقبهم ولا تنقضي عجائبهم.[4]

---

[1]- محمد أبوراس الناصري، المرجع السابق، ص 25.

[2]-علم الفرائض جمع فريضة ولغة مأخوذة من الفرض بمعنى التقدير، وشرعا هو النصيب المقدّر للوارث، نقلا عن السيد سابق، فقه السنة، لبنان، مؤسسة الرسالة الجزء 03، ط13، 1997، ص 348.

[3]- بوشيبة ذهبية، المرجع السابق، ص 324.

[4]- محمد أبوراس الناصر، المصدر السابق، ص 29.

وهيكتابة عن تضلعهم في العلم والمعارف وعلو كعبهم، وتألق مراتبهم بني عصرهم، وما نستشفّه من خلال دراسة ما سبق أنّ الشيخ أبوراس في كل مرة يؤكّد على شرعية نسبه بانتمائه الحسنى بقوله:"وقد شهد لي بالشرف السني والمتمي الحسني والنسب النبوي... الشيخان الراسخان الشيخ مصطفى بن المختار، والشيخ سيدي عبد القادر بن السنوسي[1] وهي مسألة جوهرية تمس نقطة حساسة من حياة العلامة أبي راس، حيث أنّ قضية النسب هذه هي من كانت تحرك دواليب المجتمع خلال العهد العثماني ولا سيّما إذا ارتبط الأمر بعالم أو مفتي، فإنّ انتمائه الشريفي هو من يؤسس له هيبة ومكانة بين الناس ويجعله صاحب الكلمة المسموعة بين الأهالي.

ولعلّ حركة التمرّد التي كانت تقودها الطرق الصوفية ضد السلطة العثمانية ابرز دليل على ذلك حيث إذا أراد أي شخص أن يشق عصا الطاعة على الحكّام، يربط تسبه بآل البيت ويدعى أن النبي صلى الله عليه وسلم قد زاره في المنام وأمره بتسلم زمام أمور المسلمين.[2]

للإشارة فقد انتهج هذه السياسة، الشريف الدرقاوي[3] في تبذير ثورته على الأتراك، وما يدلّ على علق نسب أبي راس، ما تفرّد به المزاري حيث أورد خبر وفاته حيث قال: وما مات مجدّد القرن الثالث عشر ذو التآليف العديدة، والتصانيف الكثيرة المديدة، الشريف

[1] – محمد أبوراس الناصر، المصدر السابق، ص 29.

[2] – بوشيبة ذهبية، المرجع السابق ص 325.

[3] – هو الحاج محمد بن عبد الله بن الأحرش اشتهر بين عامة الناس البودالي، قال عنه الزياني فتى مغربي مالكي مذهبا، درقاوي طريقة، دركي نسبيا، وكان يتصف بالحيلة والمكر والطموح، ويشتهر ببلاغة أسلوبه في الحديث وفصاحة لسانه، قضي عليه بجبال ترارة شمال تلمسان أنظر محمد بن يوسف الزياني، دليل الحيوان وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران، تقديم وتحقيق المهدي البو عبدلي، الجزائر المؤسسة الوطنية للكتاب 1979 ص 207.

الأمجد العلامة الأفرد الذي ليس له نظير، وهذه النقطة لم يتطرّق إليها إلا نزر قليل من الباحثين.[1]

وهذا ما يتطلّب ضرورة ضبط نسب أبي راس وذلك بمحكاة ظروف حياته وأسباب هجرته التي كانت تستغرق وقتا ليس باليسير.

ومن البديهي أن يكون الوطن الراشدي فضاءا ثقافيا مزدهرا ومعطاءا اثّر بقوة في تاريخ الثقافة الجزائرية،[2] لا سيما الجهة الغربية منها حيث بعد أن فقدت تلمسان مكانتها وهيبتها العلمية والثقافية انتقلت هذه المكانة إلى معسّكر عاصمة بايلك الغرب ما بين (1701-1708) كيف لا وقد احتضنت مجدّد العصر الضابط الجامع الحافظ لا مثيل له[3] فهذا الإكراه والمدح يمثلان اعترافا حقيقيا، يفرد أبي راس بمكانة خاصة في بابلكه وتأثيره عليه حيث أضحت معسكر مركز إشعاع علمي وثقافي على غرار مراكز أخرى حضيت بهذه المكانة والريادة نذكر على سبيل المثال مدينة مازونة ومستغانم ووهران.

إنّ هذه الأوصاف التي اكتملت في شخصه وجمعت فيه العلم والنسب حفزته للتطرّق لقضية النسب الحساسة وقتئذ أن حيث كانت مسألة الشرف والشرفاء تحتل أهمية بالغة في

[1]- بن عودة المزاري، طلوع سعد السعود في أخبار وهران والجزائر وإسبانيا وفرنسا ومخزنها الأسود، تقديم وتحقيق يحي بوعزيز، لبنان، دار الغرب الإسلامي، الجزء (1)، ص 340.

[2]- بوشيبة ذهية، المرجع السابق ص 326.

[3]- بن عودة المزاري، المصدر السابق، ص 345.

نظر السلطة والرعية معا، كون الشرف رهان اجتماعي وسياسي فالأشراف يحتلون مرتبة اجتماعية مميزة، لما يحظون من مزايا اجتماعية وسياسية[1].

5) نشأته:

نشأ أبوراس الناصري في بيئة صعبة وقاسية فعرف الفقر والجوع منذ الصغر، فيقول عن نفسه لما انتقل مع أخيه إلى المغرب "وقد استمررت سنين عريانا: لا لباس لي إلا الخوق كالعدم، وما لبست نعلا إلا أن قرب حدسي يقصد البلوغ ولما قدرت على السعي صرت أطلب من البيوت، تم أبيع وأكسى، فيوحي لنا إلى فقرة الشديد والتماسه الصفات من الآخرين و لم تكن لهذا وتصوّفا منه وإنّما للحاجة رغم صغر سنة فلم يبلغ الحلم بعد. فعلى الرغم من حالته الاجتماعية المزرية فلم تمنعه من العلم وطلبه والبحث عنه، ففي طريقه وهو صغير السنّ محمول على أكتاف أخيه والسيد عمر وعلى أكتاف بعض الطلبة وهو يقرأ عليهم القرآن ويسلك[2] لهم ألواحهم ويسأل لهم من البيوت ما يأكلون وإن عجز عن السؤال بعض الأيام ضربوه.[3] حفظ القرآن الكريم في سنّ مبكرة جدّا فلم يبلغ ثماني سنين إذ يقول" فقرأت القرآن في حال صغري، قرأت أحكام القرآن وحفظتها عن ظهر قلبي.[4]

[1]- وهي الامتيازات حيث كانت أملاكهم لا تتعرض للمصادرة وهم معفون من أداء الضرائب لا يمسهم ظلم ولا اضطهاد من قبل السلطة وعمالها بالعكس يتقرب إليهم البايات والقياد يقدمون لهم الهدايا في المناسبات الدينية، مثلما حدث مع أشراف عين الحوت، سبق سبقت الإشارة إليه في الفصل الثالث.

[2]- أسلك، كلمة بالدارجة ويقصد بها أصحح ألواحهم للمزيد ينظر فته الإله ، المصدر السابق، ص 33.

[3]- نفسه، ص 19.

[4]- نفسه، نفس الصفحة.

وبعد وفاة والدته زولة انتقل أبوراس مع والده وأخيه إلى حوز مجاجة[1] أين اعتكف والده على تعليم القرآن للرجال والصبيان.

6) العوامل المؤثرة في طلبه للعلم:

أ) المستوى المعيشي:

كان أبو راس من الذين عانوا غير أنه لم يمنعه الفقر والاحتياج من مواصلة طلب العلم والرحلة إلى الشيوخ، فاكتسب ثقافة واسعة فاعتكافه على المطالعة واتصاله بالعلماء ومواظبته على الحفظ وقد ساعدته في ذلك حافظته القوية.[2]

وكانت بدايته بحفظ القرآن الكريم ومتونه وأحكامه على روايتي ورش وقالون ودراسة الفقه ولم يبلغ سن العاشرة من عمره، فكانت معسكر حاضرة العلم الدين فانتشرت بها العديد من الزوايا والمدارس الدينية وتخرج فيها الفقهاء والعلماء، تعدّ قلعة بني راشد من أعرق والحواضر الدينية بالجزائر.

فقد برزت شخصيته ضمن أقرانه من الطلبة وتفوق عليهم نظرا لإيمانه بالمستحيل وإرادته القوية، وهنا يمكن أن نستدل بقول الدكتور النفساني فاخر عاقل.[3] "الذي يرى أن الإرادة أو بالأحرى الفعل الإرادي يتم عبر أربعة مراحل تصوّر، فمذاكرة، فتصميم، فتنفيذ".

[1]- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، ص377.

[2]- ناصر الدين سعيدوني، من التراث التاريخي الجغرافي الغرب الإسلامي ، بيروت، دار الغرب الإسلامي ، المرجع السابق، ص461.

[3]- مصطفي غالب، في سبيل الموسوعة النفسية "الإرادة"، لبنان، مكتبة الهلال ، ج13، طبعة 1983، ص14.

وكما قال الإمام الشافعي رضي الله عنه.[1]

أخي لن تنال العلم إلا بستة سأنبيك عن تفصيلها ببيان

ذكاء وحرص واجتهاد وبلغة وصحبة أستاذ وطول زمان

فالإمام الشافعي هنا رحمه الله يجعل قانونا سليما لبلوغ العلم ومقدمات لابد منها ومقومات يتعين ركوبها وامتطاؤها وهي ما نص عليه حذاق العلماء.

ب- معاصرته لعهد الباي محمد الكبير:

يعد الباي محمد الكبير من البايات الذين اهتموا بالكتاب وعملوا على استقطاب العلماء وتقريبهم إليه فكان يختار من جلسائه العلماء والأدباء والشعراء، وكانت مجالسه تضم العديد منهم خاصة في المناسبات والأعياد فإن كان يضم فيها أهل الوظائف كالخطباء والأئمة والمدرسين.[2]

كما أن هذا الجوّ الثقافي الذي أحدثه الباي يعد فاتحة عهد جدبد أتاحة الفرصة أمام العلماء والأساتذة لممارسة التعليم واستغلال مواهبهم في الكتابة والتأليف. لذا اهتم الكتاب في عهده بمختلف ضروب الشعر وفنونه وتدوين الأحداث التاريخية كتاريخ مدينة وهران وبايلك الغرب عامة وهذا يرجع إلى عدة اعتبارات نجملها فيما يلي:

[1]- هو بوعبد الله محمد بن إدريس والشافعي القرشي (150-204هـ/ 767-820م) هو ثالث الأئمة الأربعة عند أهل السنة الجامعية، وصاحب المذهب الشافعي في الفقه ومؤسس علم أصول الفقه.

[2]- بوشيبة ذهبية، المرجع السابق، ص 336.

أولا:تشجيع محمد الكبير للكتاب والعلماء حيث كان يغدق عليهم بالهدايا والعطايا ويحثهم على التأليف.

ثانيا: توفير المناصب للعلماء حيث أنشأ المدارس وأقام المساجد وعمل على تعيين الأساتذة الأكفاء لها ليتفرغوا للتعليم لا غير، وقد شغل أبو راس وظيفة أستاذ بالمدرسة المحمدية التي شيدها الباي فاتسع حاله، كما تولى منصب قاضي معسكر ومفتيها.[1]

ثالثا: تشجيع حركة النسخ والتأليف، نشطت حركة النسخ قبل وأثناء العهد العثماني، فقد تميز الناسخون بجودة الخط حيث سهلت مهمة الناسخ نسبيا في العهد العثماني إذ يعد الباي محمد الكبير من أشهر البايات الذين شجعوا هذا العمل الثقافي الجاد، إذ أمر باختصار الكتب المطولة ونسخ المخطوطات النادرة والنفيسة.

لعل أبوراس كانت له مكانة خاصة عند الباي، فكثرت تآليفه وتعدّدت تصانيفه، وكل هذه الحركة الثقافية نابعة من تشبعه بالثقافة وشغوفه بالعلم وحبه للمطالعة.

7) اهتمام أبو راس بالعلم:

كان أبوراس يبيت طيلة الليل منكبا على مطالعة الكتب والبحث في بطون الحواشي.[2] فتشفق عليه ابنته وتستعطفه في الاقتصار فيجيبها قائلا "كيف ينام والدك وخلفه سقط" (وهي كنية عبد القادر المشرفي، يتضح من هذا حب أبي راس للعلم والتأليف من خلال قوله "هذا وإني خضت في هذا الفرد قديما، وضقت به أديما ولم أقل في خدمته مستديما، حتى

[1]- أبوراس الناصري، المصدر السابق، ص 22.

[2]- عبد القادر المشرفي، بهجة الناظر في أخبار الداخلين تحت ولاية الإسبانيين بوهران، من الأعراب كبني عامر تقديم وتحقيق محمد بن عبد الكريم، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب د.ت، مقدمة المحقق ص 06.

كثرت عندي رقاعة وامتلأت بقاعه الفن وصارت نفسي تحدثني بالتدوين والانخراط في صف المؤلفين.[1]

وقد كتب أبو راس بذاكرة قوية كانت عمادة في التأليف والتدريس حيث قال عنه الشيخ عبد الحي الكتاني: "وكان حافظ حجة في السيرة النبوية لا يفوته فيها سؤال وإن أعضل يحفظ البخاري متنا وإسنادا وكذا صحيح مسلم[2]، أعلم أهل زمانه بتاريخ الأنساب، يشوخ المذهب، طأطأ له العلماء الرؤوس، إن هذا التفرّغ التام للعلم، وهذه القدرة الفائقة والحفظ، كان لابد أن تجعل أبوراس يرسم مذهبا خاصا ينفرد به عن معاصريه[3].

جـــ) الرحلات العلمية:

تأثر الشيخ أبو راس بكبار المؤرخين فخرج في رحلات طلب العلم والمعرفة داخل الجزائر وخارجها، حيث خصص الجزء الثاني والثالث من كتابه "فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته" لرحلاته وشيوخه الذين أزالوا قشب أوساخه، فالباب الثاني تحدث فيه عن أشياخه وعنونه تحت اسم (ذكر أشياخي النافضين عني قشب أوساخي شريعة وحقيقة وقرآنا وطريقة.[4]

[1]- بوشيبة ذهبية، المرجع السابق، ص 338.

[2]- عبد الكبير عبد الحي الكتاني، المصدر السابق، الجزء2، ص ص 15-16.

[3]- بوشيبة ذهبية، المرجع السابق، ص 340.

[4]- حمدادو بن عمر، الشقائق النعمانية في شرح الروضة السلوانية في علم الصيد، دراسة وتحقيق، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، لبنان، 2010، ص 65.

أما الباب الثاني فتعرض فيه إلى رحلاته وعنونه تحت اسم (رحلتي للمشرق والمغرب وغيرها ولقائه العلماء والأعلام وما جرى لي معهم من المراجعة والكلام.[1]

وما يهمنا هنا هو رحلاته العلمية التي امتدت عبر الجزائر والمغرب وتونس ومصرر والشام والحجاز، والتي التقى خلالها مع أكابر العلماء وهي مرحلة علم واستطلاع وكانت له معهم مناظرات ولقاءات علمية وفقهية بحثة أخذ منهم وأخذوا منه.

وعلى هذا الأساس يمكننا تقسيم رحلة أبي راس إلى قسمين: رحلات علمية داخل الجزائر وأخرى خارجها.

1- الرحلات الداخلية:

من بين رحلاته العلمية داخل إيالة الجزائر حاضرة معسكر باعتبارها المسيرة العلمية الأولى على يد عالمها عبد القادر المشرفي الذي درس على يديه أبو راس ألفية ابن مالك على شرح المكودي والتي جعل عليها حاشيتين، صغرى وكبرى، كما قام بإنجاز تأليف عند إتمام الدراسة والذي يعرف في عصرنا الحالي رسائل التخرج وكان مؤطره في ذلك الشيخ المشرفي الذي كانت له شهرة علمية واسعة في ذلك العصر. ثم انتقل بعد ذلك أبوراس إلى القيطنة[2] لمزاولة تعليمه ثم إلى البرج.[3] وبعدها إلى غيليزان.[4]

---

[1]- أبو راس الناصري، المصدر السابق، ص 91.

[2]- القيطنة، هي قرية على بعد 28 كم من مدينة معسكر مقر أسرة الأمير عبد القادر، اختطها جده مصطفى بلمختار سنة 1206هـ، وفيها درس شيخنا أبو راس للمزيد: انظر، مولاي بلحميسي، الجزائر من خلال رحلات المغاربة في العهد العثماني ، ش.و.ن.ت، طبعة 1979، ص 16.

[3]- البرج، قرية صغيرة تقع شمال شرق معسكر على بعد 24كم، كانت تعرف من قبل ببرج عياش ثم أصبحت تعرف فيما بعد ببرج المخفي نسبة إلى قدور بلمخفي الذي قطنها في عهد الأتراك انظر، Raoul P, Note sur el Bordj depuis la dernière période de l'occupation turque jusqu'à nos jours, 1899, p 17

[4]- غليزان مدينة داخلية فلاحية وهي بمحاذاة مازونة ومستغانم وقلعة بني راشد.

ومن ثم انصرف إلى مازونة والتي كان صيتها يجول في تلك الفترة، ليرجع بعدها إلى معسكر ويتفرغ للتدريس دون انقطاع. ثم طابت نفسه للرحيل فكانت أول رحلته 1789، تعرف خلالها بعدة علماء وشعراء وكتاب والتقى بمفتيها محمد بن جعدون وكذا شيخها محمد بن مالك، وقد وصفه كسيل شعر وبحر لا ساحل له، لم يدع فاذة إلا أدرجها ولا شادة إلا استخرجها كما نزل قسنطينة والتقى بعالمها عبد الكريم محمد الفكون، وقاض الجماعة الحاج سيدي علي الونيسي وتذاكرا في شرح العلوم والفنون، ثم قصد وهران، حيث التقى بعالم البلاغة والنحو السيد محمد بن حسن وكانت بينهما مناظرة، كما زار تلمسان وكانت له مناقشة مع بعض علمائها ونستشف ذلك من خلال قوله: "دخلت تلمسان وسئلت عن علمائها وملوكها ومن اختطها".[1]

2- الرحلات الخارجية:

* رحلته إلى فاس:

أما بالنسبة لرحلته العلمية خارج الجزائر فامتازت بالتنوع والأهمية البالغة في تكوينه العلمي المحض، فكانت البداية من فاس سنة 1801، حيث تقابل فيه ا بالشيخ الطيب بن كيران وتناظر معه في مسائل فقهية، لقد حجّ شيخنا مرتين أولاهما كانت سنة 1204هـ/ 1790م، وبعد أكبر رحلة قام بها أبوراس التقى خلالها بشعراء وكتاب وعلماء أفادوه كثيرا، كما التقى بعلماء الجزائر، قسنطينة، مصر، الحرمين الشريفين والشام. ومن جملة الذين التقى

[1]- محمد أبوراس الناصري، المصدر السابق، ص 108.

بهم وخصهم بالذكر والثناء، شيخه أبو الفيض محمد مرتضى الزبيدي الذي قرأ عليه عدة علوم.[1]

*** رحلته إلى تونس:**

نزل عند الشيخ السيد محمد بن المحجوب واجتمع بعلمائها في جامع الزيتونة. وجالس الكواش وذكره "العلامة الفهامة كلّ المعقول والأصول والبيان على ظاهر قلبه، من حفظه وفهمه" وتناقش معه في أهمية العلماء وأعمالهم، كابن خلدون وابن ناجي...إلخ. كما اجتمع مع علماء أجلاء من بينهم إبراهيم الرياحي في قوله "وقد اجتمعت بعالم الدنيا على الإطلاق وأديبها بالاتفاق، أخينا السيد إبراهيم الرياحي معارض الحريري في المقامات، كما رأى تآليفي استحسنها غاية الاستحسان ونثر عليها قصائد حسان. وقد حضي أبو راس بمكانة خاصة تليق بمقامه حتى عند الحكام لما سمعوا عنه من ذكاءه وسرعة إجابته دليل على سعة اطلاعه وتبحره في مختلف فنون العلوم[2].

*** رحلته إلى مصر:**

من تونس وبعد فراغه من لقاء الباي حمودة باشا رحل إلى مصر والتقى بالعديد من العلماء فقرأ عليهم، منهم الشيخ المرتضى الزبيدي والشيخ الشرقاوي والشيخ الأمير.[3] فدخل في نقاش مع عدد علمائهم بعدما علموا أنه الملقب بالحافظ فحاولوا إسقاط هذا اللقب عنه بامتحان مدى قدرة ذاكرته على الاسترجاع، لكنه أفحمهم بالحجة والبرهان.

---

[1]- حمدادو بن عمر، المصدر السابق، ص 67.

[2]- بوشيبة ذهبية، المرجع السابق، ص 348.

[3]- أبوراس، المصدر السابق، ص ص 107-108.

مجمل القول فقد كان لهذه الرحلات والأسفار أثر بارز في تكوين وصقل شخصية أبي راس العلمية، مما جعلته يتعرّف على علماء، وفقهاء ويجري معهم مناظرات مختلفة كان لها وقع كبير على إنتاج أبي راس المتنوع في شتى فنون العلم والمعرفة كما أن رحلاته يطغى عليها الطابع الصوفي من خلال أحكامه وعدم معارضته للطقوس الصوفية.

8- إجازاته:

تعد الإجازات العلمية من مقاصد الطالب الباحث المجد، فتحصيلها لا يكون إلا بالتلقين الجيد والإقراء على الشيخ أو السماع منه، فبفضلها بتصدر مجالس التدريس والفتوى في المجتمع ما أهّله أن يتبوّأ مناصب عليا في الفتوى والقضاء والتدريس.[1] والمعروف أن الإجازة عبارة عن شهادة الكفاءة أو التأهيل يستحق بها المجاز لقب الشيخ أو الأستاذ في العلوم المجاز بها.[2] ومن الذين أجازوا أبا راس في مختلف الفنون،ـــ كصحيح البخاري، والجامع الصغير، والأسانيد، والفتوى ومختصر خليل الشيخ مرتضى الزبيدي، الذي كان له أثر بالغ على علماء الجزائر بطريق الإجازة، أيضا الشيخ محمد الأمير ولقبه بالحافظ كما أجازه الشيخ العلامة الشرقاوي ولقبه بشيخ الإسلام.

9- مؤلفاته وآثاره العلمية:

خلف العلامة الحافظ أبوراس مصنفات علمية جعلته من القلة القلائل الذي ورثوا كل هذه المؤلفات إذ ترك مكتبة ثرية قلّما يؤلفها كبار العلماء، فلا يعلم من غيره أكثر منه في التأليف إلا الإمام السيوطي الذي فاق الثلاثمائة تأليف فدوّن في مختلف المجالات. أما بالجزائر

[1]- زروق جيجيك، الرحلات وأثرها في انتصار التصوّف في الجزائر العثمانية (10-13هـ) (16-19م) رحلة الورثيلاني أنموذجا، أطروحة لنيل شهادة دكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة سيدي بلعباس، 2019-2020، ص 65.

[2]- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، دار الغرب الإسلامي، 1998، ص 39.

فحسب علم الأستاذ زروق جيجيك باستثناء أحمد البوتي الذي تجاوزت تآليفه المئة، وغلب على أبي راس الناصري في مؤلفاته طابع عصر التأليف في العهد العثماني، فشرح المتون، بل جعل للمتن الواحد عدة شروح واعتمد على حفظه فأكثر في تآليفه من التكرار والاستطراد وذكر العجائب والغرائب تماشيلا مع عصره.[1] وحسب ما ذكره الأستاذ زروق جيجيك فإن عدد مؤلفاته قدّر بـــ سبعين مخطوطة ذكرها في القسم الخامس من رحلته.[2] أما الدكتور يحي بوعزيز في مخطوطة عثر عليها خطّها أبو راس الناصري بيده والتي سجّل فيها عدد تآليفه التي وصلت إلى 136 مصنف في مختلف العلوم.[3]

غير أن تآليفه قد تعددت وتنوعت تنوعا كيرا وهو بدوره عبّر عن ذلك قائلا: "وإنما عددت تآليفي وجملة تصانيفي اقتداء بالإمام السيوطي، فإنه عدّ ما ألف في كتابه حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، فكانت نحو ثلاثمئة من عشرة أجزاء إلى ورقة، وما أعلم أكثر التآليف بعده غيري. والكمال لله، شملت التفسير والحديث والأصول والفقه والمنطق واللغة والتصوف وعلم الكلام والتاريخ والأنساب والنحو.

وعلى ما يبدو فإن أبا راس الناصر لما شعر لدنو أجله عمد إلى تدوين ما ألفه في حياته وقد أشار إلى تلك في مؤلفه شمس معارف التكاليف في أسماء ما أنعم الله علينا من التآليف وتقتصر على ذكر بعض مؤلفاته في مختلف العلوم والفنون.

---

[1]- أبو القاسم سعد الله، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، عالم المعرفة، الجزائر، 2009، ص 338.

[2]- أبو راس، فتح الإله، المصدر السابق، ص 179.

[3]- يحي بوعزيز، الشيخ أبو راس الناصري وإنتاجه الفكري والأدبي، المجلة التاريخية المغربية، عدد 54-55، تونس 1989، ص ص 245-253 نقلا عن أبي راس الناصري، شمس معارف التكاليف في أسماء ما أنعم الله بها علينا من التأليف.

– في علم التاريخ 34 مخطوطة

– زهرة الشماريخ في علم التاريخ. (حققه الأستاذ حمدادو بن عمر)

– درء السحابة فيمن دخل المغرب من الصحابة

– ذيل القرطاس في ملوك بني وطاس

– في غريب الأخبار عما كان بوهران والأندلس وهو عجائب الأسفار ولطائف الأخبار (حققه الأستاذ بوركبة محمد)

– لقطة العجلان في شرف الشيخ عبد القادر بن زيان وأنه من بني زيان ملوك تلمسان حققه الأستاذ حمدادو بن عمر.

– في علوم القرآن: 12 مخطوط:

– الإبريز والإكسير في التفسير في ثلاثة أسفار (بحوزة الأستاذة بوشيبة ذهبية).

– السيوف القوامع في شرح الدرر اللوامع.

– إعانة القدير في شرح النشر والتيسير في ثلاثة أسفار.

– الحديث:

– كتاب مفاتيح الجنة وأسناها في الأحاديث التي اختلف العلماء في معناها.

– النور الساري في شرح صحيح البخاري في ستة أسفار.

– المختصر المعلم في شرح مسلم ثلاثة أسفار.

– البيان:

– كتاب نيل الأماني على مختصر سعد الدين التفتزاني .

–الفقه: 11 مخطوطا:

– درة عقد الحواشي على جيد شرحي الزرقاني والخراشي، في أربعة أسفار.

– أحكام الجوازل في نبذ من النوازل .

– الأقوال الحليمة في نظم شروط الوليمة.

– الكوكب الدري في الرد على الجدري حققه الأستاذ بوكعبر للفرد.

–الأصول:

–السيف المحلي على شرح المحلي .

– القول الجامع في شرح جمع الجوامع.[1]

–التوحيد والتصوف:

– الزهر الأكم في شرح الحكم.

– فتح الإله في التوصل إلى حكم ابن عطاء الله .

[1]– بوشيبة ذهبية، المرجع السابق، ص ص: 396-397.

- كتاب الحاوي[1] لنبذ من التوحيد والتصوف والأولياء والفتاوى.

- كفاية المعتقد ونكاية المنتقد على شرح الكبرى.

- التشوف إلى مذهب التصوف.

-اللغة: 3 مخطوطات:

- ضياء القابوس على كتاب القاموس.

- الضابط المختصر من الأزهري على قواعد القاموس والجوهري.

- رفع الأثمان في لغة الولائم الثمان.

- علم الفلك:

- إزالة الحلك في إبطال صوم من يأخذ برأي أهل الفلك.

- القول السعيد في شرح مقنع بن سعيد.

- قبس الأنوار في شرح روضة الأزهار.

- الأدب:

- النزهة الأميرية في شرح المقامات الحريرية –شرح صغير.

[1]- حققه الأستاذ أبو عبد القادر عابدين بن حنفية، سنة 1425هـ/2004م.

- الحلل الحريرية في شرح المقامات الحريرية شرح كبير.[1]

- القصائد:

- القصائد والإسعاد في بنات سعاد.

-نيل الأرب في شرح لامية العرب للشنفرى.

- فتح الإله في شرح عقيقة ابن عبد الله.

- الأنوار الجليلية في شرح القصيدة الخليلية.

- فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته.

(حققه محمد بن عبد الكريم)

- القول الماطي في شرح لامية الدمياطي[2].

وفاته:

توفي محدّد العصر وفقيه زمانه أبوراس الناصري المعسكري الجزائري يوم الأربعاء 15 شعبان سنة ثمان وثلاثين ومائتين وألف المواقف (1823/04/22) عن عمر يناهز التسعين سنة مضاها كلّها في خدمة العلم والدين. صلى عليه خلق كثير من الناس قدره البعض بألف وخمسمائة (1500) أما عن سبب وفاة أبي راس فيرجعه الكثير من المؤرخين إلى مرض

[1]- ينظر: محمد زمري، أعلام المغاربة في شرح المشارقة الجزائر، دار الغرب للنشر والتوزيع، ص 89، وفته الإله، المصدر السابق، ص 97.

[2]- بوشيبة ذهبية، المرجع السابق، ص 399.

الطاعون الذي كان منتشرا في سنة 1823م وهو القول الراجح الذي يذهب إليه الباحث حمدادو بن عمر استنادا إلى ما ذكره الشيخ مسلم بن عبد القادر "ومات به خلق كثير من العلماء من بينهم العلامة الكبير أبو راس الناصر".[1] قبره معلوم موجود وسط معسكر في حي بابا علي (يزار حاليا).

خلاصة:

لقد ساهم رجال التصوف و المتصوفة في الجزائر أيما اسهام في نشر العلم وتهذيب الأخلاق وتطهير الدين من البدع والخرافات التي علقت به. وما زال التراث الصوفي الجزائري بحاجة إلى إماطة اللثام عنه، خصوصا وأن الباحث يتوفر اليوم على مادة مصدرية هامة أهمها المخطوطات النادرة التي ما زالت حبيسة المكتبات العامة والخاصة.

[1] – مسلم بن عبد القادر، أنيس الغريب والمسافر تحقيق رابح بونار، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط ، 1987، ص25.

خاتمة

خاتمة:

لقد شهدت الجزائر خلال العهد العثماني وبالتحديد خلال (القرنين 16-17) تطورات سياسية وأحداث تاريخية هامة، متمثلة في قيام الحكم التركي العثماني بها. وبفضل ما اعتمدناه من مصادر متعددة ومتنوعة، أثبتنا أن الزوايا والطرق الصوفية انتشرت واتسع نفوذها في كل أنحاء الوطن وخاصة الغرب الجزائري الذي شهد كثرة وتعدد الزوايا والطرق الصوفية بحكم قربه من المغرب الأقصى وطول صراعها مع النصارى خاصة الإسبان.

ومعظم هذه الطرق الصوفية أصلها إما المشرق أو المغرب.

وتعد الطريقة القادرية التي أسسها الشيخ عبد القادر الجيلاني من أقدم الطرق الصوفية التي ظهرت في الجزائر، وتفرعت عنها باقي الطرق الأخرى، وأبرزها الشاذلية نسبة إلى الشيخ أبي الحسن الشاذلي دفين مصر، وعن هذه الطريقة تفرعت طرق أخرى مازالت موجودة إلى يومنا هذا كالطريقة الدرقاوية ومؤسسها مولاي العربي الدرقاوي المغربي، والطريقة العيساوية والطيبية واليوسفية والجازولية، الرحمانية وغيرها من الطرق هذا يدل على مدى تأثر الفكر المغربي عموما والجزائري خصوصا بتعاليم الطريقة الشاذلية ومن النتائج التي توصلنا إليها من خلال موضوع بحثنا ما يلي :

-التصوف الحقيقي هو صفاء القلب والروح والخالي من البدع والخرافات.

-تأثير التصوف على نشر الأخلاق الفاضلة وطهارة النفس وتزكيتها.

-مساهمة هذه الزوايا في نشر الإشعاع العلمي والروحي والثقافي بين أوساط المجتمع.

-أهمية منطقة عين الحوت قديما وحديثا باعتبارها مهد الدولة السليمانية التي ينتهي نسبها إلى آل البيت الأطهار ويكفي أنها تضم عددا كبيرا من الأولياء والصلحاء أشهرهم على مر الزمان ضريح سيدي عبد الله بن منصور وحفيده سيدي محمد بن علي.

-ضرورة إماطة اللثام عن التراث المادي واللامادي لمنطقة عين الحوت .

-لا ندعي أننا وصلنا إلى نتائج في غاية الدقة والإحاطة حول الموضوع المدروس، وإنما شكلت مقاربتنا هاجسا علميا حول أرضية البحث.

إن ما استطعنا كشفه من نتائج تطابق تماما الفرضيات المقترحة في إشكالية البحث أدى تأكيدها جملة من الاستنتاجات:

-كان للزاوية في الريف أيام العثمانيين أرضا موقوفة يحوزها المسلمون ويعتنون بها، ويستعمل إنتاج هذه الأرض في صيانة الزوايا وتغطية نفقات الشيوخ والمدرسين ومعيشة المريدين.

-كما أن هذه الزوايا ساهمت في تلقين الأذكار والأوراد وتعليم الناس أمور دينهم ولأجل ذلك رحل إليها عدد من طلبة العلم ممن ينتسبون في الأصل إلى المنطقة أو من خارجها فنالوا منها القسط الأوفر وانخراط بعضهم في مدارج التصوف.

-إن هذه الزوايا كثيرا ما اشتهر مؤسسوها بكراماتهم المتعددة والمتنوعة، والتي كانت في الغالب وليدة حاجات الناس المختلفة جعلتهم يطلبون بركتهم ويعطون ولاءهم لهم دون شرط أو قيد.

-إن مؤسسوا هذه الزوايا إلى جانب نزعتهم الصوفية وقوة شخصيتهم ولباقتهم في حل المشاكل بين الناس عامة والأتباع خاصة فإنهم كانوا شرفاء النسب.

-وما يمكن استنتاجه من خلال دراستنا أن هذه الزوايا لم تكن تنهض بوظائفها المختلفة على أحسن وجه لو لم تتوفر لها كثير من الشروط البشرية والمادية، إذ كانت في معظمها تخضع لتنظيم مركزي قوي في هياكله، وغالبا ما يكون شيخ الزاوية هو من وضع هذا التنظيم خصوصا لما يزداد عدد الاتباع والمريدين من الرجال والنساء بزاويته إلى جانب مصادر تموينها المتعددة والمتنوعة والتي اختلفت من زاوية إلى أخرى حسب شهرة الزاوية وشهرة مؤسسها وأعداد مريديها وأتباعها.

-ومن هذه الوظائف التي اضطلعت بها هذه الزوايا وحرصت على تأديتها، مسألة الصلح بين المتخاصمين، فكثيرا ما كان يتدخل شيوخ الزوايا دون استثناء في الفصل في النزاعات بالصلح وبترسيخ قيم العفو والتسامح والصبر وإزالة الشحناء والبغضاء.

-كما كان لهذه الزوايا اهتمامات كبيرة وواسعة في ميادين التعليم والعلم، إذ تصدر شيوخها له بعد إتمام تكوينهم الديني والعلمي واستقرارهم وتأسيسهم لزواياهم التي كانت مقصدا وقبلة لطلاب العلم و العلماء من مختلف الآفاق يفيدون ويستفيدون.

-والزاوية هي مجموعة البنايات ذات طابع ديني مقدس مفتوحة الأبواب للفقراء والمساكين وعابري السبيل، بها مجمعات من البيوت والمنازل مختلفة الأشكال والأحجام، وتشمل على بيوت للصلاة وضريح صاحب الطريقة أو الزاوية أو مجموعة الأضرحة تضم رفات أفراد عائلته، وغرف لتحفيظ القرآن الكريم وتعليم مختلف العلوم، وأخرى لسكن الطلبة وطهي الطعام وتخزين المواد الغذائية والعلف للحيوانات.

-كما أن للزاوية أهمية كبيرة مكانة اجتماعية ودينية، حيث تعتبر مركز شعائري وتنشئة اجتماعية حيث تتجسد فيها روح العادات والتقاليد الشعبية وتربي الروح وتغذّيها بالفضائل الإنسانية .

كما اهتمت الزوايا بعدة جوانب منها:

-تحفيظ القرآن الكريم ونشره بصورة مكثفة واحتضان اللغة والثقافة العربية الإسلامية وتعليمها بشكل واسع ، ونشر الدين الإسلامي في جميع أنحاء العالم.

-وسميت بالزاوية لأن الذين فكروا في بنائها أول مرة من المتصوفة والمرابطين اختاروا الإنزواء بمكانها، والابتعاد عن صخب العمران وضجيجه طلبا للهدوء والسكن الذين يساعدان على التأمل والرياضة الروحية ويناسبان جو الذكر والعبادة وهي من الوظائف الأساسية التي وجدت من أجلها الزاوية.

-كما تعد الزوايا خزانا للكتب النفيسة والمخطوطات النادرة في مختلف العلوم والمعارف التي لا يمكن بأي حال من الأحوال للباحثين والطلبة الاستغناء عنها في كتابة تاريخ الجزائر.

-كما أن إلى جانب التقاليد الفنية والمعمارية الواردة استمرت التقاليد المغربية المحلية التقليدية خلال العهد العثماني.

الملاحق

الملحق رقم 01

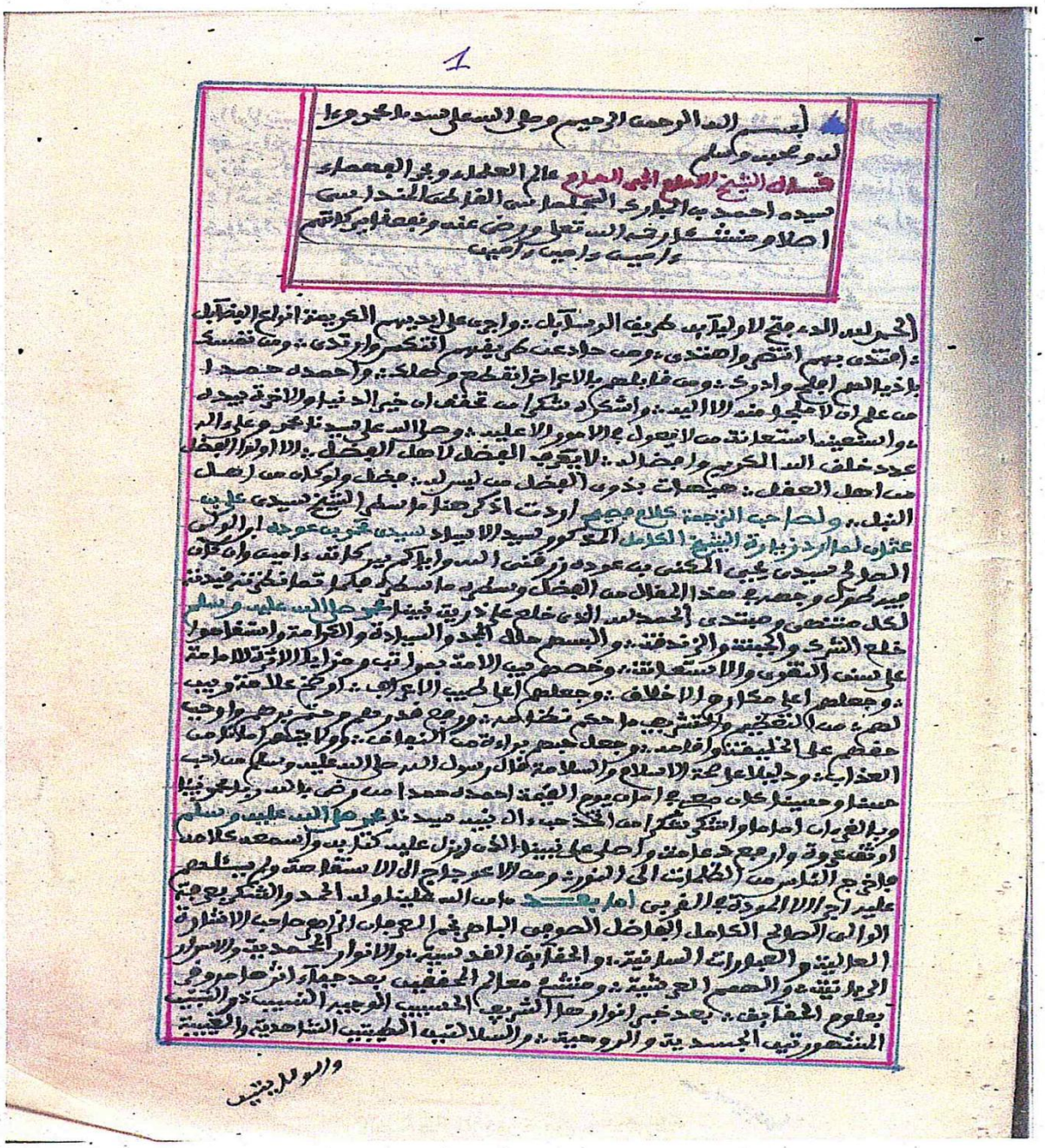

الصفحة الأولى من مخطوطة

تحفة الهدى في مناقب سيدي احمد بن عودة

المؤلف: سيدي أحمد بن المبارك السجلماسي (ت 1120ه / 1708م)

الملحق رقم 02

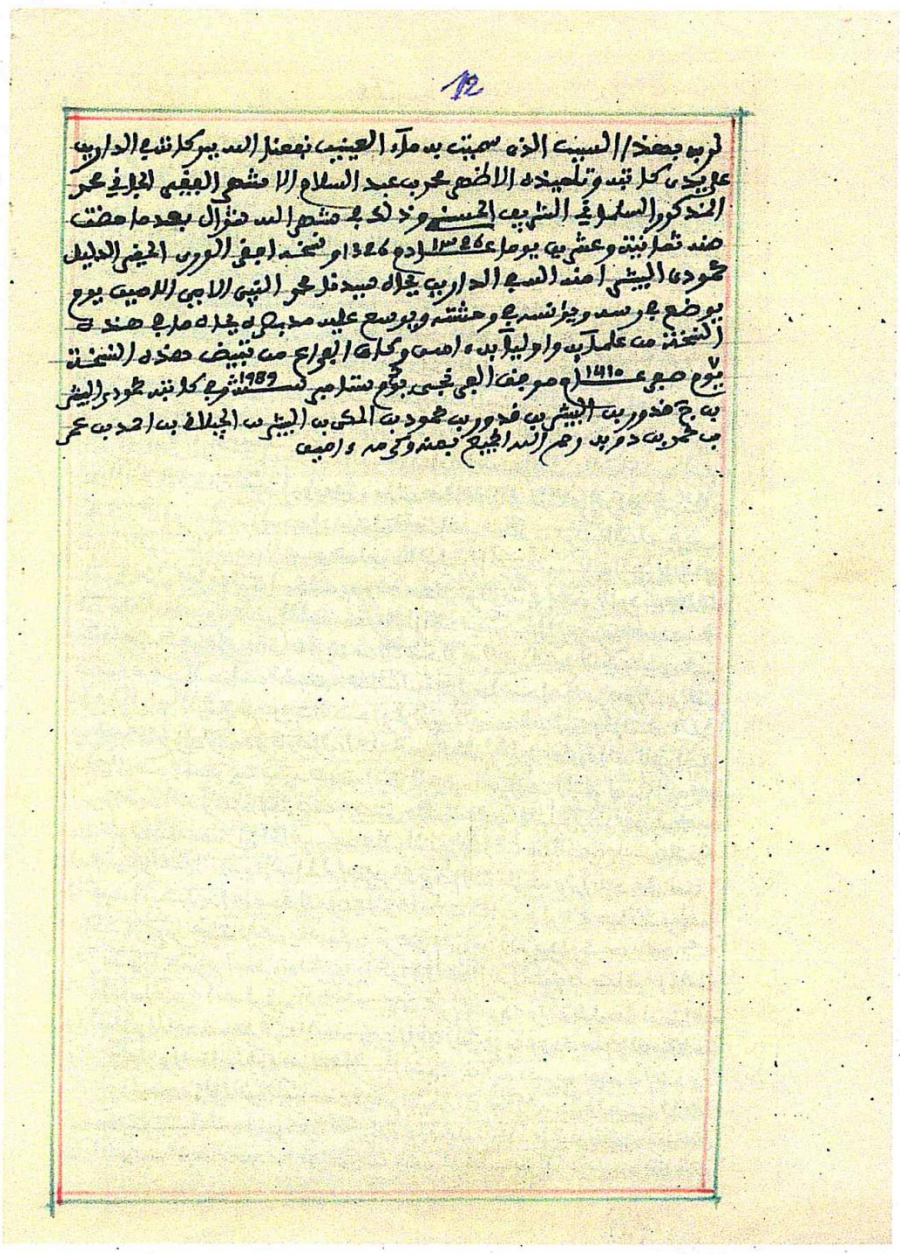

الصفحة الأخيرة من مخطوطة

تحفة الهدى في مناقب سيدي احمد بن عودة

المؤلف: سيدي أحمد بن المبارك السجلماسي (ت1120 ه /1708ـ)

الملحق رقم 03

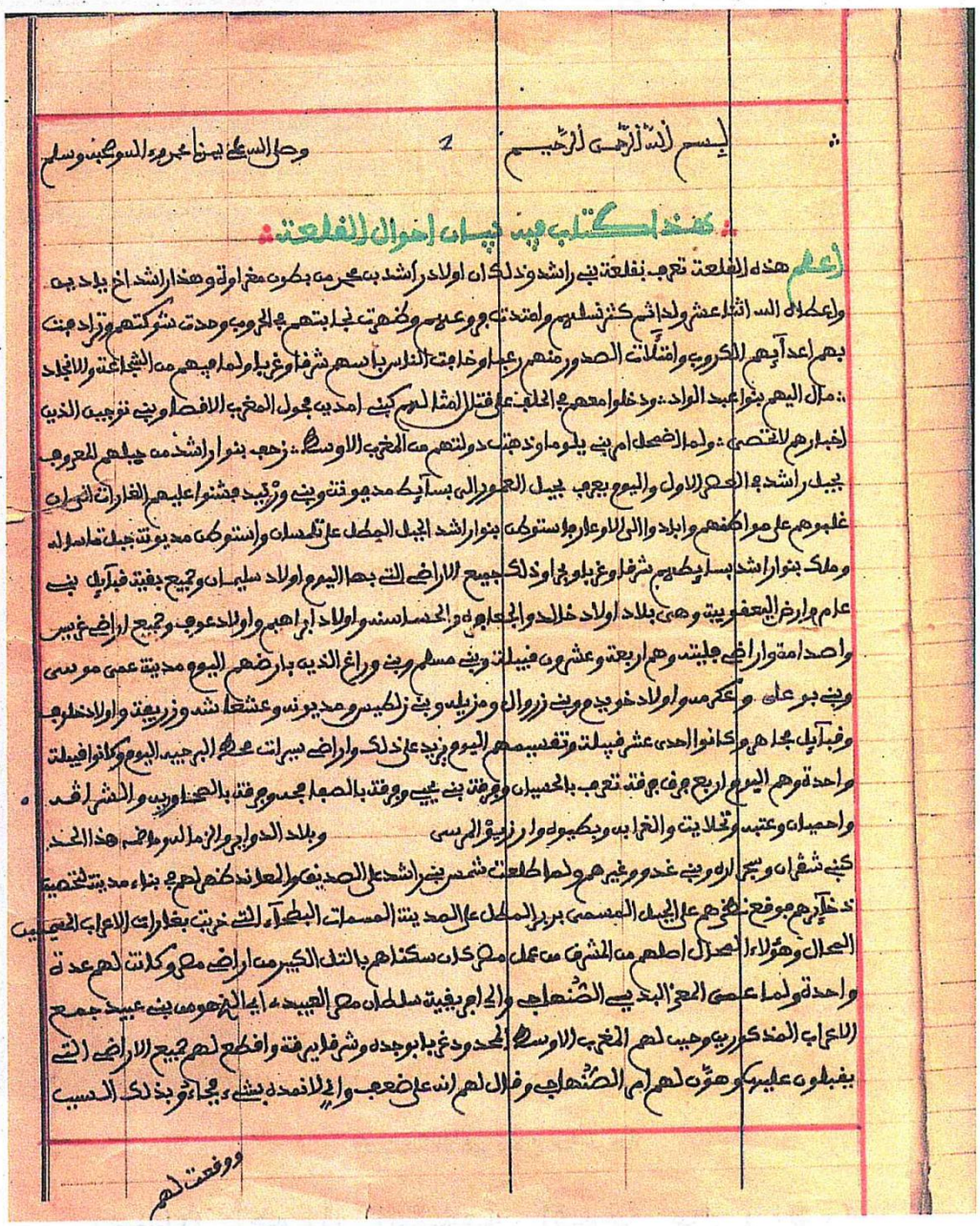

بسم الله الرحمن الرحيم ... وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم

هذا كتاب فيه بيان أحوال القلعة

أعلم هذه القلعة تعرف بقلعة بني راشد وذلك ان اولاد راشد بن محمد من بكور مغراوة وهذا راشد اخ يادين واعلاه الله اثنا عشر ولدا شكثر نسلهم واتسعت بلادهم وكثرت جيوشهم في الحروب ومدت شوكتهم وزادت بهم اعدآئهم الكروب واشتملت الصدور منهم رعبا وخافت الناس باسهم شرا وغربا ولما بهم من الشجاعة والانجاد مال اليهم بنو اعبد الواد ودخلوا معهم في الحلف على قتال القبائل كبني امديه مجول المغرب الاقصى وبني توجين الذين اخبارهم تختص ولما انضم اليهم بنو يلومان وذهبت عدولتهم من المغرب الاوسط زحف بنو راشد من جبالهم للعروب بجبل راشد في العصر الاول واليوم يعرف بجبل العمور الى بسايك مدينة وبني وزيد فشنوا عليهم الغارات الى ان غلبوهم على مواطنهم وابادوا الى الاوعار واستولوا بنو راشد الجبل المحلل على تلمسان واستولوا مدينة جبل تامزالت وملك بنو راشد بسايك بشرقاوغربا وذلك بجميع الاراضي التي بها اليوم اولاد سليمان وجميع بقية قبائل بني عامر وارض المعقوبية وهي بلاد اولاد خالد والجعافرة والخمسة سنوا اولاد ابراهيم واولاد عوف وجميع اراضي غيس واصدامة واراضي جليته وهم اربعة وعشرون قبيلة وبني مسلم وبني وراغ الذين بارضهم اليوم مدينة عين موسى وبني بوعلي واعكر من اولاد خويلد وبني زرواك ومزيلد وبني زكيس ومديونة وعشعاشة وزريعة واولاد اخلوف وقبائل جذامي وكانوا احدى عشر قبيلة وتقسيمهم اليوم يزيد على ذلك واراضي سيرات عندهم الى جبيه اليوم وكانوا قبيلة واحدة وهم اليوم اربع جرفة تعرف بالحميان وجرفة بني يحيى وجرفة بالصعاجمة وجرفة بالصعاويين والعشراقد واحميان وعتبة وتخلايت والغرابة ويكيوه وارزيو الرسي وبلاد الدواجي والزمالة وباقي هذا الحد كبني شقران وسجراره وبني غدو وغيرهم ولما كانت قلعة شمس بني راشد على الصديق والعاند كفاهم في بناء مدينتهم تخليهم وضع بنائهم على الجبل المسمى بريد المحلل على المدينة المسماة البطحاء التي خربت بغارات الاعراب المعقيليين المحلل وهؤلاء الاصل اصلهم من المشرق من عمل مصر كان مسكناهم بالتل الكبير من اراضي مصر وكانت لهم عدة واحدة ولما على العهد البديء الضحاب والي اجابي بقية ملوك مصر العبيديه ايالة هوارة من بني عبيد جمع الاعراب المذكورين وجيء لهم المغرب الاوسط المحدود غربا بوجده وشرقا بريغة وافتتح لهم جميع الاراضي التي يقطنون عليها وهون لهم امر الضحاب وقال لهم انه على ضعف واني لا انفده بشيء ويجازى بذلك الدسيب

ورفعت لهم

الصفحة الأولى من مخطوطة

بيان أحوال القلعة (قلعة بني راشد)

المؤلف: مؤلف مجهول

الملحق رقم 04

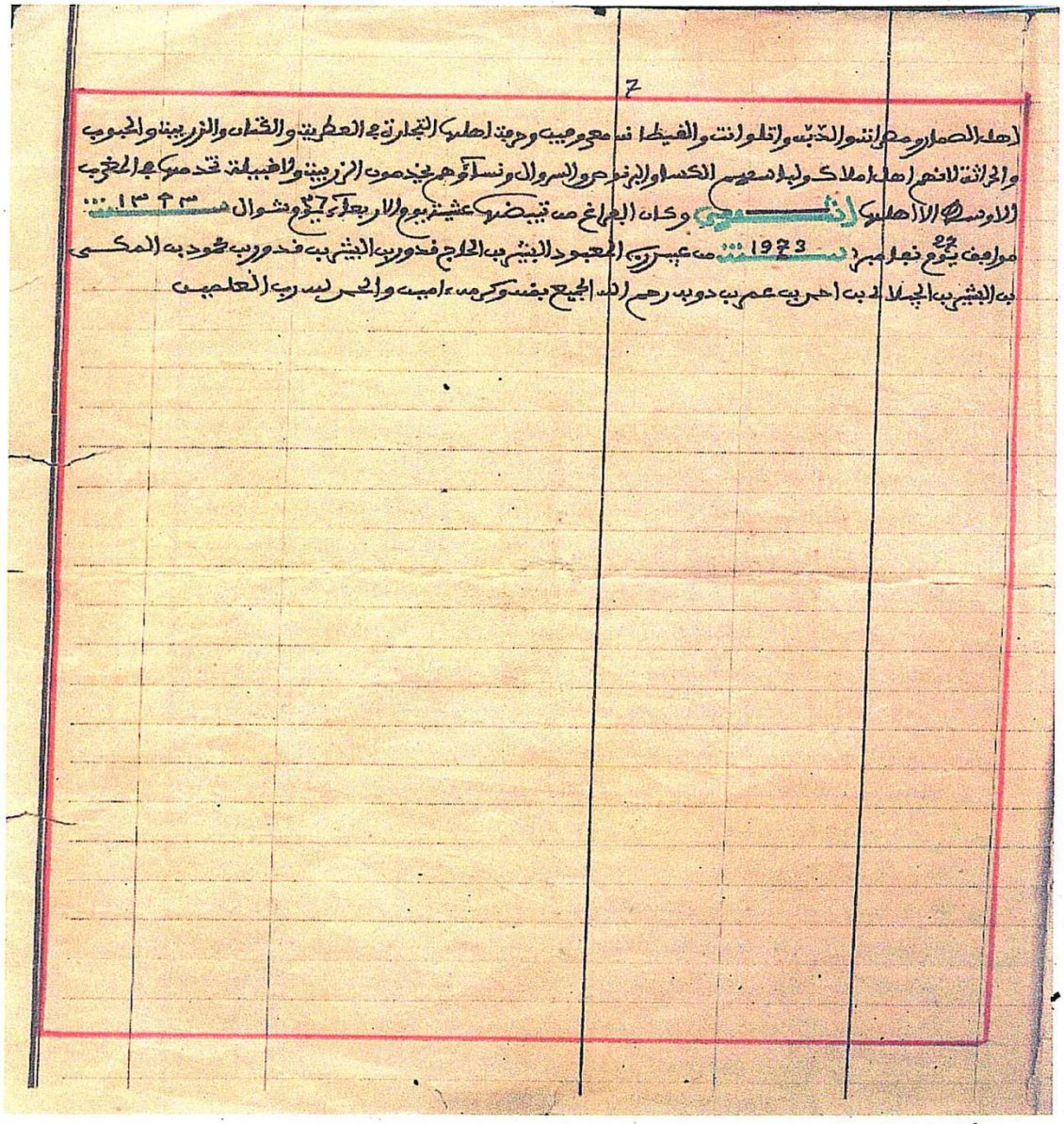

الصفحة الأخيرة من مخطوطة

بيان أحوال القلعة (قلعة بني راشد)

المؤلف: مؤلف مجهول

الملحق رقم 05

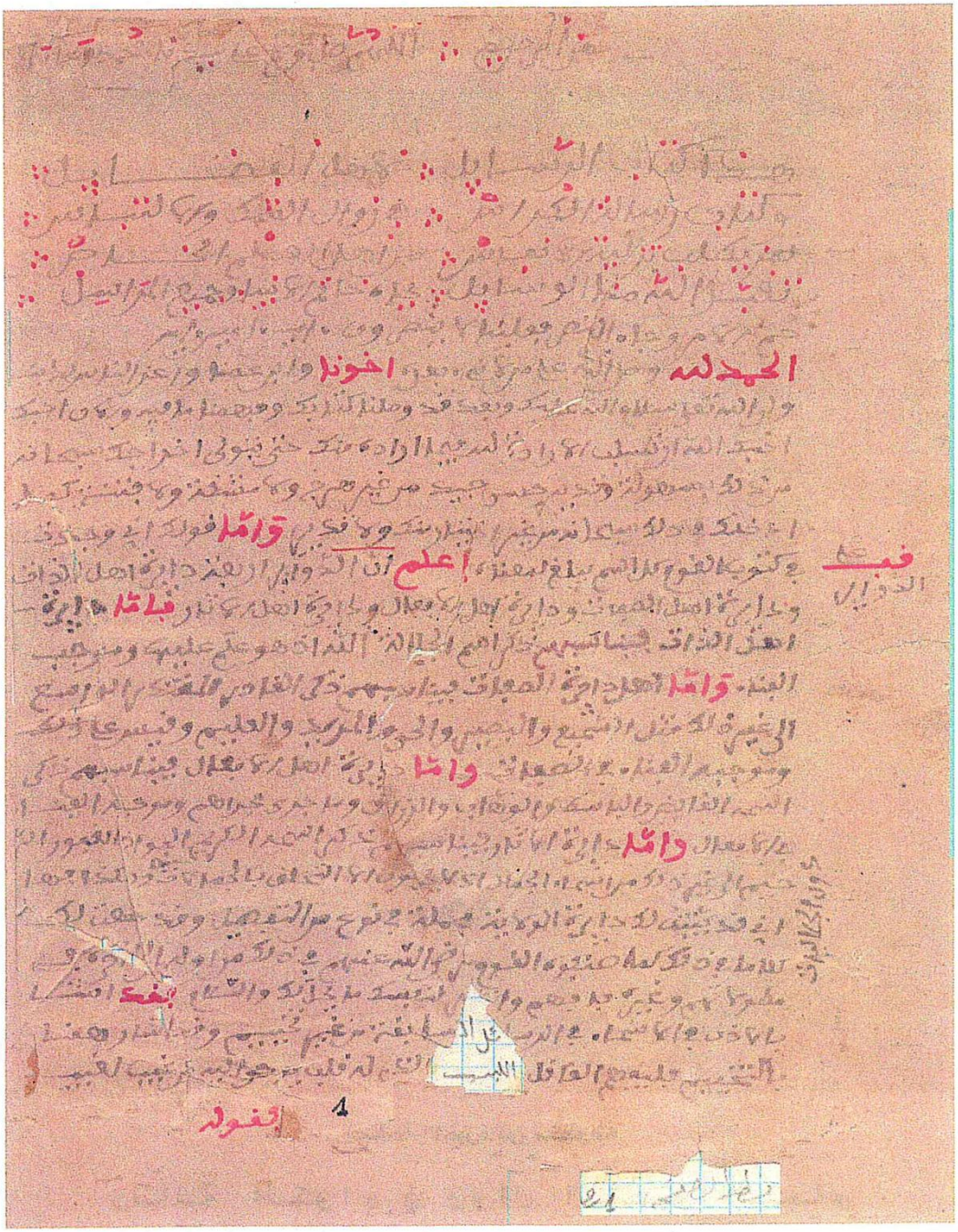

الصفحة الأولى من مخطوطة

رسالة الكراس في زوال الشك والالتباس

المؤلف: سدي عدة بن غلام الله (ت1283ه 1866م)

الملحق رقم 06

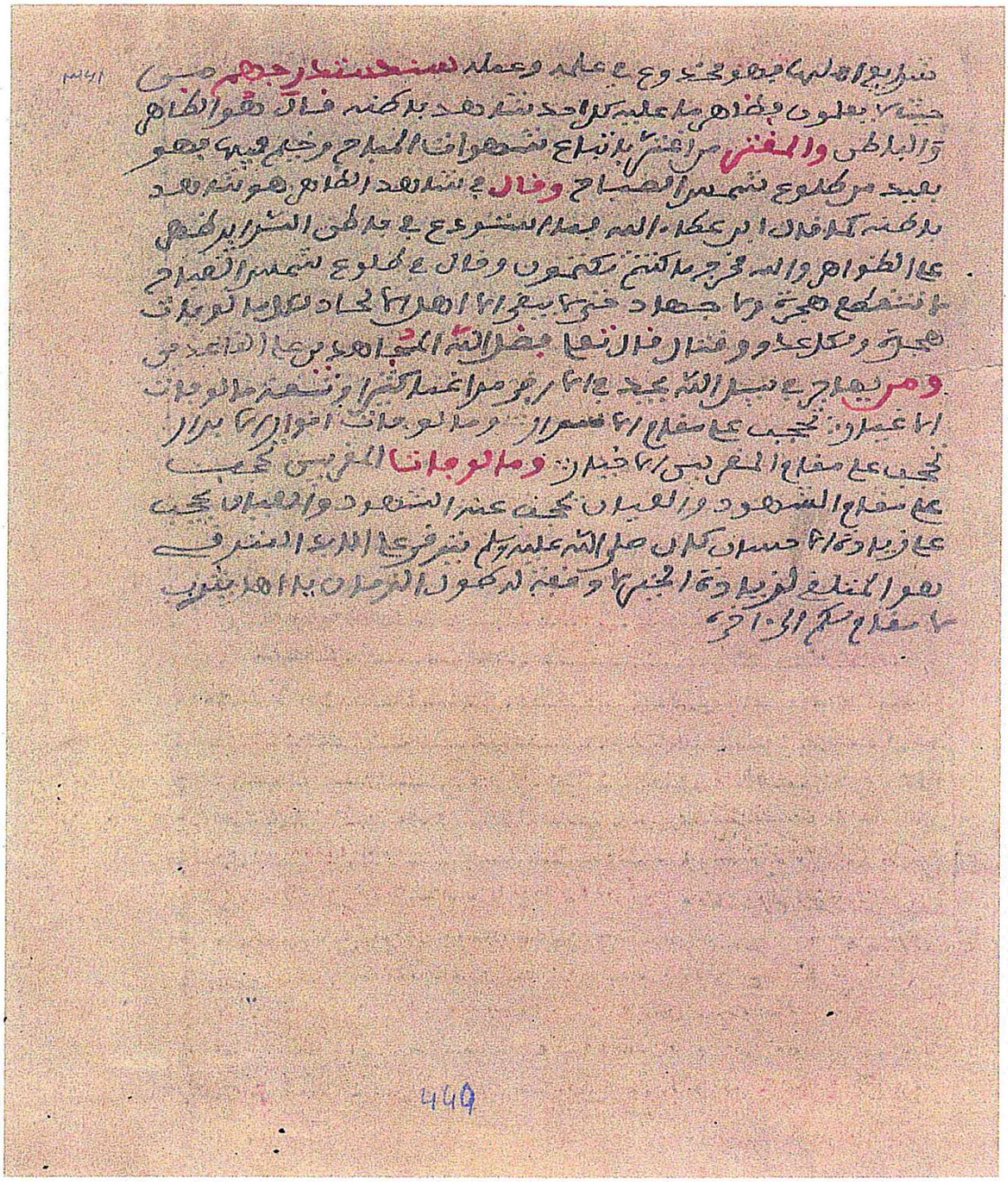

449

الصفحة الأخيرة من مخطوطة

رسالة الكراس في زوال الشك والالتباس

المؤلف: سدي عدة بن غلام الله (ت1283ه 1866م)

الملحق رقم 07

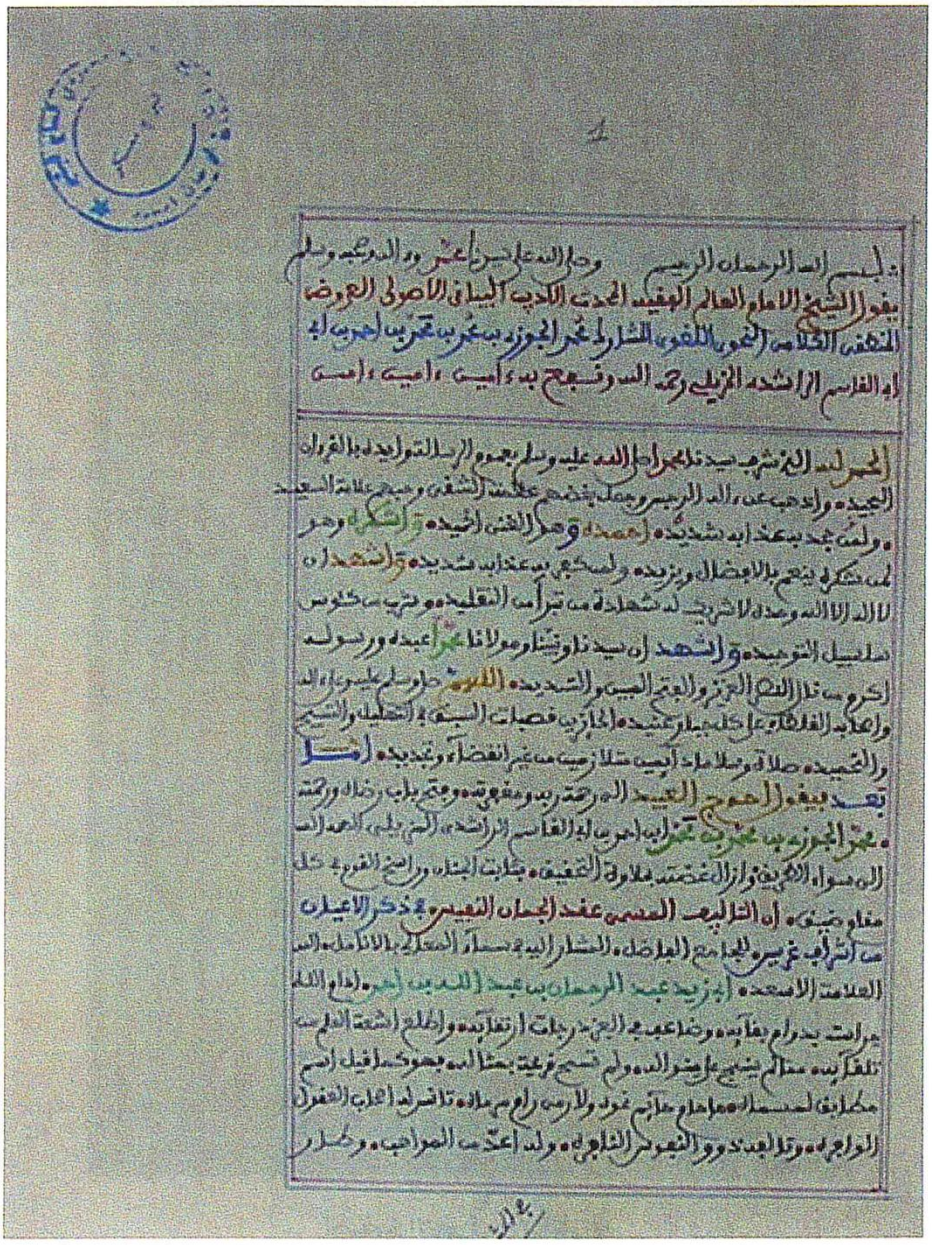

الصفحة الأولى من مخطوطة

فتح الرحمن على شرح عقد الجمان

المؤلف: محمد الجوزي أبي القاسم الراشدي المزيلي (من أهل القرن 11ه/17م)

الملحق رقم 08

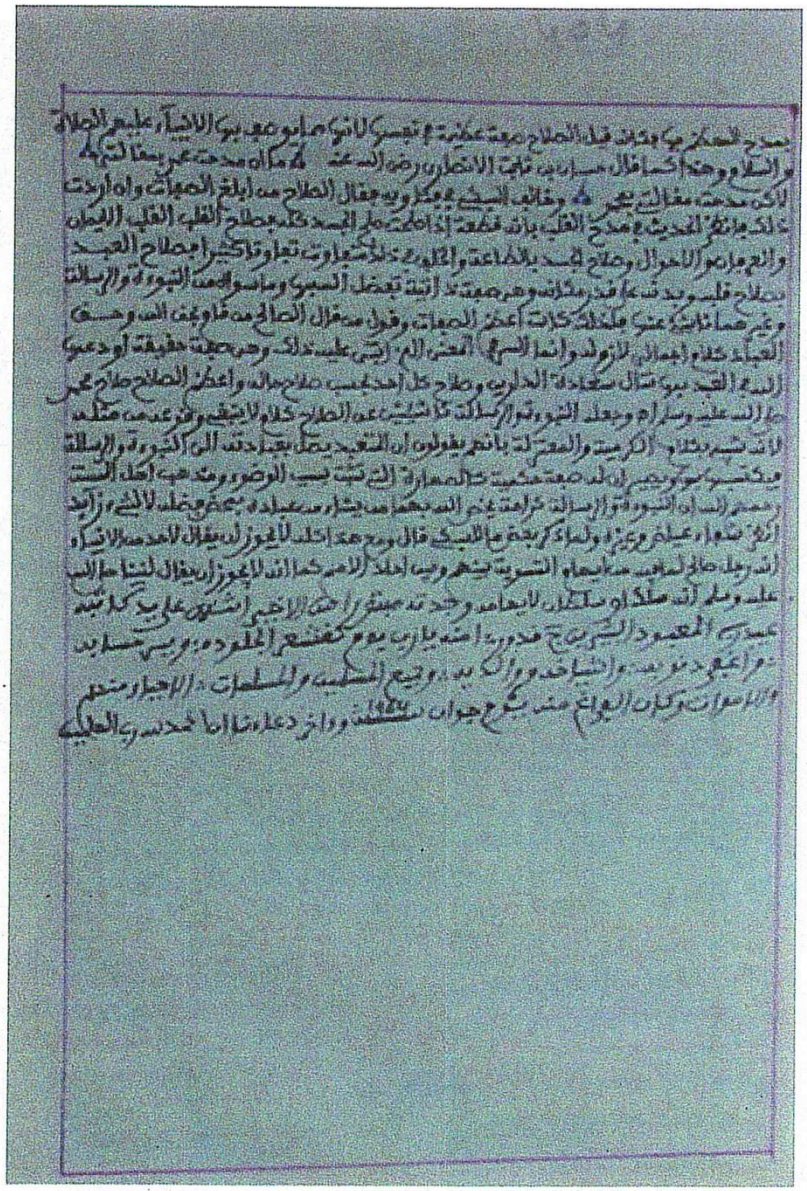

الصفحة الأخيرة من مخطوطة

فتح الرحمن على شرح عقد الجمان

المؤلف: محمد الجوزي أبي القاسم الراشدي المزيلي (من أهل القرن 11ه/17م)

الملحق رقم 09

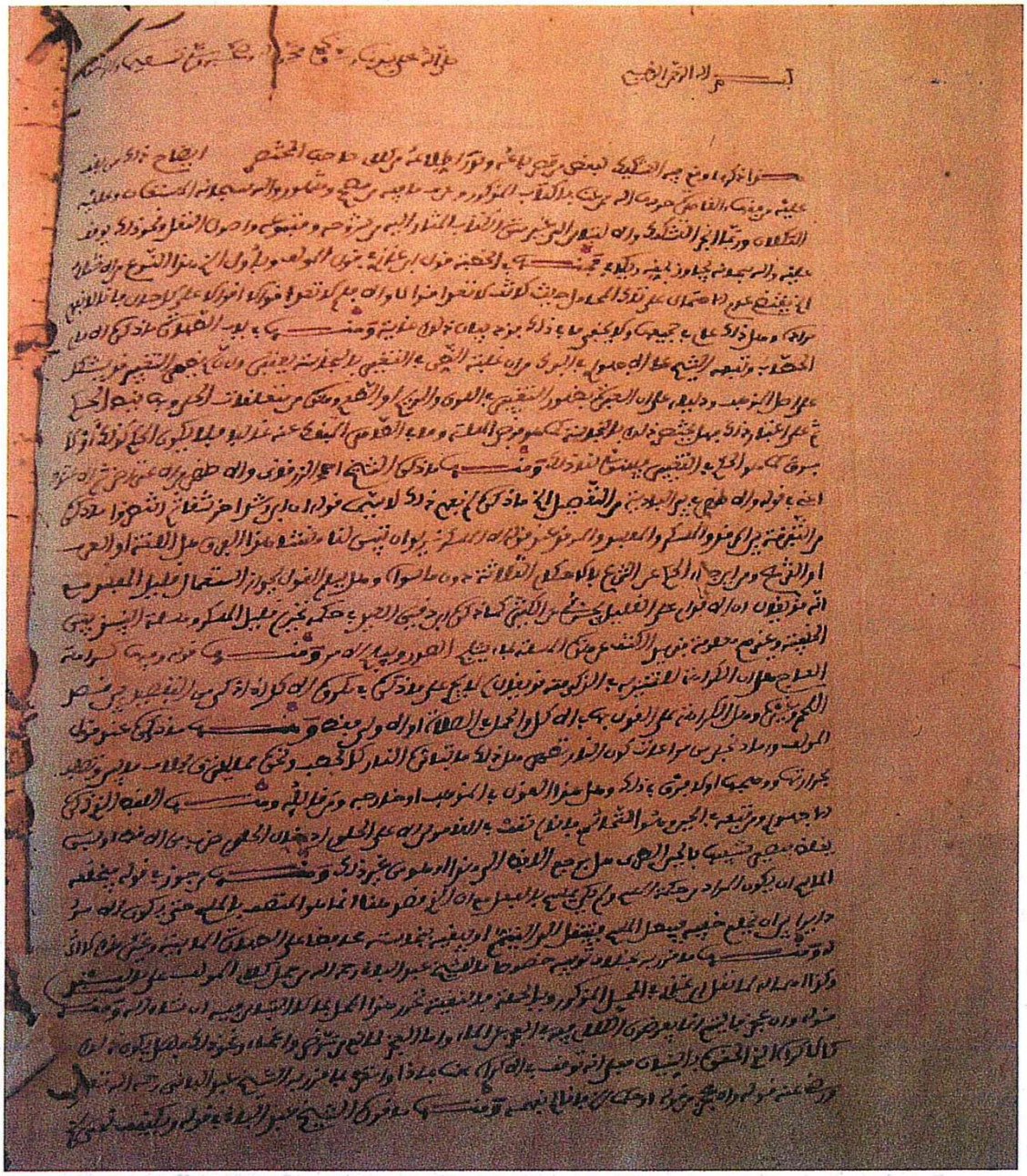

الصفحة الأولى من مخطوطة

أجوبة الشيخ مصطفى الرماصي على أسئلة

الحاج بن بركة المغربي (ت 1136هـ/1724م)

الملحق رقم 10

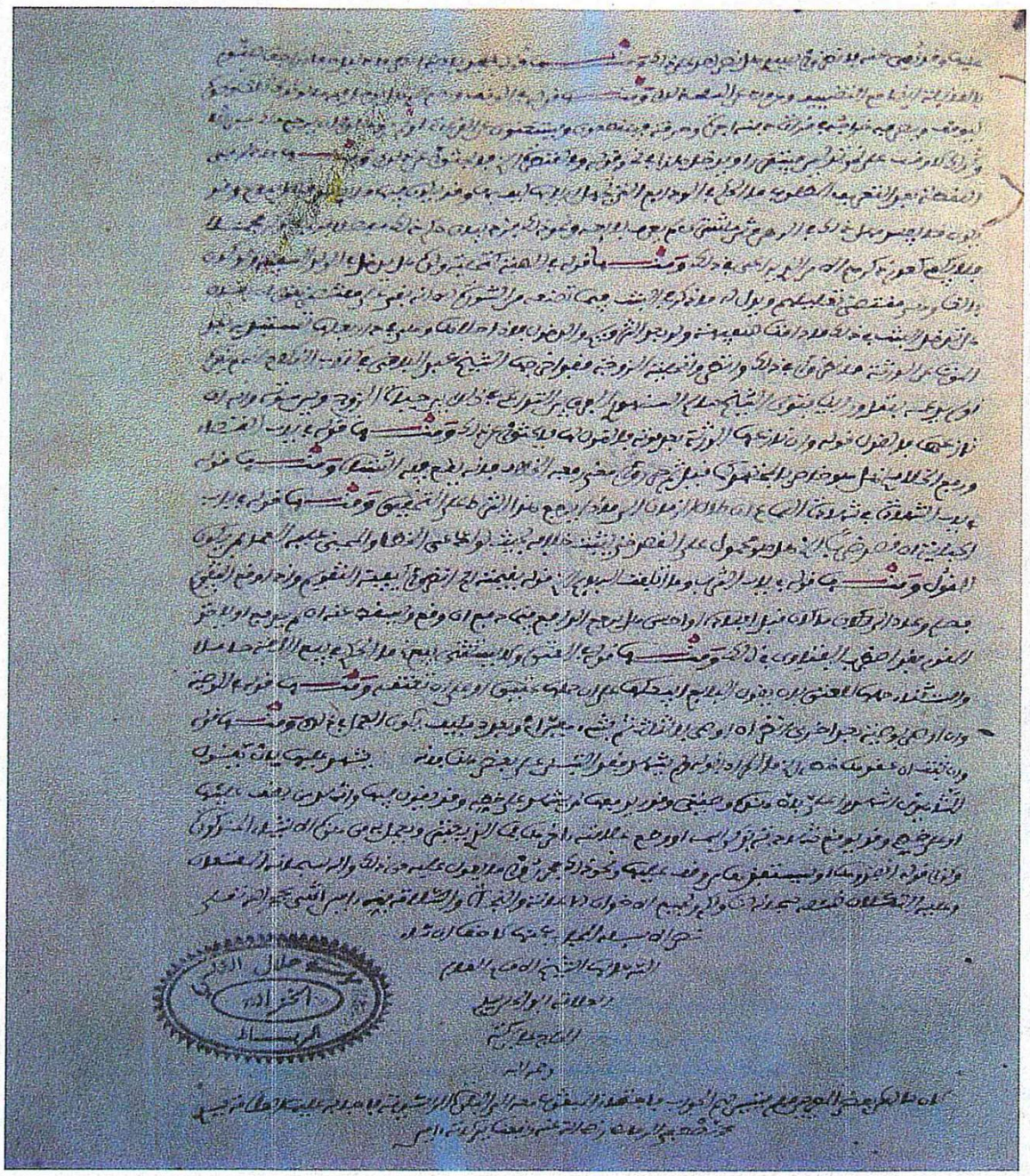

الصفحة الأخيرة من مخطوطة

أجوبة الشيخ مصطفى الرماصي على أسئلة الحاج بن بركة المغربي (ت 1136هـ/1724م)

الملحق رقم 11

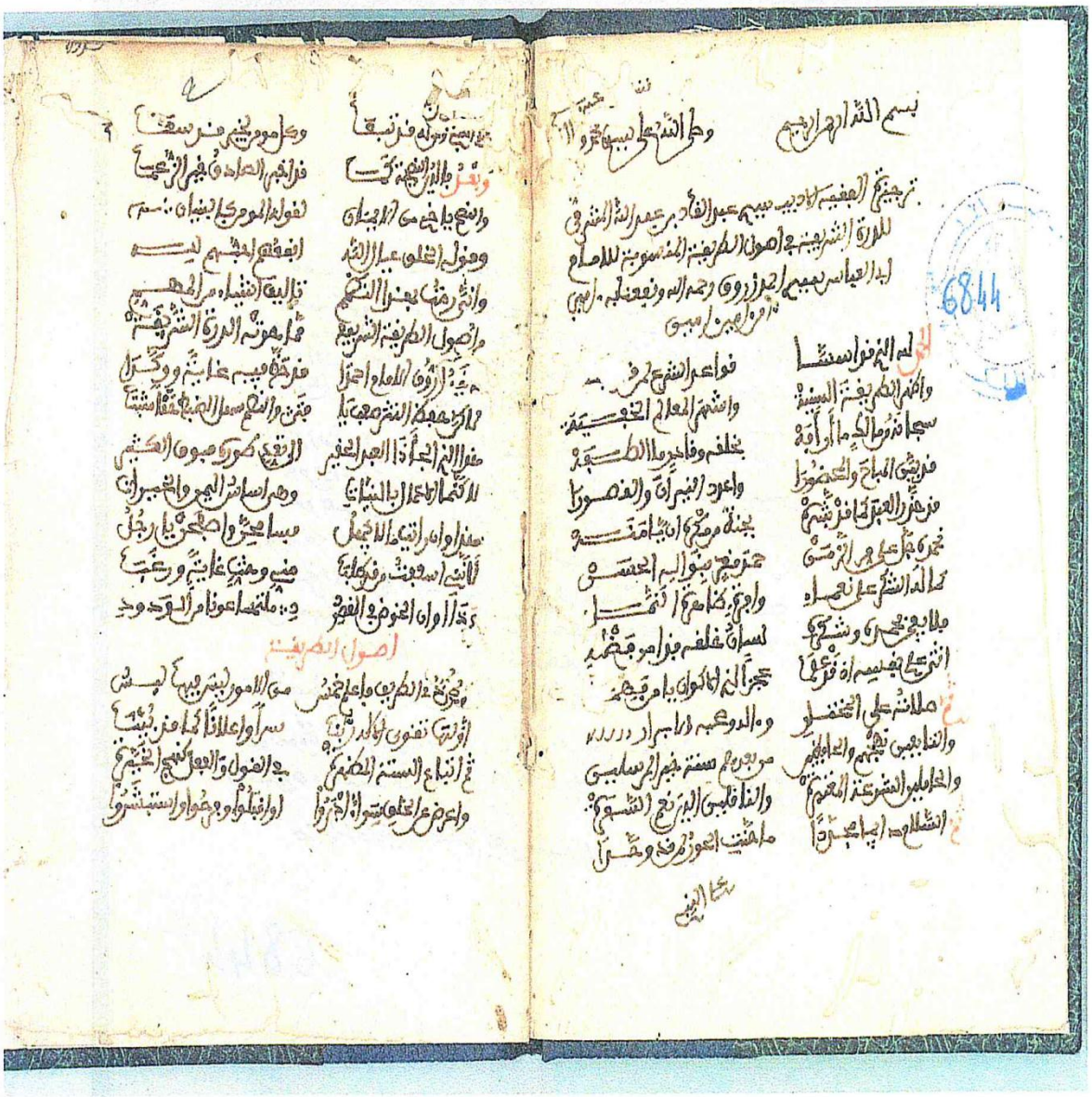

الصفحة الأولى من مخطوطة

أرجوزة الدرة الشريقة في أصول الطريقة

المؤلف: سيدي عبد القادر بن عبد الله المشرفي (ت1023هـ/ 1615م)

الملحق رقم 12

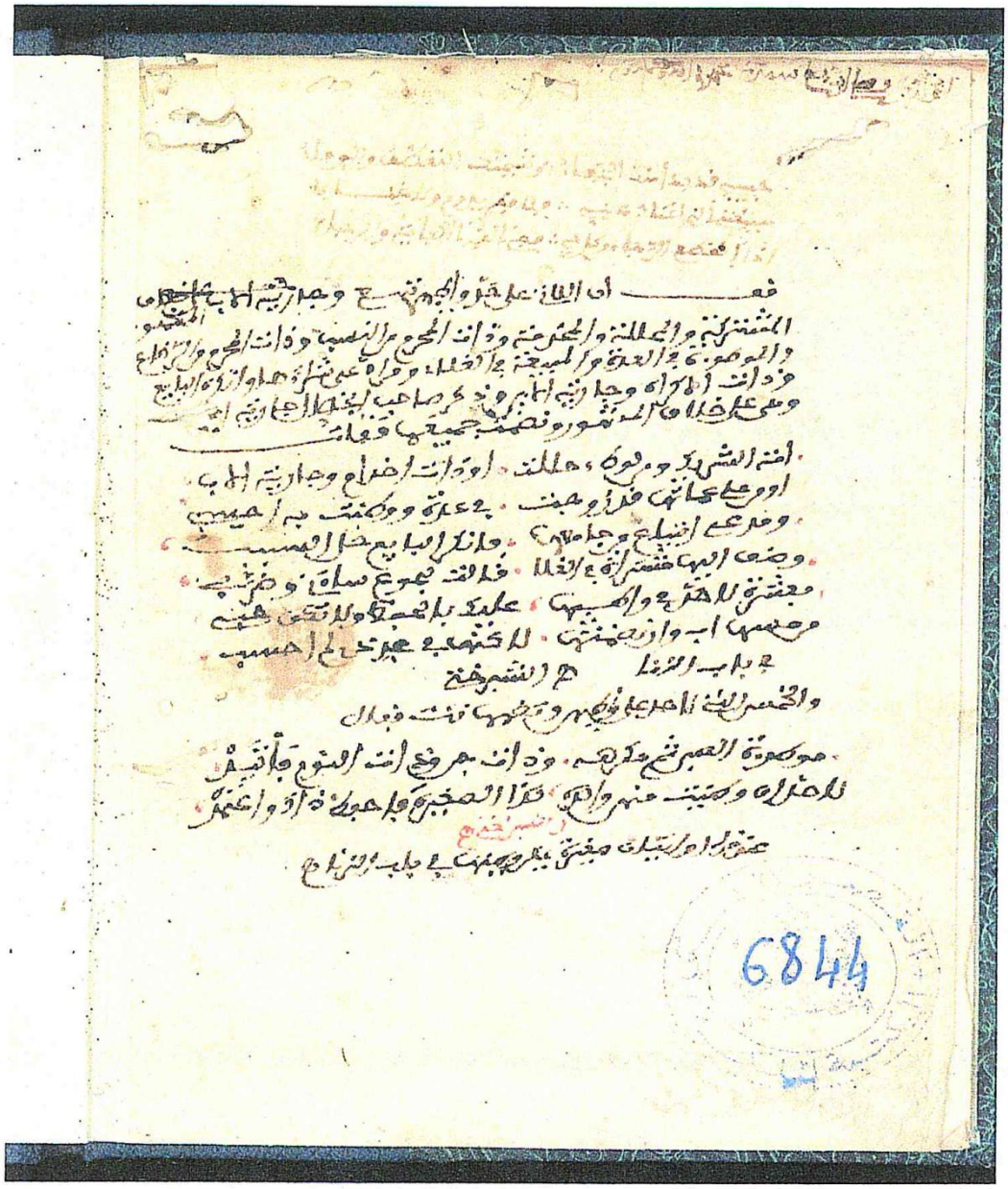

الصفحة الأخيرة من مخطوطة

أرجوزة الدرة الشريقة في أصول الطريقة

المؤلف: سيدي عبد القادر بن عبد الله المشرفي (ت1023هـ/ 1615م)

الملحق رقم 13

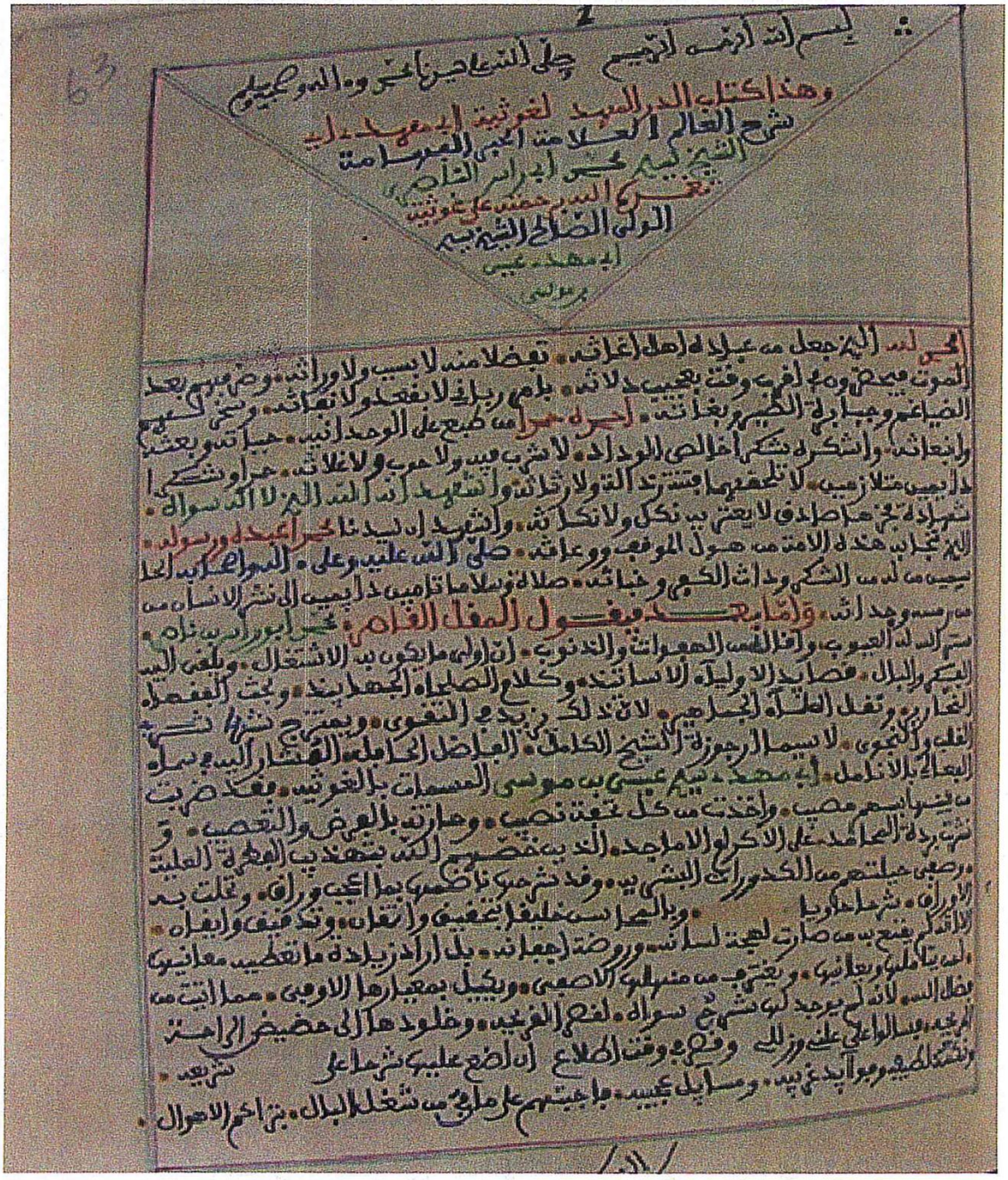

الصفحة الأولى من مخطوطة

الدر المدهي لغوثية أبي مهدي

المؤلف: أبو راس الناصر المعسكري (ت1238ه /1823م)

الملحق رقم 14

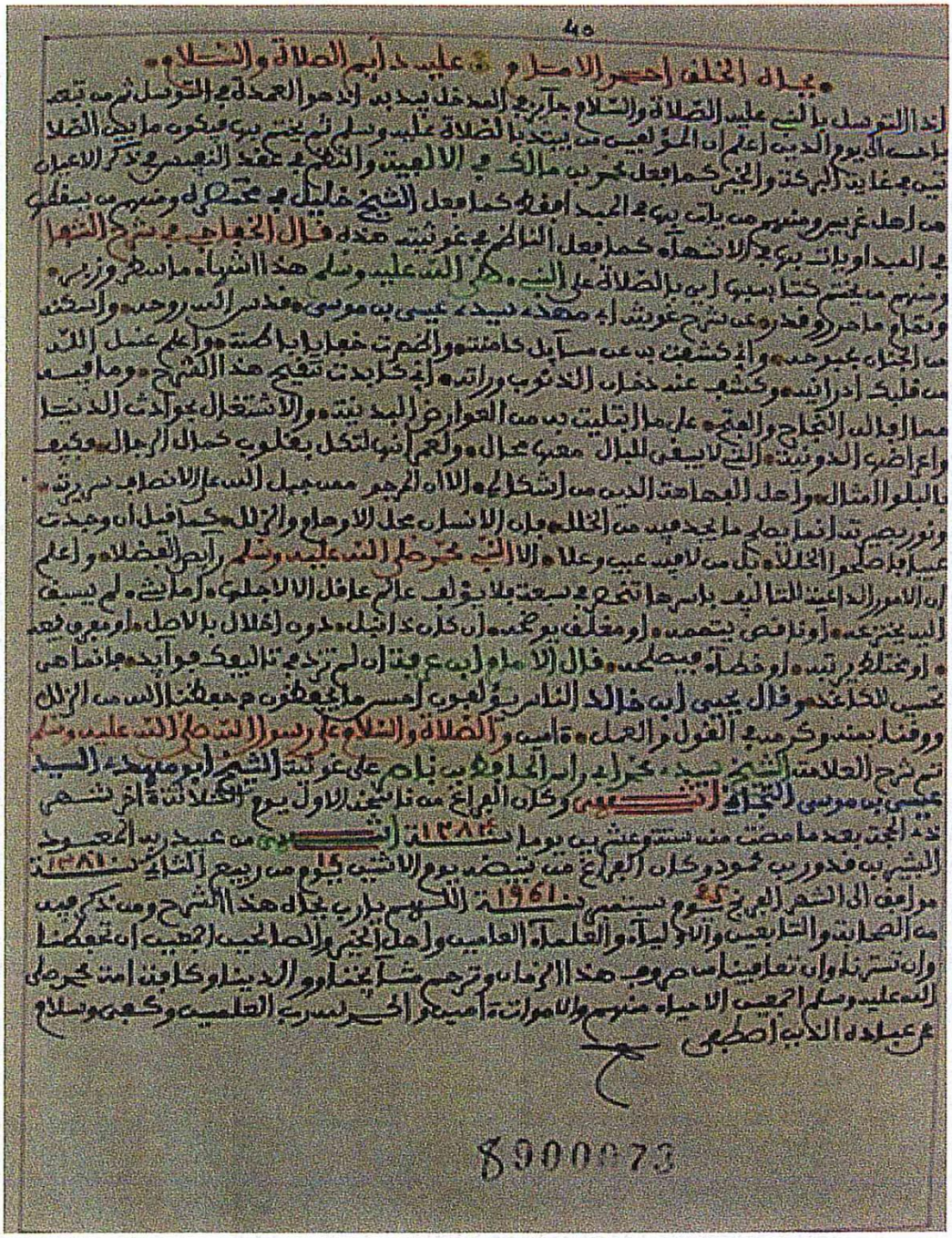

الصفحة الأخيرة من مخطوطة

الدر المدهي لغوثية أبي مهدي

المؤلف: أبو راس الناصر المعسكري (ت1238ه /1823م)

الملحق رقم 15

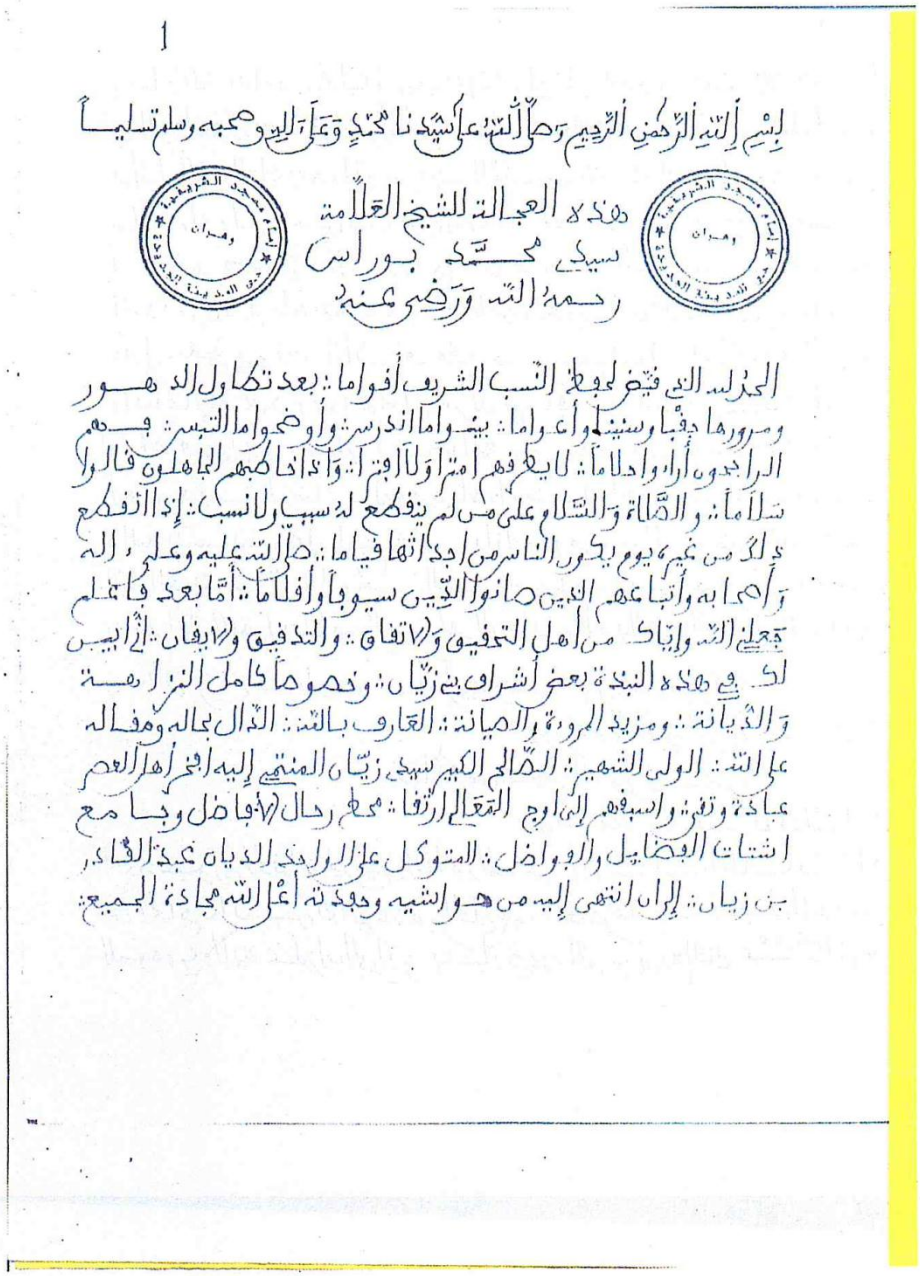

هذه العجالة للشيخ العلامة
سيدي محمد بوراس
رحمه الله ورضي عنه

الصفحة الأولى من مخطوطة

لقطة العجلان في شرف عبد القادر بن زيان وأنه من بني زيان ملوك تلمسان

المؤلف: أبو راس الناصر المعسكري (ت1238ه /1823م)

الملحق رقم 16

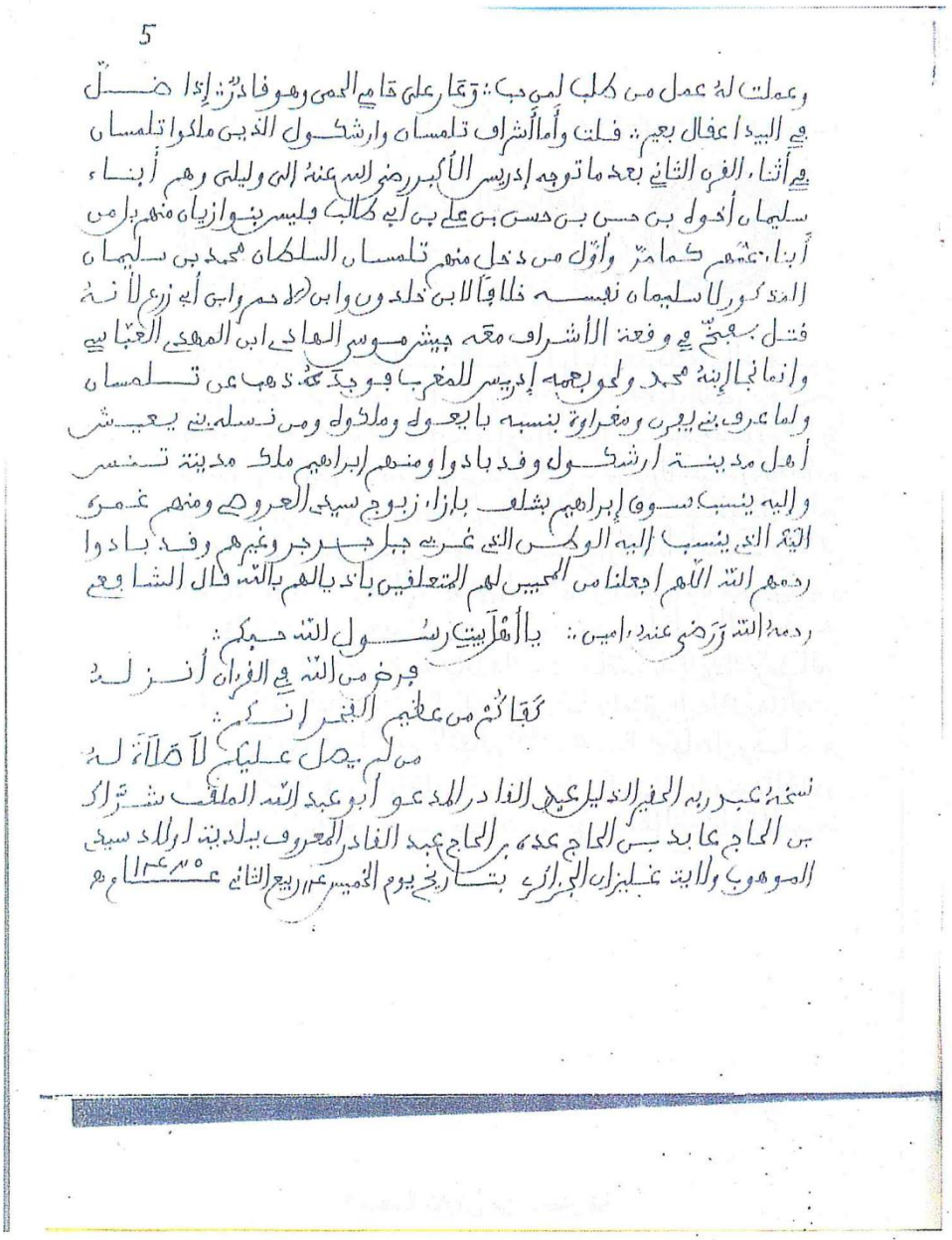

5

وعملت له عمل من كلب لمن حب: وتمار على قامي الحمى وهو فاتر: إذا ضل
في البيداء عقال بعير: فلت وأما أشراف تلمسان وارشكول الذين ملكوا تلمسان
في أثناء القرن الثاني بعد ما توجه إدريس الأكبر رضي الله عنه الى وليلى وهم أبناء
سليمان أخو ول بن حسن بن حسن بن علي بن أبي طالب فليس بنو زيان منهم بل من
أبناء عمهم كما مر، وأول من دخل منهم تلمسان السلطان محمد بن سليمان
المذكور لا سليمان نفسه خلافا لابن خلدون وابن حزم وابن أبي زرع لأنه
قتل بسبتي في وقعة الأشراف معه جيش موسى الهادي ابن المهدي العتابي
وانما نجا ابنه محمد ولحق بعمه إدريس للمغرب فوجده قد ذهب عن تلمسان
ولما عرف بني يفرن ومغراوة بنسبه بايعوه وملكوه ومن نسله بنو يعيش
أهل مدينة ارشكول وفد بادوا ومنهم ابراهيم ملك مدينة تنس
واليه ينسب سوق إبراهيم بشلف بازاء زبوج سيدي العروصي ومنهم غمرة
التي ينسب اليه الوكس التي غرب جبل جرجر وغيرهم وفد بادوا
رحمهم الله اللهم اجعلنا من المحبين لهم المتعلقين بأذيالهم بالله قال الشافعي
رحمه الله ورضي عنه، امين: يا أهل بيت رسول الله حبكم:
فرض من الله في القرآن أنزله
كفاكم من عظيم القدر انكم:
من لم يصل عليكم لا صلاة له

نسخه عبد ربه الحقير الذليل عبد القادر المدعو أبو عبد الله المخلف بشراك
بن الحاج عابد بن الحاج عدة بن الحاج عبد القادر المعروف ببلدية أولاد سيدي
الموهوب ولاية غليزان الجزائر بتاريخ يوم الخميس عشر ربيع الثاني عام ١٣٠٥هـ

الصفحة الأخيرة من مخطوطة

لقطة العجلان في شرف عبد القادر بن زيان وأنه من بني زيان ملوك تلمسان

المؤلف: أبو راس الناصر المعسكري (ت1238ه /1823م)

الملحق رقم 17

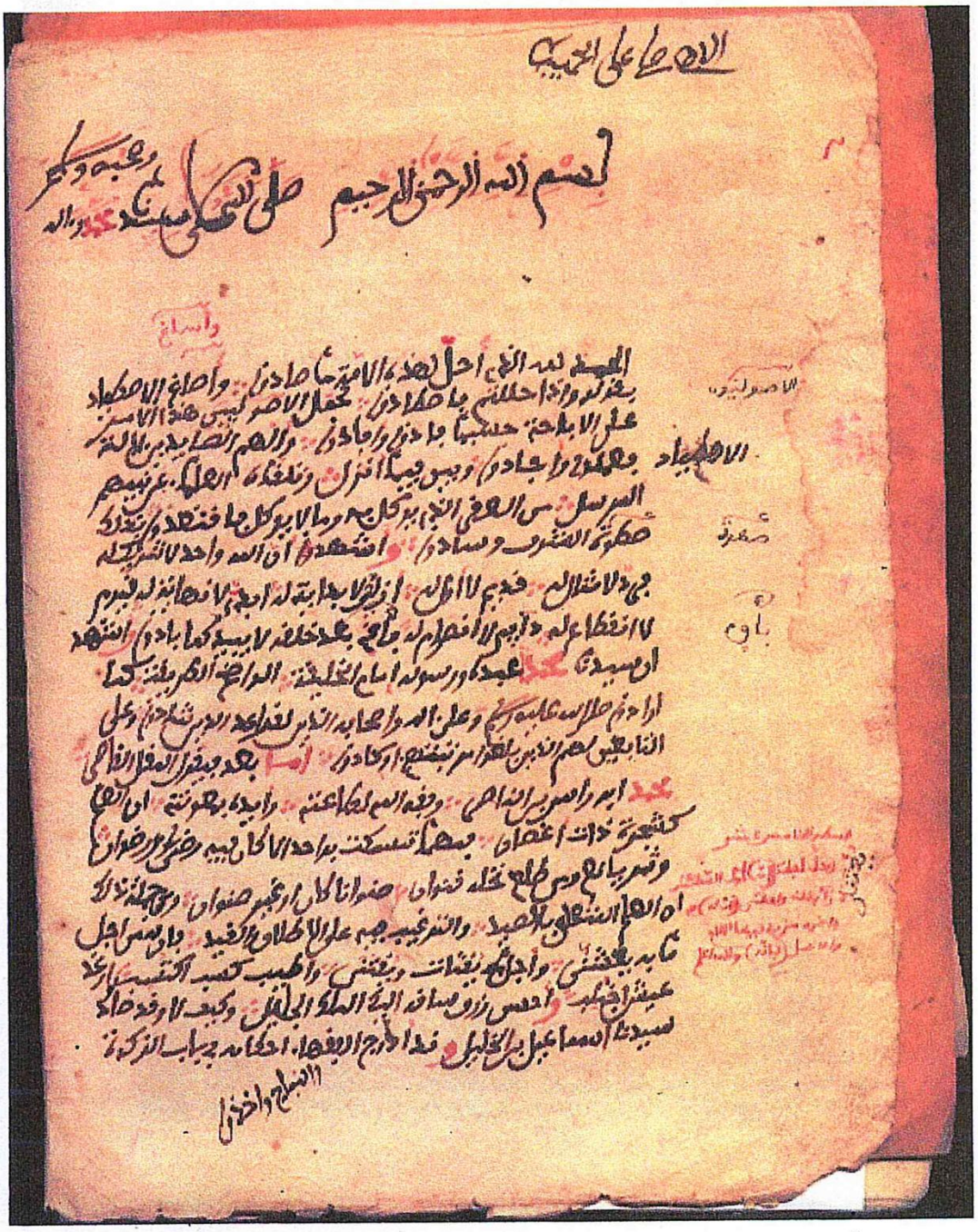

الصفحة الأولى من مخطوطة

الشقائق النعمانية في شرح الروضة السلوانية

المؤلف: أبو راس الناصر المعسكري (ت1238ه /1823م)

الملحق رقم 18

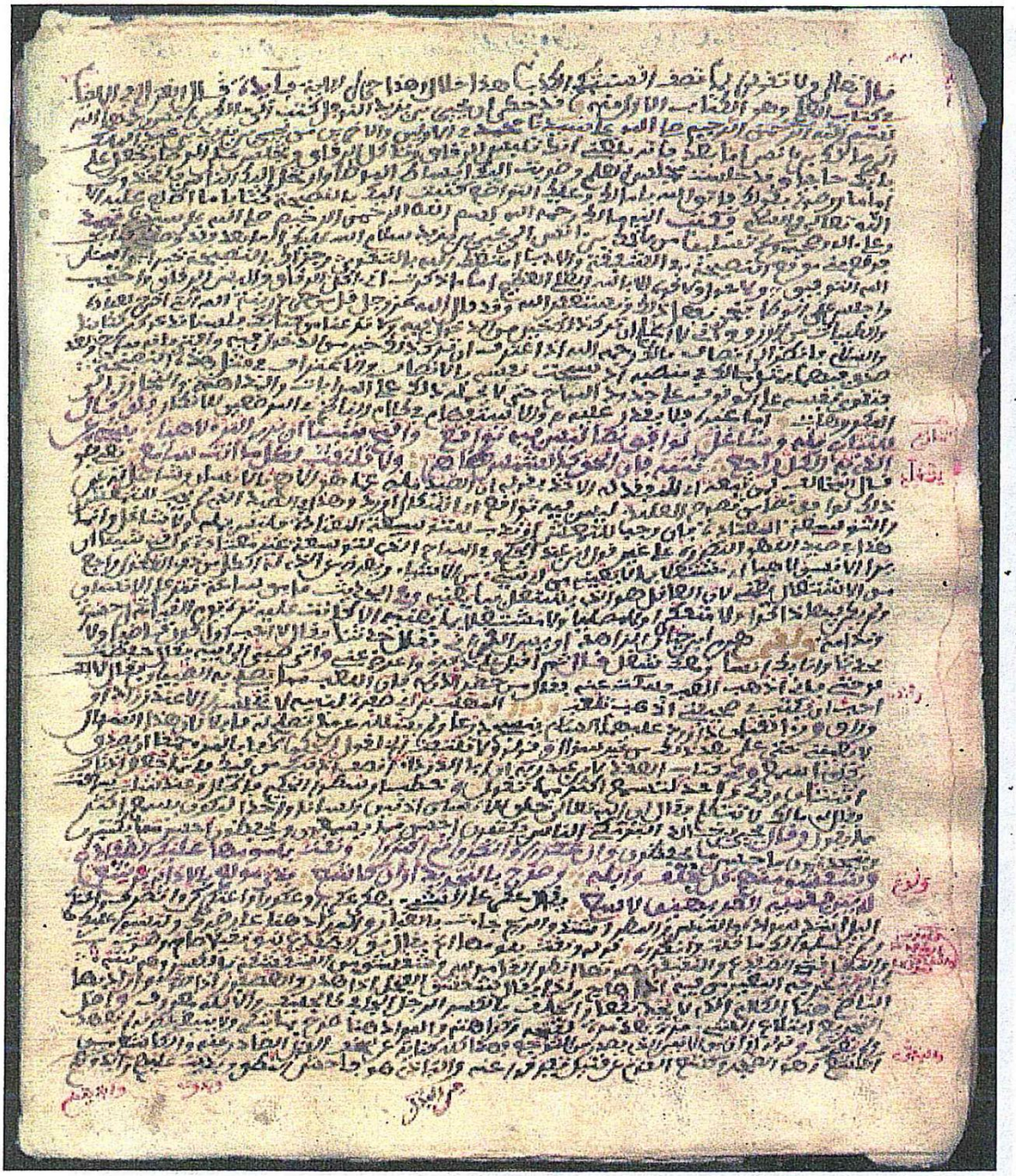

الصفحة الأخيرة من مخطوطة

الشقائق النعمانية في شرح الروضة السلوانية

المؤلف: أبو راس الناصر المعسكري (ت1238ه /1823م)

الملحق رقم 19

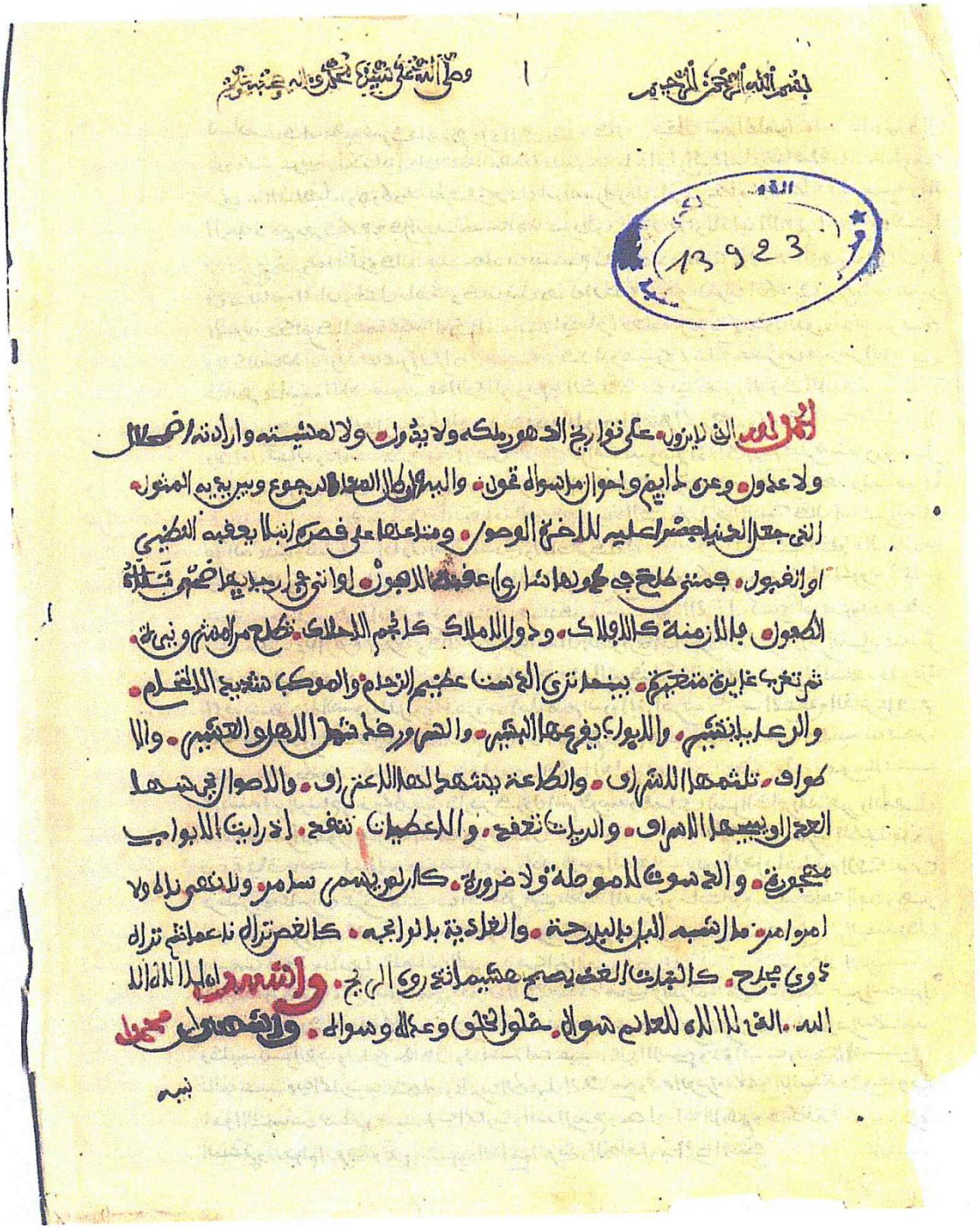

الصفحة الأولى من مخطوطة

زهر الشماريخ في علم التاريخ

المؤلف: أبو راس الناصر المعسكري (ت1238ه /1823م)

الملحق رقم 20

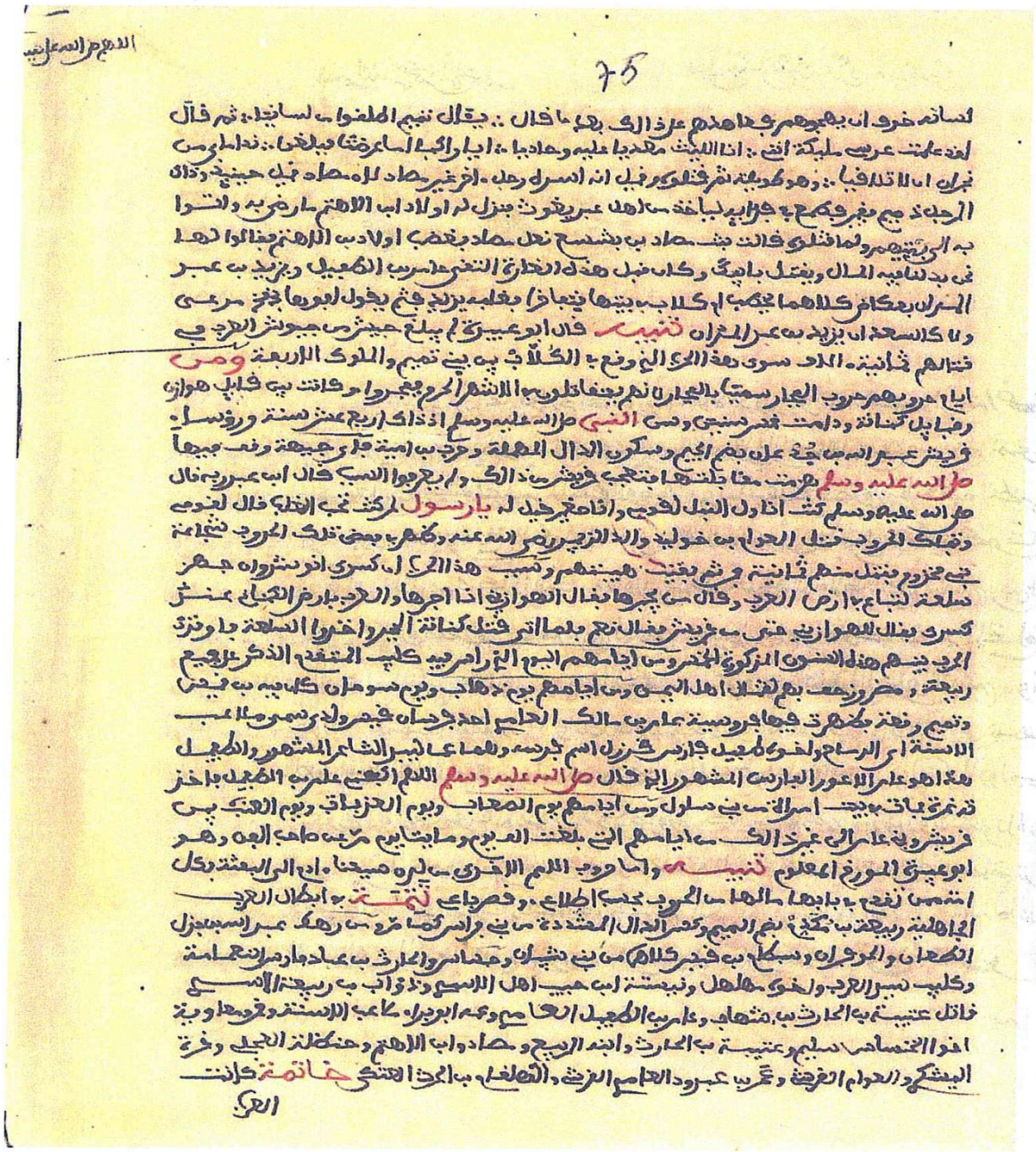

الصفحة الأخيرة من مخطوطة

زهر الشماريخ في علم التاريخ

المؤلف: أبو راس الناصر المعسكري (ت1238ه /1823م)

فهرس المحتويات

قائمة المصادر والمراجع

قائمة المصادر والمراجع

*القرآن الكريم برواية ورش عن نافع .

1)المصادر:

1- ابن أبي الزرع (علي بن عبد الله)، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس ، دار المنصورة للطباعة، الرباط، 1972.

2- البكري (أبو عبيد)، المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، نشر دوسلات، الجزائر، 1875.

3- ابن تيمية أحمد ، مجموع فتاوى شيخ الإسلام، المجلد 11، مكتبة المعارف، الرباط، دت.

4- الجرجاني (علي بن علي)، التعريفات، تحقيق إبراهيم الأبياري، ط01، دار الكتاب العربي، بيروت.

5- بن جوزي (عبد الرحمن)، تلبيس إبليس، منشورات دار مكتبة الهلال، بيروت، 1991.

6- ابن خلدون (عبد الرحمن)، المقدمة، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، الجزء 2، 1984.

7- ــــــــــــ، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأعظم، المجلد06، دار الكتب العلمية، بيروت، 1992.

8- ابن خلدون (يحي)، بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، تقديم وتحقيق: عبد الحميد حاجيات، المكتبة الوطنية، الجزائر، 1980م.

9- الخوارزمي (أبو بكر)، الرسائل، ط1، مطبعة الجوانب، القسطنطينية، 18/2/1227م.

10- الرازي (الإمام فخر الدين)، مختار الصحاح، دار الهدى ، الجزائر، 1990.

11- الزياني (محمد بن يوسف)، دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران، تقديم وتعليق المهدي بوعبدلي، اعتنى به عبد الرحمن دويب، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، 2013.

12- السلاوي (أحمد بن خالد الناصري)، الاستقصا في تاريخ دول المغرب الأقصى، ج03، تحقيق وتعليق: جعفر الناصري، دار الكتاب ، الدار البيضاء، 1954.

13- الشعراني (عبد الوهاب)، الأنوار القدسية في بيان قواعد الصوفية، تحقيق: لجنة التراث، ط1، دار صادر، بيروت، 1999.

14- الطوسي (أبو نصر السراج)، اللمع، حققه وقدم له وخرج أحادية عبد الحليم محمود، وطه عبد الباقي سرور، دار الكتاب الحديثة، القاهرة، 1960.

15- ابن عربي (محي الدين)، رسائل ابن عربي اصطلاح الصوفية، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د ت.

16- الغزالي (أبو حامد)، المنقذ من الضلال، دار الأندلس، لبنان، 1973.

17- الفكون (عبد الكريم)، منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية، تعريف وتعليق وتلخيص أبو القاسم سعد الله ، ط01، الغرب الإسلامي، 1986.

18- القشيري (عبد الكريم)، الرسالة القيشرية في علم التصوّف، تحقيق وإعداد معرف زريق وعلي عبد الحميد أبو الخير، ط2، دار الجيل للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، بيروت، 1995.

19- الكتاني (محمد بن جعفر بن ادريس)، سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس بمن أقبر من العلماء والصلحاء بفاس، ج01، دار نشر د.ب، 1898.

20- الكلاباذي أبو بكر ، التعرف لمذهب أهل التصوف بيروت، 1993.

21- ابن مرزوق (محمد) التلمساني، المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن، تحقيق ماريا خيسوس بغيرا، تقديم محمود بوعياد التركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981.

22- ابن مريم محمد بن محمد بن أحمد الشريف المليتي المديوني التلمساني، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، مراجعة محمد بن أبي شنب، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1986.

23- المزاري (الآغا بن عودة)، طلوع سعد السعود في أخبار وهران والجزائر وإسبانيا وفرنسا إلى أواخر القرن 19م، تقديم وتحقيق يحي بوعزيز، عالم المعرفة، الجزائر، 2009.

24- ابن مبارك (الحاج أحمد)، تاريخ حاضرة قسنطينة، صححه وعلق عليه نور الدين عبد القادر ، الجزائر، 1952.

25- ابن النديم، الفهرست، ط02، دار المعرفة ، بيروت، 1997.

26- النووي (محي الدين) ، شرح مسلم، ج3، بيروت، 2000.

27- الورثيلاني (الحسين)، نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار، تصحيح محمد بن ابي شنب، مطبعة بيير فونتانة الشرقية، الجزائر، 1908.

2)المراجع باللغة العربية:

28- الأخضر لطيفة، الإسلام الطرقي، دار سراس للنشر ، تونس، 1993.

29- النجار عامر ، الطرق الصوفية في مصر، دار المعارف، ط 5، د.ت، القاهرة.

30- الباشا حسن، مدخل إلى الآثار الاسلامية، دار النهضة العربية، مصر، 1979.

31- بدوي (عبد الرحمن)، تاريخ التصوف الإسلامي، ط2، الكويت، وكالة المطبوعات، 1962.

32- بن بكار بلهاشمي، مجموع النسب والحسب والفضائل التاريخ والأدب في أربعة كتب، مطبعة بن خلدون، تلمسان ، الجزائر، 1961.

33- بلحميسي (مولاي)، الجزائر من خلال رحلات المغاربة في العهد العثماني، ط02، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981.

34- بن الطيب (محمد)، إسلام المتصوفة، دار الطليعة، بيروت، ط01، 2007.

35- بن عبد الله عبد العزيز، معلمة التصوف الإسلامي، ج01، التصوف المغربي، دار نشر المعرفة ، الرباط، 1989.

36- بن عبد الله محمد ، الفتح الرباني فيما يحتاج إليها المريد التيجاني، مطبوعات الحاج عبد السلام، مصر (د.ت).

37- بورويبة رشيد، قسنطينة، سلسلة الفن والثقافة ، وزارة الإعلام والثقافة، الجزائر، 1980.

38- بوعتو بشير، التصوف في الجزائر، دراسة وصفية تحليلية للطرق الحبيبة والهبرية والرحمانية ، دار السبيل ، الجزائر، 2013.

39- بوعزيز يحي، أوضاع المؤسسات الدينية في الجزائر خلال القرنين (19ـــ20م)، ضمن موضوعات وقضايا من تاريخ الجزائر والعرب، ج1، دار الهدى للطباعة والنشر ، الجزائر، 2004.

40- ـــــــــــــ، كتاب ملتقيات الفكر الإسلامي، محاضرات ودراسات عن الحياة الروحية في الإسلام، ج04، منشورات وزارة الشؤون الدينية والأوقاف، ديسمبر، 2005.

41- ـــــــــــــ، المساجد العتيقة بالجزائر في الغرب الجزائري، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2009.

42- بوكاري أحمد، زاوية أبي جعد، إشعاعها الديني والعلمي، ط1، مطبعة النجاح، الدار البيضاء، 1984.

43- ـــــــــــــ، الإحياء والتجديد الصوفي في المغرب، ج1، المملكة المغربية، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، مطبعة فضالة المغرب، 2006.

44- بن منصور عبد الرحيم، عين الحوت مهد بني سليمان أول ملوك تلمسان، نشر ابن خلدون، تلمسان، 2011.

45- بونابي الطاهر، التصوف في الجزائر خلال القرنين 6-7هـ/12-13م، دار الهدى للنشر والتوزيع، 2004.

46- جاد الله منال عبد المنعم ، التصوف في مصر والمغرب، دار المعارف، الاسكندرية، 1997.

47- جيلالي جلول، معسكر، رجال وتاريخ، دار الأديب للنشر والتوزيع، د.ت.

48- الجيلالي (عبد الرحمن)، تاريخ الجزائر العام، ج03، دار الثقافة، بيروت، 1983.

49- حجي (محمد)، الزاوية الدلائية ودورها الديني والعلمي والسياسي، ط02، مطبعة النجاح الجديدة، المغرب، 1988.

50- الحفناوي (محمد)، تعريف الخلف برجال السلف، ج1و2، مؤسسة الرسالة ، بيروت، المكتبة العتيقة، 1982.

51- حماد محمد ، الإنشاء والعمارة، مطبعة المعرفة ، القاهرة، 1964.

52- خميسي بن حميدة، نشأة التصوف في المغرب الوسيط، دار الثقافة العربية، الجزائر، 2007.

53- خليفي عبد القادر، الطريقة الشيخية، ط02، منشورات المجلس الإسلامي الأعلى، الجزائر، 2010.

54- خير فارس محمد، تاريخ الجزائر الحديث من الفتح العثماني إلى الاحتلال الفرنسي، ط02، مكتبة دار الشرق، بيروت، 1979.

55- الدالي (محمد صبري)، التصوف وأيامه، دور المتصوفة في تاريخ مصر الحديثة ، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، 2012.

56- دحومان الشريف كمال الهاشمي، أشراف الجزائر ودورهم الحضاري في المجتمع الجزائري، دار الخلدونية، الجزائر، 2009.

57- الراوي حسن، التصوف والباراسيكولوجيا (الكرامات الصوفية والظواهر النفسية الفائقة)، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1994.

58- الزاهي نور الدين، بركة السلطان، مطبعة النجاح الجديدة، المغرب، 2007.

59- سعد الله أبو القاسم، تاريخ الجزائر الثقافي، الجزء 01 و02، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، 1998.

60- ـــــــــــ، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ج02، عالم المعرفة، الجزائر، 2009.

61- سعيدوني ناصر الدين، دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر، العهد العثماني، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1984.

62- ـــــــــــ، من التراث التاريخي والجغرافي تراجم مؤرخين وجغرافيين، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1999.

63- سيد أحمد خليل عبد الحكيم، المعتقدات الشعبية في الطقوس والشعائر الصوفية، دراسة ميدانية للطريقة الجازولية الحسينية الشاذلية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2012.

64- شرف محمد جلال، دراسات في التصوف، دار النهضة العربية، بيروت، 1984.

65- شحاتة صيام، الولي والمقدس، مصر العربية للنشر والتوزيع ، 2010.

66- شحاته عزة علي عبد الحميد ، النقوش الكتابية بالعمائر الدينية والمدينة في العصر المملوكي والعثماني، العلم والإيمان للنشر والتوزيع، دمشق، 2008.

67- شهبي عبد العزيز، الزوايا والصوفية والعزابة والاحتلال الفرنسي للجزائر، دار الغرب للنشر والتوزيع، 2007.

68- صادق محمد حاج، مليانة ووليها سيدي أحمد بن يوسف، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1964.

69- ضريف محمد، مؤسسة الزوايا بالمغرب، ط01، منشورات المجلة المغربية لعلم الاجتماع السياسي 1992.

70- عبيد بوداود، ظاهرة التصوف في المغرب الأوسط ما بين القرنين السابع والتاسع الهجريين (13-15م)، دار الغرب لنشر والتوزيع، 2003.

71- العجيلي التليلي، الطرق الصوفية والاستعمار الفرنسي بالبلاد التونسية (1881ـــ 1939)، ط1، منشورات كلية الآداب والفنون، تونس، 1992.

72- عبد الكريم بن محمد، التصوف في ميزان الإسلام، مطبعة النهضة، وهران، 1983.

73- عبد الخالق عبد الرحمن، الفكر الصوفي في ضوء الكتاب والسنة، منشورات اتحاد الكتاب العرب ، دمشق.

74- عثماني عبد القادر، الزوايا في الجزائر، عرض وتحليل وإعداد وتقديم: عبد الحليم صيد، دار الهدى للطباعة والنشر ، د.ت.

75- عبد الحليم محمود ، أبو مدين الغوث، حياته ومعراجه إلى الله، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، د.ت.

76- العربي إسماعيل، الصحراء الكبرى وشواطئها، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1983.

77- العربي عبد الله، مجمل تاريخ المغرب، الجزء 03، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 1999.

78- عزب خالد، فقه العمارة الإسلامية، دار النشر للجامعات، مصر، ط01، 1997.

79- عفيفي أبو العلا، التصوف الثورة الروحية في الإسلام، ط01، دار المعارف، الإسكندرية، 1973.

80- العقاد (عباس محمود)، التفكير فريضة إسلامية، مكتبة رحاب، الجزائر، د.ت.

81- عقاب محمد الطيب، مدينة الجزائر في أواخر العهد العثماني، دار الحكمة، الجزائر، 2007.

82- ـــــــــ، مساكن قصر القنادسة، دراسة معمارية أثرية، دار الحكمة، الجزائر، 2007.

83- العقبي (صلاح مؤيد)، الطرق الصوفية والزوايا بالجزائر تاريخها ونشاطها، طبعة خاصة دار البصائر، 2009.

84- عميراوي حميدة، دراسات في تاريخ الجزائر الحديث، دار الهدى، الجزائر، 2004.

85- عيسى عبد القادر، حقائق عن التصوف، د.ط، د.ت.

86- عيسى محمد بن عياد، المفاخر العلية، مطبعة مصطفى بابي الحلبي، 1961.

87- عيسى (عبده غالب)، مفهوم التصوف الإسلامي، دار الجيل للطباعة والنشر والتوزيع، ط01، بيروت، 1992.

88- عون (فيصل بدير)، التصوّف الإسلامي (الطريق والرجال)، مكتبة سعيد رأفت، الإسكندرية، 1983.

89- غريب مأمون، المهاجرون إلى الله ، مركز الكتاب للنشر، ط01، القاهرة، 1998.

90- فكري أحمد، مساجد القاهرة ومدارسها، ج01، مصر، 1965

91- فويال سعاد، المساجد الأثرية في مدينة الجزائر، الجزائر، 2006.

92- الفقي عصام الدين عبد الرؤوف، تاريخ الفكر الإسلامي، ط1، دار الفكر العربي، القاهرة، 1997.

93- فيلالي (مختار بن طاهر)، نشأة المرابطين والطرق الصوفية وأثرها في الجزائر خلال العهد العثماني، دار الفن الغرافيكي للطباعة والنشر ، باتنة، الجزائر، 1976.

94- ـــــــــــ، رحلة الروثيلاني، عرض ودراسة، دار الشهاب ، باتنة ، الجزائر، 1978

95- القاسمي عبد المنعم الحسني، الطريقة الرحمانية الأصول والآثار، دار الخليل للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، 2013.

96- قدور إبراهيم عمار المهاجي، زاوية سيدي محمد بن اعمر، تاريخها ونشأتها، ديوان المطبوعات الجامعية، وهران، 1997.

97- ـــــــــــ، زاوية سيدي بن عمر، سيرتها وتخصصاتها، ديوان المطبوعات الجامعية، 2001.

98- قسوم (عبد الرزاق)، عبد الرحمن الثعالبي والتصوف، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1978.

99- قيداري قويدر، بستان الأزهار في سيرة سيدي يحي بن صفية ومسيرة أولاد نهار دراسة تاريخية بيولوجية، دار الغرب للنشر والتوزيع، 2009.

100- ـــــــــــ، أولاد نهار والولي الصالح والشيخ الناصح سيدي يحي بن صفية، دار الآفاق للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2019.

101- مبارك زكي، التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق، الجزء 2، منشورات المكتبة العصرية للطباعة والنشر، بيروت.

102- مصمودي فوزي، العلامة الموسوعي عبد الرحمن الأخضري، شخصيته ومواقفه وآثاره، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الرغاية، الجزائر، 2008.

103- معزوز عبد الحق ودرياس لخضر، جامع الكتابات الأثرية العربية بالجزائر، الجزء الأول: كتابات الشرق الجزائري، منشورات المتحف الوطني للآثار القديمة، مطبعة سومر، بئر الخادم، الجزائر، 2000.

104- المكي أبو طالب، قوت القلوب في معالجة المحبوب ووصف طريق المريد إلى مقام التوحيد، ج02، دار صادر، د.ت.

105- مفتاح عبد الباقي، أضواء على الطريقة الرحمانية الخلوتية، دار الهدى، الجزائر، 2004.

106- نسيب محمد، زوايا العلم والقرآن بالجزائر، دار الفكر، مطبعة النخلة، الجزائر، دت.

107- هلايلي حنيفي، أوراق في تاريخ الجزائر في العهد العثماني، دار الهدى للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، الجزائر، 2008.

108- وزيري يحي، العمارة إسلامية والبيئة، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، 2004.

3)المراجع المترجمة:

109- أندريه (باكار)، المغرب والحرف التقليدية الأساسية في العمارة، ترجمة سامي جرجيس، نشر دار إيطاليا، 1981.

110- بل (ألفريد)، الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي من الفتح الغربي حتى اليوم، ترجمة: عبد الرحمن بدوي، دار الغرب الأسلامي، بيروت، 1981.

111- بوشامة كمال، الجزائر أرض عقيدة وثقافة، ترجمة محمد المعراجي، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع ، الجزائر، 2007.

112- ترمنجهام (سبنسر)، الفرق الصوفية في الإسلام، ترجمة ودراسة وتعليق: عبد القادر البحراوي، طبعة 1، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، 1997.

113- حمودي عبد الله ، الشيخ والمريد، النسق الثقافي للسلطة في المجتمعات العربية الحديثة، ترجمة عبد المجيد ححفة، دار طوبقال للنشر ، المغرب، 2000.

114- دونوفو (إدوارد)، الإخوان، دراسة إتنولوجية حول الجماعات الدينية عند مسلمي الجزائر، ترجمة: الدكتور كمال فيلالي، دار الهدى للطباعة والنشر، عين مليلة، الجزائر، 2003.

115- شوفالييه جان ، التصوف والمتصوفة، تعريب: عبد القادر قنيني، الدار البيضاء، 1999م.

116- غني قاسم، التصوف في الإسلام، ج1، ترجمه عن الفارسية صادق نشأت، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1970.

117- مارسي (جورج)، الفن الإسلامي، ترجمة: عفيف بهنسي، منشورات وزارة الثقافة ، دمشق، 1968.

118- ـــــــــــ، المعالم الأثرية العربية لمدينة تلمسان، ترجمة مجموعة من المؤلفين، شركة الأصالة للنشر و التوزيع، الجزائر، 2011.

119- ويشر نيكولا، المنطق عند العرب، ترجمة محمد مهران، بيروت، دار المعارف، 1985.

4)الموسوعات والمعاجم:

أ-الموسوعات:

120- بن بريكة (محمد)،موسوعة التصوف الإسلامي، دار المتون للنشر و الطباعة و التوزيع، الجزائر، 1427هـ/2006م.

121- الحنفي (عبد المنعم)، موسوعة الصوفية، أعلام التصوف و الطرق الصوفية، دار الرشاد، القاهرة، 1992.

122- غالب (عبد الرحيم)، موسوعة العمارة الإسلامية، ط1، بيروت، 1998.

123- قاجة (أحمد جمعة)، موسوعة فن العمارة الإسلامية، ط1، لبنان، 2000.

ب- المعاجم:

124- آبادي (الفيروز)، القاموس المحيط، ط7، بيروت، لبنان، 2003.

125- الزبيدي (محب الدين مرتضى)، تاج العروس من جواهر القاموس، دار الفكر، بيروت، 1994.

126- عاصم (محمد رزق)، معجم مصطلحات العمارة والفنون الإسلامية، ط1، مكتبة مدبولي، القاهرة، مصر، 2000.

127- ابن منظور (جمال الدين محمد بن مكرم الأنصاري)، لسان العرب، ج4، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت، 2008.

128- نويهض (عادل)، معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر، مؤسسة نويهض الثقافية، بيروت، 1980.

5)المذكرات والرسائل الجامعية:

أ-رسائل الدكتوراه :

129- دحدوح عبد القادر، مدينة قسنطينة خلال العهد العثماني، دراسة عمرانية أثرية، رسالة دكتوراه العلوم في الآثار الإسلامية، 2009-2010

130- بوزرينة سعيد، الزوايا في الجزائر خلال العهد العثماني، دراسة أثرية معمارية فنية مذكرة الدكتوراه، جامعة الجزائر (2)، 2015-2016.

131- صحراوي عبد القادر، التصوف والمتصوفة في الجزائر العثمانية ما بين القرنين السادس عشر والثامن عشر، أطروحة لنيل درجة الدكتوراه، جامعة سيدي بلعباس، 2008-2009.

132- بوغديري كمال، الطرق الصوفية في الجزائر، الطريقة التيجاني نموذجا، أطروحة دكتوراه مقدمة لنيل شهادة دكتوراه علوم فبي علوم التاريخ، جامعة الدكتور محمد لمين دباغين، سطيف، 2014-2015.

133- عزوق عبد الكريم، المعالم الأثرية الإسلامية ببجاية ونواحيها، أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه دولة في الآثار الإسلامية، جامعة الجزائر،2007ـــ2008.

134- بن لباد الغالي، الزوايا في الغرب الجزائري، التيجانية والعلوية والقادرية، دراسة أنثروبولوجية، أطروحة الدكتوراه في الأنثروبولوجيا، جامعة تلمسان، 2008-2009.

135- لعرج عبد العزيز ، المباني المرينية في امارة تلمسان الزيانية، رسالة الدكتوراه، دولة قسم الآثار، جامعة، الجزائر، 1999.

ب- مذكرات الماجستير:

136- بعارسية صباح، حركة التصوف في الجزائر خلال القرن العاشر الهجري السادس عشر الميلادي، مذكرة لنيل درجة الماجستير في التاريخ الحديث الجزائر، 2005ـــ2006.

137- حديبي مراد، الزوايا التيجانية بالجنوب الجزائري، مذكرة ماجستير في الآثار الإسلامية، معهد الآثار، جامعة الجزائر 2، 2011-2012.

138- بودريعة ياسين، أوقاف الأضرحة والزوايا بمدينة الجزائر وضواحيها خلال العهد العثماني، مذكرة ماجستير في التاريخ الحديث، جامعة الجزائر2، 2006-2007.

139- بوزوينة اسماعيل، تمثلات الاغنية الشعبية لشخصيات الأنبياء والرسل والأولياء الصالحين، دراسة تحليلية ، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في الأغنية الشعبية الجزائرية ، تلمسان 2015-2016.

140- بن علي نصيرة، رسالة شيخ الزاوية، دراسة أنثروبولوجية في التصورات والطقوس، زاوية شيخ البشير نموذجا، مذكرة لنيل شهادة الماجستير ، علم الاجتماع، جامعة وهران، 2007-2008.

6)المراجع باللغة الأجنبية :

141- Andezien Sossie, Expériences du divin dans l'Algérie contemporaine Adeptes des saints de la région de Tlemcen CNRS , Editions Paris , 2001 .

142- Bargés Abbej. J. L, Complément de l'histoire des Beni Zeiyan rois de Tlemcen, Ernest leroux libraire Editeur, Paris, 1887.

143- Bel Alfred, L'islam mystique ,Jules carbonal imprimeur editeur , Alger, 1928

144- Bendriss Karim, Sidi Hamza Al Quadiri Boudchich ,le renouveaux du Soufisme au Maroc par El bouraq, Beyrout, Liban, 2002.

145- Braudel. F, La méditerranée à l'époque de Philipe 2, Tome 2 , Librairie Armand Colin, Paris, 1976.

146- Brosselard Charles, Les Khouans de la constitution des ordres religieux musulmans en Algérie, imprimerie de A. Bruget, Alger, aout 1952.

147- Brosselard, les inscriptions arabes de Tlemcen in Rev Afr n° 5, 1860, OPU Alger.

148- Depont Octave et Coppolani Xavier, Les Confréries religieuse musulmanes ,j.maison neuve Geuthners S.A, Paris, 1897.

149- Dermenghem Emile, Le culte des saints dans l'Islam maghrébin, Gallimard, Paris, 1954.

150- Gulien Charle André, Histoire de l'Afrique du nord, Sned, Alger, 1980.

151- Marçais George, L'Art musulman, Presse universitaires de France, Paris, 1962.

152- Mercier Ernest, Histoire de l'Afrique septentrionale depuis les temps les plus reculés jusqu'à la conquête française ,Paris 1888 .

153- Rinn Louis, Marabouts et Khouans, librairie éditeur, Alger, 1884.

154- Trumelet) C), l'Algérie légendaire en pèlerinage ça et la au tombeaux ,libraire Adolphe jourdan, Alger, 1892.

155- Vayssetes (E : (Histoires de Constantine sous la domination Turque de 1517 à 1837, Paris, Bouchane, 2002.

156- Villot ,Mœurs, Coutumes et institutions, 3ème éditions, Librairie Adolphe jourdan, Alger. .1888 .

7)المواقع الإلكترونية:

155- www.alsoofia.com.

156- www.islamic-sufism.com

157- www.almahdy.net

158- www.maktoobblog.com

159- www.onfesse.org.

فهرس الموضوعات

فهرس الموضوعات

إهداء	
شكر وعرفان	
مقدمة	أ
مدخل : نشأة التصوف في المغرف الإسلامي	**01**
المبحث الأول: تعريف التصوف	**02**
المبحث الثاني: البوادر الأولى لنشأة الصوفية	**08**
المبحث الثالث: العوامل المساعدة على ظهور التصوف	**10**
الفصل الأول: ظاهرة التصوف في الجزائر خلال العهد العثماني	**11**
المبحث الأول: الأوضاع العامة للجزائر خلال العهد العثماني	**12**
المبحث الثاني: الطريقة الصوفية	**24**
المبحث الثالث: نشأتها وتطورها في العالم الإسلامي	**30**
المبحث الرابع: الطرق الصوقية في الجزائر	**35**
الفصل الثاني: الزاوية في العمارة الإسلامية	**48**
المبحث الأول: تعريف الزاوية لغة وإصلاحا	**49**
المبحث الثاني: نشأة الزاوية وتطورها	**53**
المبحث الثالث: مراحل تكونها ومهامها	**60**
المبحث الرابع: التكوينات المعمارية للزاوية	**77**
المبحث الخامس: أنواع الزوايا ووظائفها	**83**

الفصل الثالث: مراكز التصوف في الجزائر العثمانية	**86**
المبحث الأول: زوايا الشرق الجزائري	**87**
المبحث الثاني: زوايا الوسط الجزائري	**99**
المبحث الثالث: زوايا الغرب الجزائري	**101**
الفصل الرابع: مراحل التربية الروحية عند الصوفية	**131**
المبحث الأول: الطريقة عند الصوفية مفهومه ومراحله	**132**
المبحث الثاني: الولاية والكرامة الصوفية	**151**
المبحث الثالث: الجوانب الجمالية والفنية للتصوف	**155**
الفصل الخامس: أعلام التصوف في الجزائر خلال العهد العثماني	**159**
المبحث الأول: عبد الرحمن الأخضري	**161**
المبحث الثاني: عبد الكريم الفكون	**176**
المبحث الثالث: الحسين الورثيلاني	**191**
المبحث الرابع: أبو راس الناصري	**207**
الخاتمة	**229**
الملاحق	**234**
قائمة المصادر والمراجع	**255**
فهرس الموضوعات	**275**

الملخص:

تعد الزوايا من اهم المؤسسات الدينية التي ساهمت في تفعيل حركة التصوف في الجزائر خلال العهد العثماني. وقد تميز العهد العثماني في الجزائر بسيطرة روح التصوف و الزهد على كل مظاهر الحياة، اذ نجد الكثير من الكتب التي الفت في التصوف و تناولت الاذكار و الاوراد والمواعظ و شروح تخص القصائد الصوفية و المدائح النبوية. و سنحاول في بحثنا هذا تسليط الضوء على الابعاد الروحية و الثقافية و الفنية للزوايا و التصوف خلال العهد العثماني في الجزائر. والمتتبع لتاريخ الزوايا و التصوف خلال القرنين 16م و 18م يقف على مزايا و وظائف مراكز التصوف عبر مختلف مناطق البلاد .

الكلمات المفتاحية: الزاوية– الجزائر– التصوف– العهد العثماني– الذكر– البعد الفني.

Résumé:

Al-Zawiya est l'une des institutions religieuses les plus importantes qui ont contribué à activer le mouvement soufisme en Algérie à l'époque ottomane. L'ère ottomane en Algérie a été caractérisée par la domination de l'esprit du soufisme et de l'ascétisme sur tous les aspects de la vie. Et nous tenterons dans cette recherche d'éclairer les dimensions spirituelles, culturelles et artistiques des angles et du soufisme à l'époque ottomane en Algérie. Le disciple de l'histoire des zawiyas et du soufisme au cours des XVIe et XVIIIe siècles de notre ère représente les avantages et les fonctions des centres de soufisme dans les différentes régions du pays.

Mots clés : Zawiya - Algérie - Soufisme - Epoque ottomane - Dhikr - dimension artistique.

Summary :

Al-Zawiya is one of the most important religious institutions that contributed to activating the Sufism movement in Algeria during the Ottoman era. The Ottoman era in Algeria was characterized by the dominance of the spirit of Sufism and asceticism over all aspects of life. And we will try in this research to shed light on the spiritual, cultural and artistic dimensions of the angles and Sufism during the Ottoman era in Algeria. The follower of the history of angles and Sufism during the 16th and 18th centuries CE stands for the advantages and functions of Sufism centers across the various regions of the country.

key words : Zawiya - Algeria - Sufism - Ottoman era - Dhikr - artistic dimension.